

خاتمِ سلیمان

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: خاتم سليمان
اسم المؤلف	: شريف مليكة
لوحة الغلاف	: إهداء الفنان ماهر جرجس
تصميم الغلاف	: الفنان عمرو الحو
رقم الإيداع	: ٢٠١٨ / ٨٠٢٩
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١٤٢-٧

٨ عبارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه
الدار بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول



دار غراب للنشر والتوزيع

خَاتَمُ سَلِيمَانَ

تَأْيِيف

شَرِيف مَلِيكَة



دَارُ الْفُرُوقِ



إهداء



إلى المرأة في حياتي .. إلى أمي، المرأة الدؤوب المثابرة في عطائها، التي
وهبتني أصول الحياة .. وإلى زوجتي، المرأة الجميلة القوية، التي تحدث
بي ومعى العالم بأسره، التي تعلمتُ معها فنون الحياة .. وإلى ابنتي، الفتاة
المفتونة بالعالم من حولها، التي أعلّمُها وتعلمني كل يوم أن أحب تلك
الحياة، وأن أحبها ..





مقدمة

ماذا يحدث بحارتنا؟ ليس اليوم كالأمس. ولا كان الأمس كأول أمس. أمر خطير طراً. من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟ وهل تجري هذه الشئون بمحض الصدف؟ ومع ذلك فالشمس مازالت تشرق وتقوم برحلتها اليومية. والليل يتبع النهار. والناس يذهبون ويحيئون والحناجر تشدو بالأناشيد الغامضة.. ماذا يحدث بحارتنا؟

نجيب محفوظ (ملحمة الجرافيش) ١٩٧٧

إذا ما كتبت رواية عن (كارس) ووضعتني داخلها، أحب أن أقول لقرائك ألا يصدقوا شيئاً مما تقول عني، أو عن أي منا. لا يمكن أن يفهمنا أحد من ذلك البعد على أي حال.

أورهان باموك (ثلج) ٢٠٠٢



فكرة لاحقة



تحدث أمور في السر والعلانية. الحارة الغارقة في نشاطها الدائب لا تفتن لها. قليلون جداً من يلاحظون أشياء دون أن يُرتبوا عليها نتائج ذات بال. والقلوب ثملة بالآمال مؤمنة بالضياء.

نجيب محفوظ (ملحمة الحرافيش) ١٩٧٧





الفصل الأول

بتلك الأفكار كان يدور ذهن «داود عبد الملك» وهو يتأمل ما حدث له اليوم. لماذا اليوم بالذات؟ شعور طاغٍ مسيطر عليه لساعات الآن بأنه يوم فريد، مختلف، خلاف باقي الأيام. تتوالى الأزمنة وتتعاقب الفصول علينا، ويحيى الرجال ثم يذهبون، فلا نعرف من أين جاءوا أو إلى أين مضوا. وكل بضع سنوات يأتينا رجلٌ متميزٌ عن الباقين، ذو سمة فريدة، يأخذ بألبابنا ويبهرنا لبرهة من الزمن، ولكنه لا يلبث أن يتوارى مع من توارى من قبله. فتمضي بنا الأيام من بعده عادية، لا مبهجة ولا حزينة، لا مثيرة ولا رتيبة، لا غنية ولا فقيرة، فقط عادية. تشرق شمسها المعتادة، فيهرع القوم كعادتهم إلى أعمالهم، ثم يعودون بعدها إلى بيوتهم، يسكنون إلى زوجاتهم وأزواجهن، إلى أبنائهم وبناتهم، وآبائهم وأمهاتهم، فيمزحون قليلاً، ويمرحون قليلاً، ويأكلون قليلاً، ويتكلمون قليلاً. ثم يتفرقون، أو ينامون، أو حتى يرحلون عنا، فتتوارى البسمات مع الأحزان، وتتوالى تلك الأيام «العادية» إلى أن يأتينا رجل غير عادي من جديد. ويظن أغلب الناس أن كل ما يحدث في هذه

الحياة إنما هو من محض الصدفة أو المفارقة، بل ويسمون بعض ما يحدث قضاءً وقدرًا!! يا للسخافة!!... يا الله! ما هذا البرد اللعين!.

لم يزل يخطو بخطوات واثقة فوق طريق الكورنيش بعيدًا عن «محطة الرمل» بصخبها، يتسلى بوقع كعب حذائه المتوالي باضطراب رتيب فوق أرضية الرصيف حيث عمّ الهدوء النسبي مغلفًا الطريق من حوله بغلالة صامتة غير مألوفة، وقد تأبط بيسراه آلة العود التي لم تكن تفارقه. كان قبل اليوم مجرد عواد، آتاني يعمل بالقطعة في حفلات (الناس الغلابة) في «محرم بك» أو «المكس» أو في أحسن الأحوال «الأزاريطة» أو «الإبراهيمية» حيث يسكن الأجانب بنفحاتهم الدسمة. حقيقة يدعونه «الملك»، ولكنه مجرد كلام، فهو أولاً وأخيرًا ضرورة من ضرورات الفرفشة والمرح، لمن أوتي أجره، ثمن بضاعته، وهو على أى حال زهيد نسبيًا؛ فرح، عيد ميلاد، سبوع، طهارة، يأتيه «الشيخ حسنين البصري» - متعهد الأفراح وصديقه المقرئ في المواسم والمآتم - إلى المنزل العتيق بمحرم بك، حيث شقته بالطابق الثالث وينادي من المنور بصوته الجمهوري الرنان:

- «يا خواجه داود».

فيعرف على الفور أن هناك «شغلانة» بمكان ما، وثلاثون قرشًا ينتظرونه.

توقف واستدار ليتأمل قرص الشمس الغائب خلف حي «السلسلة» الممتد أمامه، بمبانيه القصيرة المتكدسة عند الأفق، قبل أن يبدأ الخط السحري الذي يفصل ما بين زُرقة البحر الممتدة وبين حمرة السماء من حول وهج القرص الغاطس أمامه، وقد اختفى ثلثه الأسفل، محدثاً إياه عن رحيل يوم مليء بالأحداث، ومبشراً بقرص جديد تماماً سيولد لأجل خاطر عيونه في فجر الغد. لملم جنبات المعطف الصوفي الذي استحال سواد هيئته اللامع الذي كان عليه يوم ابتاعه من سوق «زنقة الستات» إلى لون فيراني غامق من طول الاستعمال وقلة العناية، وأحكم وضع الكوفية النبيذية المضلعة حول رقبته، واستعدل طربوشه الأحمر القاني المحوف بسواد عند أسفله والقائم فوق رأسه باستحياء حيث لم يشده أو ينظفه الكواء أبداً، لضيق ذات اليد ليس إلا. أحكم وضعه درءاً لهبة ريح أمشيرية قذفت بموجة البحر الثائرة التي ارتطمت بقوة، فتحطمت نائرة رذاذها في الهواء فوق صف الصخور المكعبة، المغطى بسجاد أخضر من النباتات والطحالب البحرية تنكشف تباعاً عند انحدار المياه عنها، والمرصوص بطول كورنيش مدينة الإسكندرية؛ معشوقته، وملاذه، بيته ومسقط رأسه.

ملاً صدره برائحة البحر المنعشة، وسبح في أفكاره متأملاً المنظر من حوله، وتلك الأحداث المتعاقبة التي ملأت يومه حتى الآن، ولم يلبث أن دس يده

الباردة في جيب المعطف الأيمن ملتصقاً دفئه ومتحسساً الخاتم الفضي القابع
في قاعه وهو يدندن:

القلب من جرحه بكى ظلم الحبيب

ولم يلق قلبه هاتشتكي هجر الحبيب

كان داود عبد الملك حينئذ، أو دعونا ندعوه كما يدعوه الجميع «الخواجة
داود» - بالرغم من أنه لم يكن فعلاً «خواجة» - قد جاء إلى الإسكندرية من
أى وطن آخر مثلاً، ولا تركها ولا حتى حي محرم بك نفسه - حيث الشقة
التي ورثها عن المرحوم والده - أبداً - إلا طبعاً في المرات القليلة حين أجبره
العمل أو الضرورة القصوى إلى أن يتركها لساعات، أو ليوم أو يومين على
أقصى تقدير، ويقصد المدن المجاورة، أو القاهرة - أو «مصر» كما يدعوها
الإسكندريون - في مرات معدودة. وبالرغم من أنه لم يكن يعرف من البلدان
غيرها، ولم ينطق لسانه إلا بالعربية لغة أهلها، إلا أنه كان يُدعى «الخواجة
داود» لأنه لم يكن «مسلماً» كالباقين على أى حال. أو هو «ملك الطرب» كما
يطلقون عليه في ساعة التجلي، لكثرة الأدوار والأغاني التي كان يحفظها،
ولبراعته في العزف على آلة العود والغناء بصوت عذب وقوي شهد له عنه
الجميع. إسكندراني أباً عن جد، نشأ وترعرع في شوارعها وحواريها، وتعلم
في مدارسها حتى حصل على البكالوريا، ولكنه لم يسع أبداً وراء الوظيفة

الحكومية، فقد كان كالعصفور يعشق حريته، ويتباهى بها بين أقرانه. مضت به الأيام حتى صار كهلاً، على مشارف الخمسين، متوسط البنية، يميل إلى القصر ولكنه وسيم منمنم القسمات، أسمر البشرة في حمرة نحاسية نفحها به هواء البحر وشمس مدينته الساطعة، والعينان العسليتان الضيقتان في لمعان متوهج دائماً، والشارب الملفوف المتناسق مع لمعة شعره الأسود ذى الجزر البيض عند سبليه وفوق قمته، المدهون والمصفف بعناية على الدوام، يمشي بخطوة واسعة وبخيلاء ماداً قامته لأعلى مع كل خطوة، معتنٍ على الدوام بلباسه ومظهره بحسب ما تتيحه ظروفه المادية. كان رجلاً حيّاً، يعشق الحياة والطرب والمزاج، يحب الناس جميعاً، ولكنه يعشق النساء!. وقد تزوج ثلاث مرات في غضون السنوات الماضية - بعد أن فقد زوجته الأولى - لمرض السل في حالة «بدور» زوجته الأولى، ولهرب الثانية «صوفي»، المرأة اليهودية التركية الأصل، وغير المصرية الوحيدة التي اقترن بها، وقد فرّت من مصر كلها عند احتدام الحرب العالمية الثانية ولما انتشرت الأنباء عن اقتراب قوات النازي من مدينة «العلمين»، فوجئ بها تحزم حقيبتها وتحمل طفلتهما «مارجو» على ذراعها، وتسافر لمارسيليا على متن باخرة صغيرة حملتهما مع مجموعة من اليهود الأوروبيين (الأشكينازي) من الإسكندرية هرباً من بطش النازي المرتقب. ومن ثم فقد أنجب داود ثلاثة عشر ابناً وابنة، فَقَدَ

منهم سبعة للموت في سن الطفولة وأوائل الشباب، وبقي ستة، أحبهم إلى قلبه «سليمان»، الابن البكر من زوجته الحالية «إيلين» التي أنجبت له أيضًا «منى» و«مكاري»، وإن رحل الأخير في شوطة الكوليرا الصيف الماضي، بالإضافة لـ «فؤاد» ابنه الأكبر و«موسى» و«ليلي» أبناء «بدور».

أما عن زوجته إيلين، فقد كانت فتاة قبطية يتيمة تعيش في ملجأ العذراء بكم الدكة تحت كنف الكنيسة هناك. تميل إلى الجمال بعينها السوداوين الواسعتين اللتين تملآن وجهها وتسرقان الناظر إليها، وشعرها الفاحم السواد الذي كانت دائماً ما تعقسه في دائرة فوق رأسها الشديد الاستدارة كرأس طفل وبشرتها القمحافية الناعمة، وإن كان ما يميزها حقاً هو ذلك النشاط والهمة المتقدة التي لا تكل ولا تهدأ. كانت تهب دوماً من نومها قبل كل البنات في العنبر الصغير، فتسرع للكنيسة التي كانت في الحقيقة الحجرة الأخيرة في الممر الذي يمتد كالشريان الموصل لحجرات الدار، أقاموا عند حائطها الشرقي هيكلًا للعذراء مريم، هو في الواقع عبارة عن منضدة خشبية بسيطة مفروشة حتى أرضية الغرفة المبلّطة، بغطاء لامع مطرز بصورة للسيد المسيح الطفل، وتحمله السيدة العذراء والدة الإله (أو الثيوتوكوس باللغة القبطية، وقد كتبت بالحروف الديموطيقية ثم العربية على يافطة عند مدخل الحجرة الكنيسة) وقبعت أمام الهيكل أو المذبح سجادة بسيطة أو بالأحرى

كليم أحمر يقف فوقه القس أثناء صلوات القداسات التي يصلّيها «أبونا ميخائيل» أيام الأحد والأربعاء والجمعة في الخامسة والنصف صباحاً، حيث يفرغ بعدها من الصلاة ثم يتجه إلى كنيسة العذراء بمحرم بك ليشترك القمص مرقص عبد المسيح في صلوات القداس هناك. دأبت إيلين على أن تمارس طقوس حياتها بالتزام ومثابرة، فكانت تصلي «الباكر» وهي جاثية تبلل الدموع خديها عند فجر كل يوم، قبل أن يستيقظ أحد في الدار، ثم تسرع إلى المطبخ وهي تغني بتسابيح أو بترانيم، أو حتى بأغاني «سي عبد الوهاب» أو «الست ثومة»، التي كانت تتنامى إلى أذنيها المرهفة، عبر الشبايك، من الراديو القابع بالمقهى على الرصيف المقابل للدار والصادح بأغانيه ليلاً ونهاراً، فتعد الشاي والفتور للأم «إيريني» مديرة الملجأ والبنات اللواتي كن يتسرسبن تباعاً لحجرة الطعام بالدار. ثم يمضي يومها بعد ذلك من عمل إلى عمل وهي تشدو لنفسها حتى غروب الشمس، حين تتجمع الفتيات في صحن الاستقبال ليستمعن إلى درس الكتاب والألحان الذي تلقيه عليهنّ أمنا إيريني كل يوم، فيما عدا الإثنين والجمعة، حين يأتيهن «أبونا ميخائيل» ليقود الاجتماع بدلاً منها.

وفي يوم، وكانت الدار تستعد لتقديم حفل خاص بمناسبة زيارة الأسقف لأول مرة، اصطحب أبونا الأستاذ داود العازف المشهور بمحرم بك، ليعزف

العود في حين ترنم الفتيات. فحدث أن أعجب داود بصوت الفتاة إيلين قبل أن يجذبه إليها حسن مظهرها، حيث شده غناؤها الشجي الجميل النبرات، كصوت «ليلي مراد» ولا أقل، كما تفكر يومها، وكان قد فقد زوجته «بدور» لتوه وفي كنفه ثلاثة أبناء، ففكر أن يتزوجها. عرض الأمر على القس الذي سألته أولاً عن ديانته ليتأكد من كونه مسيحياً أرثوذكسياً، ولما نفى داود ذلك رفض تزويجها طبعاً إلا لو نال نعمة المعمودية على طقس الكنيسة القبطية، فسأله عما ينبغي له أن يفعل لينال هذه النعمة! فشرح له القس أنه ينبغي له أن يغطس في جرن مملوء بالماء بإحدى قاعات الكنيسة حيث تحلُّ عليه روح الله المقدسة، فلم يانع داود من ناحيته إذ كان في أمس الحاجة لزوجة في ذلك الوقت، ولم تكن الهوية الدينية الرسمية التي كانت ستكتب فوق خانة الديانة بشهادة الزواج تهمه كثيراً. ولم تمنع إيلين بدورها لما أعلمتها الأم إيريني عن اعتزامهم تزويجها للأستاذ داود عبد الملك، ذلك الرجل الغريب عنها تماماً، عملاً بمبدأ الطاعة أولاً، وحيث إنه كان في نظرها رجلاً وسيماً ومحترماً، بالرغم من كونه أرملاً ولديه ثلاثة أبناء، وبالرغم من فارق السن الواضح بينهما، إذ كان الزواج المخرج الوحيد لها من الحياة في الدار..

وما يزال يعبث في جيب معطفه بالخاتم الفضي الذي قبض عليه ثم أخرجه ليضعه حول بنصره، فانتابه ذلك الشعور الغامض بالقوة الكامنة بداخله كما

كان قد اعتاد دائماً كلما وضع الخاتم حول إصبعه، ورفع عينيه للأمام ناحية الصخور، فكأنه أبصر أطيافاً تتهدى مع ضربات الأمواج المتلاحقة، تعرّف من بينها على شبه «دينوقراطيس»، المهندس الإغريقي الذي رأى رسمه في الموسوعة البريطانية التي ورثها عن والده، بردائه الأبيض الهفّاف، الذي كان قد خطط تصميم مدينته الإسكندرية بأمر من الإسكندر الأكبر، منذ أكثر من عشرين قرناً من الزمان، فحولها من مجرد شاطئ من الرمال البيضاء حول قرية صغيرة للصيادين، إلى مدينة عملاقة - وقتها - حافلة بالقصور والأبنية، مدينة الفنار العجيب والمكتبة العظيمة، وعاصمة للدولة المصرية لنحو ألف عام. نعم! ألف عام ممتدة منذ نحو ثلاثمائة عام قبل الميلاد، وإلى أن أسس «عمرو بن العاص» مدينة «الفسطاط» العاصمة الجديدة لمصر في منتصف القرن السابع الميلادي!.

ولم تكن رحلة داود عبد الملك وحده هكذا في تلك الأمسية الأمشيرية من شتاء ١٩٥١ على رصيف كورنيش الإسكندرية الخالي تماماً من أى مخلوق كان، حيث لاذ الجميع، من دونه وحده، بدفء بيوتهم من برد الشتاء السكندري القاسي، إلا محاولة منه، على طريقته الخاصة جدّاً في مناجاة البحر المترامي بأفكاره وتساؤلاته، آملاً فيما يضيفه الهدوء والصفاء الذهني الذي يهبه إياه في المقابل لاستيعاب ما حدث له في ذلك الصباح. كان قد

استيقظ في الحادية عشرة كعادته بعد السهرة الطويلة ليلة الأمس، وتناول كوب القهوة الممزوج بُنُّها المطحون بجوزة الطيب الفواح الذي أعدته له زوجته، مع سيجارة لفها لنفسه متعجلاً، وكان اعتاد أن يلف بنفسه التبغ في ورق البفرة ويفرطه بطوله ثم يبرم الورقة ويلعق طرفها حتى يلتحم ببقية السيجارة، ثم يشعل طرفها ويدخنها وهو يتفل تباغاً بقايا التبغ الذي قد يتسلل إلى شفتيه. وبسرعة ارتدى ملابسه التي كان قد ألقى بها ليلة أمس على المقعد المجاور لسريه، والتقط العود وخاتمه الفضي وساعة اليد من على الكومودينو ووضعها بيده في عجالة، وصاح وهو يدير مقبض باب الشقة: - «أنا نازل يا إيلين».

فقد كان على موعد للقاء «الشيخ حسنين البصري» الذي كان قد حدّثه عن مشروع (شغلانة) شبه مستديمة لثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع، واتفقا على اللقاء بمقهى خليل أغا بمحرم بك. وفعلاً وجد الشيخ في انتظاره عند وصوله، وإن لم يكن وحده، إذ كان يجالسه ضابط شاب في لباسه العسكري بدت ملامحه مألوفة للوهلة الأولى. استغرب وجود ذلك الضابط ولكنه تفكر في أنه ربما يكون له علاقة بالوظيفة التي جاء من أجلها، أمّا عن الشيخ حسنين هذا فكان رجلاً سميناً ضخماً البنية قويها، يتباهى دوماً بأصوله التركية التي جلبت إليه معها تلك البشرة البيضاء والشعر الأسود

الناعم الذي ملأ رأسه دون أدنى إشارة للصلع أو الشيب رغم كونه في منتصف العقد الخامس، وهو لا يرتدي إلا الجبة والقفطان والعِمَّة الحمراء و(الكاكولا)، تيمناً بالعامين اللذين أمضاهما بالأزهر قبل نحو عشرين عامًا. كان عملاقاً معممًا وملتحياً ولكنه قد التبس روح وعقل طفل في العاشرة، بشوش الوجه والقسمات، بسيط السريرة وشديد المرح حتى غابت عنه هيبة العلماء ورهبتهم إذ كانت الضحكة المجلجلة لا تفارقه، قليل الكلام بصفة عامة وخصوصاً الجاد منه، وقليل الحيلة في أغلب الأوقات، نعم، وإن كان يتمتع بفطنة أولاد البلد الفطرية وخفة ظلمهم، وكان الخواجة داود الصديق الوحيد الذي خرج به من دنياه المحدودة جوانبها، يتقابل معه بصفة شبه يومية لسبب العمل أولاً ثم كأصدقاء وأرباب جيرة واحدة. جلس قبالتهم وهو يمدُّ يده للسلام لتلقاها في طريقها أولاً يد الضابط الذي شد عليها بحرارة كادت أن تؤلمه قائلاً:

- «أهلاً يا خواجة داود، أنت مش فاكرني ولا إيه؟». صوته الرفيع لا يتناسب مع ضخامة الرجل وفحولته، وكأن طفلاً مشاغباً كان مُحَبَّباً تحت شبه الضابط الجالس قبالته، فأجاب داود قائلاً وقد رسم ابتسامة مجاملة فوق وجهه، أو ربما تعبيراً عن سعادته بنجاة أصابعه من عنقوان قبضة الشاب:

- «أنا برضه بأشبه عليك. زي ما أكون أعرفك من زمان، مش برضه كده يا سعادة اليوزباشي؟» وكان قد ألقى نظرة خاطفة نحو نجومه الذهبية الثلاث فوق كتفه، ثم استدار نحو الشيخ حسنين ماذا يده تحية له وانسابت الكلمات بين ضحكاته قائلاً:

- «سلام عليكم يا شيخ حسنين، وشك ولا وش القمر، مدور ومنور ولا كإنك سهران لوش الفجر ليلة إمبراح، ده أنا بالعافية لما صحيت النهارده ولولا كباية القهوة من إيد أم سليمان ما كنتش أقدر أجيلكو ولا ساعتين كمان، وأديك أهو ما شاء الله قاعد كده منفوخ ومزهر زي الديك الرومي ولا كإن فيه أى حاجة». وكانت تلك الكلمات اللاذعة بينهما مثاراً لضحكاتها ومداعبتها بعضهما البعض لأكثر من ثلاثين عاماً هي عمر صداقتهما، ثم مستديرًا للضابط:

- «ولا مؤاخذه يا سعادة البيه. إحنا كده غاوين نناكف في بعض من زمان». وكانا قد أمضيا معظم ساعات الليل، كشأنهما دائماً، يتسامران مع عوده، وأغاني عبد الوهاب، و(نص قرش) حشيش كان الشيخ حسنين قد حصل عليه على سبيل «البقشيش» بعد إحياء فرح الأمس..

«إنت هاتقول لي يا خواجه داود. ما أنا شاهد على كده من صغري، شوف بقى يا سيدي أنا هأفكرك بيّ لأنه باين إنك مش فاكرنى. أنا يا سيدي اسمي «جمال» ابن الأستاذ «عبد الناصر حسين» موظف البوستة جاركم في محرم بك في العشرينيات. افكرتني دلوقت؟ ده كان أبويا صاحبك وياما سهرتوا سوا، وياما سمعت منك أغاني الست ثومة والأستاذ عبد الوهاب في شقتنا في (فليمنج) وانت بتتسلطن بعودك ده». وأشار إلى العود المستلقي باسترخاء على المقعد المجاور للخواجه داود..

«آه. عبد الناصر حسين». وألقى داود برأسه للخلف سارحًا بين دهاليز الذاكرة مع مكنون تلك الكلمات، وخلع عنه الطربوش ومدّ يده يمسح بها فوق شعر رأسه المصفف للخلف، صديقه الرجل المحترم الذي تحمّس معه للعمل الوطني من بعد ثورة ١٩١٩ فتبادلا الزيارات لوهلة بحي «فليمنج» وقبل أن ينتقل لشقة محرم بيه بعد وفاة والده، دبرا خلالها - سرًّا - طبعًا - عمليات صغيرة هنا وهناك لتعكير الجو على الوجود الإنجليزي بالإسكندرية. وتذكر أيضًا سهراتها المرحّة في البلكونة مع العود والطرب وطبق الكبدة الإسكندراني المطعم بالفلفل الحراق، والمحش بالكمون والبهارات، والكباب الضأن والكفتة وسلطة الطحينة التي كانا يتناغانها

طازجة من عند «عم سيد» الكبابجي، في ليالي الصيف الساهرة. ثم انتبه ثانية وأضاف:

«يعني إنت بقى - لا مؤاخذة يعني - الواد الصغير إللى كانوا بعتوه لمصر عند عمك. بعد يوم المظاهرة في المنشية؟ أيوه. إفتكرتك يا بن عبد الناصر أفندي. ده كان راجل سمّيع بصحيح. ثم استدار نحو الشيخ حسنين:

- «فاكر يا شيخ حسنين عبد الناصر إفندي إللى كان ساكن في بيت الدكتور قنواقي؟ ولا انت صحيح ماكناش نعرفوك أيام (فليمنج)» فأوماً الشيخ بعفوية مع احتفاظه ببسمته الرائعة، إذ لم يكن يتذكر الرجل أو ابنه، وإن لم يكن يريد أن يبدو كالغريب عنهما حيث لم يكن المدعو عبد الناصر أفندي هذا صديقه أصلاً. فاستدار داود ثانية مخاطباً الضابط:

- «وهو فين أراضيه دلوقت؟ دانا ما شفتوش من ييجي عشرين سنة. إنتو نقلتوا لمصر ولا إيه؟ أهلا بيك يا حبيب يا بن الحبيب». ثم استدرّك معتذراً لتبسطه في الكلام هكذا مع الرجل الذي بالكاد قابله:

«لا مؤاخذة يا سعادة اليوزباشي إذا كنت يعني قلت كلمة مش ولا بد، ده بس من عشمي، ده حضرتك كنت ولا مؤاخذة قد كده آخر مرة شفتك» وأشار بيده أمامه معني نصف متر من الأرض.

- «طبعًا طبعًا يا خواجه داود. أبويا بخير». ثم بنبرة حزن أضاف وقد أشاح بوجهه بعيدًا:

- «بس الوالدة تعيش انت. المهم إيه أخباركم إنتم؟ الكلام خدنا وماقلتلکش أنا طلبت أقابلك ليه»..

تفكر «داود» في ألا عيب ذلك الزمن الذي فرّق ما بين الأصدقاء كل تلك السنوات، فسار كلّ في طريقه عمرًا طويلًا، حتى عاد وجمع من جديد ما بينه وبين ابنه الشاب. لقاء لم يكن في الحسبان. وابتسم متأملًا الصبي اليافع الخجول الذي صار، وكأنه ما بين يوم وليلة، رجلًا ممتلئًا حماسة وحياة، وعاد من جديد للإسكندرية ليتقابل معه فيعيد إحياء تلك الذكريات التي حسبها ولت بعيدًا واندثرت..





الفصل الثاني

كان «اليوزباشي جمال» رجلاً أَسْمَرَ وسيماً، يافعاً يميل للطول، في منتصف الثلاثين. ذو شخصية آسرة يأبى إلا أن يسيطر على مجريات الأمور من حوله. وكانت الكلمات تتسابق خارجة من فمه كطلقات مدفع رشاش، تنطلق في دفعات متتابعة، وبالرغم من جديته الظاهرة، إلا أنه لم يكن بوسعك إلا أن يستحوذ عليك تماماً بعد دقائق من اللقاء به. وكانت ملامح وجهه تميل للصرامة بنظراته النافذة، وحاجبيه الكثيفين، وشاربه الرفيع الأسود الذي يحف بأنف عظيم، وكانت تلف بمظهره العام هالة من الأناقة البسيطة التي تشي بطبقته الوسطى دون أى شبهة تكلف أو ادعاء، كما لبعض ضباط تلك الأيام، حيث كان يصعب الالتحاق بالكلية الحربية لمن لم يكن ابن فلان، أو على الأقل موصى عليه من طرف كبير من الكبراء، كما كانت العادة في ذلك الوقت، مما كان يدفع البعض منهم إلى المباشرة بأصولهم العريقة أو بدوائرهم الاجتماعية المرموقة بدليل وصولهم للمكانة التي هم عليها كضباط في الجيش المصري. استوى حضرة الضابط على كرسيه ثم مدَّ يده ليحل طية الجيب

العلوى بيزته العسكرية بأزرارها الذهبية اللامعة، وأخرج علبة سجائره ثم أشعل واحدة وهو ينظر نحو الخواجة داود، الذي كان قد انصرف عنهما بذهنه سارحاً في سهراته مع عبد الناصر حسين في أيام الشباب، واشتراكهما معاً في مظاهرات «المعاهدة» وكتابة وتوزيع المنشورات المعادية للملك والإنجليز، بل ورحلاتهما السرية إلى ثكنات الإنجليز بأبي قير، وزرع أصابع الديناميت التي كان داود يحصل عليها من أحد أصدقائه بسلح الفرسان، وتعجب كيف احتفظا بتلك الذكريات سرّاً عن عائلتيهما، ملاحظاً في الوقت نفسه التشابه العجيب بين شخصية الأب والابن، فيما كان يعبث بأصابعه بخاتمه الفضي الذي التف حول بنصره الأيسر. وسرعان ما أعادته كلمات الضابط إلى مقهى خليل أغا. وعلى امتداد البصر فوق مكتب المعلم صاحب القهوة بسطحه الرخامي الذي يحمل جهاز التليفون الوحيد في المربع السكني من حوله، ومن فوق كتف الضابط، برزت صورة الملك «فاروق الأول» بإطارها المذهب ونظرته التائهة وشبهه ابتسامة تتمخض تحت شاربته المبروم. قطع استرسال أفكاره صوت جمال قائلاً:

- «إنتو بقى عاجبكم حال البلد كده؟»

- «أنهو بلد يافندي؟ تقصد يعني إسكندرية؟ ماها يعني؟» أجاب الشيخ

متسرّعاً.

- «إسكندرية إيه بس؟ أنا باتكلم عن مصر كلها يا شيخ حسنين. أنا عارف إنك مهتم بالعمل الوطني، بما إنك عضو في جماعة الإخوان المسلمين هنا في إسكندرية». وهنا بدا ارتباك مفاجئ على الشيخ، وانثنى بجذعه للأمام وقد مدَّ يده أمام فمه، تروح وتجيء بحركات متتابعة مشيراً له أن يكف عن الكلام قائلاً:

- «طب بس بس.. أيووه!!.. الحيطان ليها ودان يا سعادة اليوزباشي». واستدار نحو داود كالمعتذر، إذ كان قد أخفى عنه حقيقة انتبائه للجماعة حتى اليوم، بالرغم من صداقتها الممتدة. وربما كان ذلك راجعاً لعدم قناعته الكاملة بمبادئ جماعة الإخوان، التي لم يكن لينتمي إليها أولاً إلا بالاحاح من «الشيخ فودة» من «الرمل» وخوفه من يده الطائلة لو لم يطاوعه وينضم للجماعة. لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام السياسي من قبل، ولكنه تعلم في غضون لقاءات معدودة مع «الشيخ فودة» وأصحابه مبادئ الجماعة في أن الإسلام دين ودولة، كما كان عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين، فلذا وجب أن يكون حاكم البلاد مسلماً يتبع شريعة الله وسنة رسوله ويطبقها في ممارسة ولايته لشئون البلاد.

عندها أضاف جمال عبد الناصر بنبرة جادة - ولكنه تعمد أن يخفض من صوته فصار يكلمهما وكأنه يهمس - جاذباً إياهما لحديثه من جديد:

- «شوفوا يا رجاله، أنا دلوقت ومن بعد ما رجعنا من حرب فلسطين،
باشغل مدرس في الكلية الحربية في مصر، لكن إسكندرية حتة مني ولازم
آجي واشم ريحة بحرهما واشوف ناسها كل شوية. بصراحة يا رجاله أنا
وشوية أصدقاء من إخواني الضباط في الجيش عاملين «تنظيم» وطني، يعني
مش عاجبنا حال البلد وبنحلم بالتغيير». واعتدل قليلاً وتلفت مستطلعاً
تأثير كلامه عليهم، وعلى بقية رواد المقهى متأكداً من أن كلامه لم يبلغ
مسامعهم. ثم أضاف:

- «وانتوا بقى أهل ثقة عندي لأنني متأكد إن ما فيش فيكي يا إسكندرية
حد بيعب البلد دي أكثر منكوا يا رجاله، ولا إيه؟» وكان داود قد امتعض
قليلاً عند ذكر حرب فلسطين، ولكن لم ينتظر الشاب الأسمر الذي كان
قد مال بجذعه للأمام مستنداً بمنكبيه على المنضدة الرخامية أن يجيب أحد
على سؤاله، بل تأملهما متفحصاً رد فعل كلماته على وجهيهما، وشرع يشعل
السيجارة تلو الأخرى وكأن كلماته من نار تخرج من بين شفثيه مغلفة بسحابة
من الدخان، وأسرهما معاً بحديثه فأسهب:

- «هاحكيلكو حكاية أثرت فيّ جداً ويمكن ما فيش حد يعرفها. أنا طول
عمري بحلم أكون ضابط، وعلشان كده أول ما ظهرت نتيجة البكالوريا،
جريت على أبويا أترجاه يشوف لنا واسطة عند حد من الأكابر علشان

يقبلوني في المدرسة الحربية، لأن الموضوع زى ما انتوا عارفين محتاج لواسطة كبيرة. والله العظيم كان قلبي بيتقطع وأنا باطلب من أبويا الطلب ده، بس أعمل إيه؟. أبويا الغلبان قال لي إنه يعرف السواق بتاع باشا كبير ووعدني يكلمه. يومين وطلبني الباشا أقابله على باب سرايته علشان ياخدني للباشا المسئول عن قبول الطلبة المستجدين. أنا ما صدقتش نفسي، وقلت أنا أكيد بحلم، وطبعًا ما نمتش ليلتها، فضلت سهران طول الليل بالبدلة الوحيدة اللي حيلتي، واقف بيها زنهار، خايف ولو حتى أقعد لا بعدين تتكرممش. ومن الفجر كنت طائر على فيلا الباشا وفضلت واقف حِدا البواب أتفرج من بين عواميد السور الحديد على الجنيّة الجميلة المنسقة لحد ما خرجت الكاديلاك السوداء من البوابة. شافني «الأسطى لمعي» فوقف، الباشا فتح الشباك وشاورلي أركب. لفيت أركب - الناحية الثانية طبعًا - وفتحت الباب فإذا بالباشا بيشخط: إيه يا ولد التغفيل ده، إنت جاى تقعد جنبي؟ إمشي انجر أقعد قدام جنب السواق. ساعتها كنت نفسي الأرض تنشق وتبلعني. إيه المهانة دي كلها؟ وليه؟ ليه الناس بتعمل كده في بعض؟ وليه لازمني واسطة من سعادة الباشا عشان أدخل المدرسة الحربية واكون ضابط في جيش مصر؟ هي «مصر» دي بلدي ولا بلد ناس تانية؟ مهما هاعيش مش ممكن أنسى الحكاية دي» ثم أضاف موجّها كلامه لداود:

- «أبويا كلمني كثير عنك يا خواجه داود، ووصاني عليك تكون دراعنا هنا. إحنا عايزين رجالة لينا هنا في اسكندرية، يعني يساعدونا في طبع وتوزيع منشورات، في تنظيم مظاهرات، في سرية تامة وتكتم على الآخر. لابد من استعادة حرية البلد، وكرامة الشعب ده يا رجالة. ولا إيه رأيكم في الي بيحصل من ناحية المندوب السامي ولا ناحية القصر ده يا رجالة؟» اصْفَرَّ وجههما عند لفظه تلك الكلمات، وإن لم يَئِدْ أن أيهما كان بصدد أن يعقب، فاستكمل حديثه الذي صمم أن يكمله قائلاً:

- «وأنت يا شيخ حسنين، بعني ليك أنت بالذات الشيخ فودة، إلي هو يبقى عم واحد من إخواننا، من جماعة الضباط إلي قتلكو عليها. بس المهم الكتان يا رجالة، يعني نتعب ونشتغل في سرّية وكتمان حتى عن أهلنا، وكأن شيئاً لم يكن». وهنا ضغط جمال على علبة السجائر الفارغة وألقاها على المنضدة أمامه متلفتاً حوله متسائلاً:

«باقول إيه يا رجالة، هو مافيش دخاخني حوالينا هنا؟ السجاير خلصت!..»

«تاني يمين وع القمة هاتلاقي الخواجه» باللو «الدخاخني». قال داود وكان كالمسحور من جراء ذلك الحديث الذي استمع إليه لتوه. قام جمال واعتدل ثم انصرف إلى خارج المقهى ومضى بخطوات ثابتة متبّعاً لوصفة

داود لمحل الدخان. وهنا رفع الشيخ حسنين، العملاق الأبيض الجالس قبالة، كوب الشاي إلى فمه لأول مرة وكأنه أفاق من غفوة، ثم وضعه ثانية على المنضدة أمامه ثم قال وكأنه يحدث نفسه أو كأنه يهذي قائلاً:

- «إيه الكلام الغريب ده؟ أيوووه!! مظاهرات إيه ومنشورات! وقصر! ومندوب سامي!! إيه إيلي بيتكلم عنه الواد الضابط ده يا داود يا خويا؟ يكونش ملعوب عامله علينا؟ ولا يكونش من البوليس السياسي، ومتخفي وعازب يوقعنا في الكلام لما عرفوا بحكاية اجتماعات الإخوان دي؟ الله يجازيك يا شيخ فودة. طيب لما أشوفك!! أيوووه!! رحت ف داهية يا شيخ حسنين!! دول ما كانوش اجتماعين حضرناهم!! خلاص يعني هانروحو اللومان عشان اجتماعين؟ الله يجازيك يا شيخ فودة. طيب لما أشوفك!! أيوووه يا جدعان!!». ولملم الشيخ عباءته وانتفض واقفاً وقد انتابته حالة هياج الزربونة التركية بداخله، أمام اندهاش داود الذي كان يكتم الضحك بصعوبة. لكنه تمالك نفسه وقال:

- «اقعد يا شيخ حسنين، اقعد بس واهدا وصلي كده عالنبى. بوليس إيه وبتاع إيه؟ غايته شبان حلوين فاير الحماس بيهم وعازبين يعملوا حاجة عشان مصر. زيهم زي غيرهم يا حسنين يا خويا، هم يعني وحدهم إيلي يشتغلوا؟ ثم إيه حكاية الإخوان دي بقى؟؟ بعدين. بعدين لينا كلام وياك.

اقعد بس لما نشوفو سي جمال ده عاوز إيه. ده ابن عبد الناصر أفندي - جارنا وحبينا - الرجل الوطني وعلى ضماني.. فعاد وجلس الشيخ متململاً مرة أخرى، كما كانت عادته دائماً في الانصياع في النهاية لرأى الخواجة داود. ثم ما لبث أن رجع الضابط منفرج الأسارير، وقد تبذلت الصفحة الجادة التي كانت تعتلي وجهه بأخرى بشوشة، إذ كان قد شعر أنه قد قضى مأموريته الرسمية التي جاء من أجلها، وكأنه خلع عنه رداءه العسكري الذي كان قد أملى عليه تلك الجدية الصارمة، فعاد الشاب السكندري المتوهج شاباً، المتواري خلف ذلك القناع «الرسمي»، فسحب إليه المقعد وأداره نصف دورة بإطلالة بشوشة، وامتنطاه كفرس وهو يقول:

- «إيه يا خواجة داود مش هاتسمعنا حاجة النهارده للست ثومة ولا إيه؟». فانفجرت أسارير الشيخ حسنين، والتفت ناحية داود عبد الملك ممتناً لأخذه بنصيحته وموافقته لرأيه عن ذلك الضابط المجهول لديه، إذ لم يكن من المعقول أن يطلب جاسوس البوليس السياسي أن يسمع أغنية من أغاني «الست»! فرفع ذراعه منادياً:

- «كباية حلبة مغلية وكرسي معسل يا وله!!»، فيما التقط داود عوده العتيق واحتضنه شارعاً في ضبط أوتاره لدقائق بنغمات متتابعة، ثم رفع رأسه منادياً النادل، صائحاً بنبرة صاحب مكان:

- «وطيلنا الراديو ده حبتين ياخويا، مش عارفين ندوْزن العود». ثم بدأ العزف يعلو ويهبط في مقام «الكورد»، حتى تأكد من أنه استحوذ على انتباه الجميع، وبالتدريج خفت طرقات اللاعبين للفيشات فوق أسطح الطاولة، ولسعات أوراق لعب الكوتشينة على المناضد الرخامية، وصيحات «بصرة!» وضحكات المتسامرين من حولهم، وحتى نداءاتهم لطلب المشروبات، فانطلق عندها يشدو بتحفة «الست ثومة» الأخيرة:

يا ظالمني يا هاجرني وقلبي من رضاك محروم

تلوعني وتكويني

تخيرني وتضنيني

ولما اشكي تخصمني وتغضب لما أقول لك يوم

يا ظالمني

رأى القبول مرسومًا على وجه جمال، حيث أغمض عينيه وكان رأسه يهتز طربًا مع كل فقرة. أما عن الشيخ فقد غادره الإحساس بالوجل من الضابط الشاب تمامًا، فانفجرت أساريه بل وكاد أن يرقص جالسًا على كرسيه، واهتز كرشه أمامه في نشوة على إيقاع الموسيقى، فاسترسل داود:

حرام تهجر وتتجنى وتنسى كل ما جرائي

وأقضي العمر أتمنى يصادف يوم وتصفالي

مال جمال بجذعه للوراء دافعاً بركبته للأمام حتى إنها قد ارتطمتا
بالترايزة دون أن يقصد، فاهتزت المشروبات وكأنها طربت لغناؤه بدورها،
فاعتذر جمال متمماً واعتدل في مجلسه، بينما استمر داود يغني منتشياً:
صبرت سنين على صدك وقاسيت الضنى ف بعدك

عشان تعطف على يوم

وتهجري وتنساني وتركني لأشجاني

ولما اشكي تخصمني وتغضب لما اقول لك يوم

يا ظالمني

وبعد وصلة الطرب المسترسلة، عادت الحياة من جديد للمقهى كما
ينبغي لها أن تكون عليه في منتصف الظهيرة، فتعالت من جديد نداءات
الزبائن المنتشين، وطلب داود كوباً من القرفة ليريح صوته من عناء الغناء،
وبعد رشفتين وجد نفسه هائماً في حلم أن يرى بلده «مصر» دولة مستقلة،
لا وجود لأجنبي يفرض وصايته على أرضها، ولكونه أضحى مشاركاً من

جديد في العمل الوطني الذي كان قد تركه وراءه مع سنوات الشباب التي انحسرت. وأطلَّ الغدُ بغموضه يرنو إليه من الغيب، وكان داود يتابع صورة وَجْهَي الشيخ حسنين والضابط جمال المنتشين طرباً والجالسين قبله، تباعاً وهو يتساءل مع نفسه في فضول عما تحبئه لهم الأيام..

بكل تلك الأفكار هام داود عبد الملك، بقية اليوم وحتى المساء حين قادته قدماه إلى الإبراهيمية. لم يصدق أنه قطع كل تلك المسافة سيراً في تلك الليلة الباردة فتوقف. ثم تلفت يمنة ويسرة فلمَّا لم يجد أثراً لمخلوق، عبر طريق الكورنيش، بمصايحه المحاطة بتلك الهالة من الضوء الأصفر الخافت، وجنح عند أول يمين قبله إلى حانة «الخواجة أنطونيلي» ودلف للقاعة شبه المظلمة، مستدفئاً بأنفاس السكارى وضحكاتهم المؤنسة، مع خلفية لموسيقى غربية خافتة تنبعث من جرامافون موضوع فوق منضدة متوسطة الارتفاع بجوار البار. لاقاه الخواجة بشوشاً لما عهده منه من إضفائه لجو الطرب اللطيف، الذي يجمع حوله زبائنه، فتتمتد السهرة بهم، وبالتالي تستمر معاقرتهم للمشروبات حتى الساعات الأولى من الفجر. وفي المقابل كان الخواجة يرفض أن يأخذ منه مقابلاً لطلباته. خلع الكوفية المضلعة والمعطف بعد أن سحب الخاتم من إصبعه وأعادته إلى جيبيه، وركنهما على ظهر المقعد

المجاور، وركن العود إلى الجدار بجانبه غير متحمّسٍ إلى أن يعاود الغناء
منجديد في تلك الليلة، ولا يزال يتفكر متعجبًا - مرة أخرى - بشأن مفعول
ذلك الخاتم الفضي المسحور..



الفصل الثالث

حينما كان مجرد عوّاد، يحمل عباءة «العادية» التي يلبسها معظم الناس، كان «داود عبد الملك» يشعر بأنه «غير مرئي»، كائن شفاف!. نعم شفاف، لا يكاد الناس من حوله أن يبصروه أو يميزوه عن بقية أتباعه من أهل الطرب، ولا من بين أهل محرم بك، ولا حتى عن بقية اليهود الذين عاشوا بالإسكندرية منذ مئات السنين، مندمجين بأهلها في كل أمور الحياة، فيما عدا ثلاثاً: الزواج، وممارسات العبادة، وفي نهاية المطاف عند المدافن، حين يفترق اليهودي عن المسلم والنصراني، عن أقرانهم الذين عاشوا من حولهم، كلٌّ إلى مثواه الأخير، في مقابر جامعة لكل طائفة على حدة، وكأنه إعلان بأنه مهما تجمعت بالبشر سبل الحياة، فلا بد أن يفترقوا، ولو عند عتبة طريق الموت.

كانت أيامه تمضي متشابهة إلى ذلك اليوم الذي مرَّ به قبل نحو عام من مقابلته لجمال عبد الناصر، وكان متجهًا للقاء «الشيخ حسنين البصري» وإن كانت لديه نحو ساعة حتى ميعاد المقابلة، فسار متسكعًا في شارع السوق الممتد إلى ميدان «محطة مصر» الشاسع، لا يلوي على شيء إلا أن يقتل بعض الوقت حتى يحين موعده. وكعادته ألقى بالسلامات هنا وهناك،

وعبارات المجاملة المعهودة على جانبي الطريق لأصحاب الحوانيت الصغيرة المتلاحقة الذين عرف معظمهم وعرفوه وتشاركوا الذكريات منذ أيام الطفولة والدراسة والشباب. ولكن استوقفه «الخواجة زكي فريجة» الصائغ المخضرم، الرابض عند باب دكانه مستدفئاً بشمس الصباح الشتوية، بقوامه الرشيق ويده تطوفان بطول الحمالات البنية فوق قميصه البيج المعقودة قمته بربطة عنق حمراء أنيقة، وقد عقص يمناه أمام ساقه اليسرى، وعوج طربوشه إلى جانب في تأنق ملحوظ، يليق بمركزه المالي المتميز بين أهل الحى. بدا وكأنه فرح للقاءه وناداه زكي بلكنة فرنسية قائلاً:

- «بونچور يا داود. تعال عايزك». فلما كانت فرصة لقتل المزيد من الوقت، استجاب داود للدعوة من دون تردد، فاستدار الخواجة زكي بهمة إلى داخل المحل وتبعه هو مستمتعاً برائحة عود البخور الذى كان ما يزال يحترق وقد انغرس بركن طاولة العرض ذات الجوانب الزجاجية. وأشار زكي إليه بالجلوس، في حين خلع طربوشه ليزيل الكلفة، ودار نحو الجانب الخلفي للطاولة، ودفع مفتاحه بقفلهما، ثم جذب ضلفتها، ومدّ يده ساحباً علبة من القطيفة الزرقاء قائلاً له من جديد:

- «بونچور يا حبيبي. أنا عندي لك هدية تحبها يا داود ياخويا، بس عشان إنت راجل مبخوت وحظك في رجلك». .. وأثارت كلمة «هدية» فضوله وحذره في نفس الوقت. فالخواجة زكي تاجر مصوغات ومشغولات ذهبية،

ولم يصل إلى ما هو عليه من اليسر والغنى بمهاداة الخلق حليًا ومجوهرات، بل على العكس كان قد اشتهر بين أهل الحى بضيق اليد والحذر الشديد. ولكنه - من باب المجاملة لا أكثر - أجاب:

- «طول عمرك صاحب فضل يا مسيو زكي»..

- «في الحقيقة يا داود يا خويا أنا من ساعة ما جاتني التحفة دي عامناوّل وأنا باقول إنها بتاعك. آه ورحة بابا». قالها وهو يفتح العلبة القטיפيّة بحركة رقيقة من أصابعه، ويديرها نحوه، ليبصر داود خاتماً فضياً يعتليه فص من العقيق الأحمر وقد حفرت في وسطه وعند أركانه الأربعة نقوش مبهمّة استعصت عليه حتى بعد أن استخدم العدسة المكبرة التي ناوله إياها زكي. خاتم عادي المظهر، بل وأقل من العادي، إذ بدا مستعملاً لدرجة البلى. فتفهم داود عندها سر ذلك الكرم المفاجئ. ولما لم تبدُ ملامح الانبهار على وجه «الزبون»، حمل الخواجة زكي العلبة المفتوحة برقة فوق كفه ماداً ساعده أمامه في رشاقة، وهو يعبث باليد الأخرى بطرف شاربه، ثم دار من جديد حول الطاولة ليأخذ بالمقعد المواجه للخواجة داود، ثم اعتدل وهو يتسم مستعداً لأن يلتقى بضربته الساحقة التي أيقن - بحس التاجر القدير - أنها ستحسم العملية التجارية لصالحه دون أدنى شك، وتنحج مضيقاً:

- «ده طبعا خاتم فضة مستعمل يا حبيبي، فضة من بتاعة زمان، بس مش ده المهم، مش هاتصدق يا داود الخاتم ده كان بتاع مين». تريث للحظة ثم أعقبها بالضربة القاضية:

- «وحياتك عندي ده كان بتاع (الشيخ سيد). ثم أضاف بسرعة وهو يتكئ بقوة على كل كلمة من كلماته:

- «أى والله زي ما باقول لك كده؛ (الشيخ سيد درويش) بشحمه ولحمه، آمال أنا كنت عاينهلوك إنت بالذات ليه؟. يعني إحنا عندنا كام (فنان) فى الحى كله هايقدّر حاجة زى دى يا داود يا خويا؟. دانا لو قلت الكلمتين دول لحد غيرك، كان هايقول على طول طب ده الشيخ سيد مات من بيعجي ثلاثين سنة، شوف بقى الخاتم الكُهنة ده يبقى عمره قد إيه! أنا باقول لك إنت الكلام ده عشان عارفك هاتوزنه مطبوط». ثم رجع بظهره للوراء فخورًا بجودة إلقاءه، وحذقه، وإن كان ندم قليلاً - بينه وبين نفسه - لاستخدامه لفظ «كُهنة» الذى قد يؤدي إلى بخسه لبضاعته، ولكنه التزم الصمت منتظرًا رجع كلماته النافذة. وفعلاً ما لبث داود أن قال متسائلاً:

- «كويس قوي يا مسيو زكي. والخاتم الكُهنة ده، عايز (تهديوني) بكام على كده؟» قالها داود بنبرة تعمّد أن يشملها بالسخرية وعدم الاكتراث، إذ إنه كان يأمل في أن يخفض من قيمة الخاتم لو أبدى استغناءه، من جهة، ولضيق ذات اليد من جهة أخرى، فهو بالكاد يتكسب لقمة العيش له ولأولاده، فلا مجال إذن للإنفاق على حلى وكُماليات. فابتسم التاجر وأجاب:

- «مانا برضك عارف الظروف يا داود يا خويا. والله ما يغلى عليك لو بمليون جني. بس أنا برضك عارف عزة نفسك وطبعاً مش هايخلصك تاخده بالخسارة. بس على فكرة إالي باع لي الخاتم ده قال إنه مسحور! وفيه قوة عجيبة! إوعى يا داود يا حبيبي تلمعه ولا تنصفه ولا تجليه لايبطل مفعوله!.. آخر كلام خمسين صاغ».

وفعلاً اشترى داود عبد الملك يومها الخاتم المسحور بعد سلسلة من المساومات بثلاثة وثلاثين قرشاً في يناير ١٩٥٠، وأخفى ثمنه عن إيلين، خوفاً من رد فعلها، أى قبل أن يلتقي باليوزباشي جمال عبد الناصر بنحو سنة. وحالما وضعه في خنصره الأيسر، انتابه يومها شعور قهريٌّ بأن ذلك الخاتم الفضي الذي كان - طبعاً - السبب الرئيسي في نجاح وشهرة الشيخ سيد درويش، سيصير له دعماً ورفعاً لشأنه منذ ذلك اليوم. شعر يومها، ولأول مرة بالتميز وبنزعة للتفوق عن بقية أترابه لا يدري كنهها. لذا فلم يتعجب أو يستنكر زيارة جمال عبد الناصر يوم حضر إليه بالإسكندرية - كما تعجب، بل واستنكرها الشيخ حسنين مثلاً - ولا تعجب من بعدها وقد بدأ بالفعل في العمل السري مع تنظيم الضباط، ولا فوجئ بزيارة جمال له في الصيف الذي تلا زيارته الأولى، وقد بدا بشوشاً متفائلاً، بل وسعيداً بالجهد الذي كان هو والشيخ حسنين يبذلانه بالإسكندرية.

وقف داود ينظر بحذر وقد اختبأ خلف العמוד الرخامي وهو يتابع خطبة النحاس باشا معلناً عن اعتزامه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التي كان قد وقعها هو نفسه مع الإنجليز قبل خمسة عشر عاماً، والتي كانت تقضي ببقاء الجيش البريطاني في الإسكندرية وبورسعيد وبحدود قناة السويس، بغرض حماية المصالح الإنجليزية بمصر. ولكن جاءت أحداث الإسماعيلية المستفزة قبل أيام - والتي أدت إلى مقتل العديد من المصريين - إلى استشارة الشعب، ومطالبة زعيم الوفد بإلغاء المعاهدة. وكان داود قد نظم مع الشيخ حسنين، المختبئ عند الناحية الأخرى من القاعة، القيام بمظاهرة شعبية كبيرة عقب الانتهاء من الاجتماع وخطاب النحاس باشا. وراقب داود بعيونه أفراد الجيش الإنجليزي وقائدهم وقد أحاطوا بالقاعة في مواقع استراتيجية تحول دون قيامهم بالتظاهرات المرجوة. تبادل مع الشيخ حسنين النظرات عبر القاعة، وتبين له أن عليه أن يأخذ بزمام الموقف وإلا فشلت مهمتهما. ودار داود بعينه بين الجند الإنجليز المنتشرين في كل مكان بقوامهم الممشوق وعضلاتهم المقتولة، وأدرك أن فرصتهم الوحيدة لنيل المراد تكمن في أن يقضي هو على قائدهم مهما كان الثمن..

وتبدى له القائد الإنجليزي كالمارد. بوجهه الأحمر المتباين مع بشرته الشديدة البياض، وشعره الأصفر المائل للبرتقالي تحت قبعة رأسه العسلية،

وعينه الزرقاوان تشعان نذرًا من وسط وجهه. خليط من الألوان الصارخة المتباينة أفقدت الرجل بشريته في عيون داود، وأحالاته مع جسمه المفتول كمثل جذع شجرة جميز هائلة، تقف بينه وبين نجاحهما في المهمة المرتقبة، إلى عملاق، لا بل إلى عفريت من فصيلة الجن، التي تملأ حكاياته شوارع الإسكندرية وحواريها الخلفية، والذي لن يتأتى له أن ينتصر عليه إلا بتعويذة ما ترعزع أركانه فينهار أمامه دون أن يحتاج إلى أن يتبادلا قوة بقوة. ونظر داود متأملاً خاتمه الفضي بحجره العقيقي الأحمر، فتبدلت رجفته وشكه في إتمامه للمهمة إلى منتهى الإيمان بالنصر الأكيد. اعتلت وجهه ابتسامة ساخرة، وتقدم بخطوات واثقة إلى حيث يقف «المارد» عند جانب القاعة، وكان النحاس باشا على وشك أن ينهي كلمته وقد بدأت مهمة الجماهير المستفزة تملأ المكان كأنها حلة طعام تغلي تحت سطح غطاء محكم الإغلاق وإن كان يتراقص بفعل البخار المتصاعد من تحته. ولم يُوحِ منظر داود وهيئته البسيطة بالخطر في العيون التي كانت ترقب القاعة، فلم يعترض خطواته أحد حتى وجد نفسه واقفاً بمواجهة القائد، في حين ختم النحاس كلمته ودوّت القاعة بالتصفيق. ونظر داود للرجل الإنجليزي مثبتاً العين بالعين. وما يزال يتسم إليه والمارد يخفض بصره نحوه ويبادلُه الابتسام باستعلاء وتكبر يتناسبان مع عملقته وصغر شأن ذلك الكهل الذي كان يهم بأن يعبره. والجماهير تصفق.

وعندها جمع داود قبضته بكل ما أوتي من قوة مستمداً شجاعة وحزماً من تصنيف الحاضرين. وفي لحظة خاطفة وجّه ساعده وقبضته وفص الخاتم إلى الأنف الإنجليزي الأحمر فسالت دماه..

وما تزال الجماهير تصفق. في حين يترنح المارد ويسقط. وبينما يهرع جنود الجن بوجوههم الحمراء والصفراء والزرقاء، وعضلاتهم المفتولة تهرول نحو قائدهم محاولين إسعافه، يرفع داود يديه للشيخ حسنين منتصراً. ويعلون هتاف بالاستقلال من الناحية المقابلة، فترد الجموع بحماس مُدوّ:
- «تحيا مصر!. تحيا مصر!..»

ويذكر أنها سهرًا معًا بعدها في تلك الزيارة، التي جمعتها بـ«جمال عبد الناصر» وصديقه «كامل فياض» الذي قدمه على أنه المسئول عن شؤون الحركة في المنطقة الشمالية التي تشمل الدلتا والإسكندرية وضواحيها. يذكر أن اجتمعوا ليلتها بفندق «سان استيفانو» على الكورنيش احتفالاً بحصول جمال على رتبة البكباشي. وطلب جمال منه بعد أن انتهوا من العشاء الفاخر أن يعزف ويغني له أغنية لأم كلثوم، ممتدحاً صوته لصديقه كامل، ومبالغاً بأنه يباهي بل ويعلو على جمال صوت الست، فاستجاب داود منحياً كأس الويسكي الذي كان يرشف منه، وغنى له مونولوج عمره خمس سنوات أو أكثر ولكن ما يزال قريباً إلى قلبه:

حبيب قلبي وافاني في ميعاده
ونؤل. بعد ما طول بعباده

قابلني وهو متبسم
وطمني على وصله
وقال لي. بعد ما سلم

كلام القلب يرقص له!

ليلتها، وبعد الكأس الثالثة، أفضى إليه بحكاية الخاتم المسحور ضاحكاً،
ذلك الخاتم الذي كان قد رفع من قبل بسيد درويش إلى السماء، وشعر داود،
ربما بروح الأبوة التي بات يشعر بها تجاهه، بأن جمال أمسى في حاجة إلى خاتمه
الفضي، جالب السعد والتوفيق، أكثر منه حينها لسبب لم يكن يدري كنهه
ليلتها. ولكنه عرض أن يعيره إياه، فضحك جمال وضحك صديقه كامل
وإن لم يعقبا بكلمات، ولكنه وضع الخاتم في يده وانصرف عائداً للقاهرة
بعد أن أخذ الخواجة داود بين أحضانه، وعلى الرغم من شعوره بالانتشاء
وسكرة الخمر تداعب رأسه، تعجّب داود إذ إن الخاتم الذي كان موافقاً
لمحيط خنصره الصغير نسبياً، قد أحاط بخنصر جمال الضخم بكل سهولة
هكذا. وتساءل داود أياً ما عما دفعه إلى أن يعطيه الخاتم عندئذ، وكيف يتخلى
عنه وقد كان سبباً لأن يبتسم له الحظ، بل ولم وافق هو وقبل أن يأخذه. ولم

تمض سوى بضعة أسابيع حتى عرف داود السبب، ففي صباح يوم ٢٣ يولييه ١٩٥٢، وبعد احتلال دار الإذاعة من قبل مجموعة من الضباط، تمت إذاعة البيان التالي:

«اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتأمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خُلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.»

وفعلًا تلقى داود عبد الملك والشيخ حسنين الخبر بفرحة عارمة، إذ شعرا بمساهمتها في ذلك العمل ولمدة عام كامل، تعرضا فيه لشكوك رجال البوليس ومتابعة المخبرين لهما وخصوصًا عند عودتهما لبيتهما في آخر الليل. وكانا قد تعمدا أن يقللا من لقاءاتهما معًا، حتى ما يقدر الواحد أن يستمر في متابعة العمل إذا ما حدث أن سقط الآخر في أيدي البوليس. وفوق ذلك بالطبع كانا قد استمرّا في أعمالهما الفنية من إحياء للأفراح والمناسبات، بالإضافة لليالي الذكر والمآتم التي كان يضطلع بها الشيخ حسنين. فكان

مجهودًا مضاعفًا، ذلك الذي قاما به وحتى ذلك الحدث الذي غيّر وجه مصر على نحو لم يحلما به. وبعدها بثلاثة أيام، توقع داود أن يحضر جمال عبد الناصر للإسكندرية بمصاحبة اللواء محمد نجيب، قائد تنظيم الضباط الأحرار، للإشراف على مغادرة الملك فاروق للبلاد، وبالطبع ذهب داود للميناء للقاءه، ولكن منعه الحرس الخاص من الاقتراب منه. وبالرغم من إلحاحه، أصر الحارس العملاق على موقفه، ولم يفلح داود في أن يتبين شخصًا أو حتى أن نجيب ولم يتمكن بالطبع من أن يقابل جمال عبد الناصر شخصيًا أو حتى أن يتحقق من وجوده، وإن كان ظن أنه قد رآه عن بعد بجوار «فاروق الأول» الملك المتنازل عن العرش، وتراءت له - برغم المسافة البعيدة - نظرة عينيه فهيم له وجهه وكأنه أسد يوشك أن ينقض على فريسته. وانتظر حتى أبصر الباخرة «المحروسة» وقد صارت في وسط البحر، ولكنه لم تتسنَّ له مقابلاته.





الفصل الرابع

أجبرته حرارة النهار المباحة التي ملأت الغرفة أن يستفيق مبكرًا مرة أخرى. ولكنه على أي حال كان مستعدًا لذلك، إذ لم يسهر كالمعتاد ليلة الأمس ولا الليالي السابقة لها ولأكثر من أسبوعين الآن، فلقد لاحظ داود تباعد الشيخ حسنين من بعد الأيام الأولى من ثورة الضباط ولمدة تقرب من عام الآن عنه. وبالرغم من ظروف العمل، وأواصر الصداقة وسهرات الحشيش التي كانت تجمع بينهما دائمًا وعلى مدار السنين، إلا أن لقاءاتها كانت تتباعد تباعًا، وخاصة بعد الشتاء بلياليه الباردة الذي تقل خلاله الحفلات والسهرات بطبيعة الحال، ولم تنصلح كثيرًا مع قدوم الربيع وحتى انقطعت كلية لأسابيع الآن في ذروة الصيف المشهور في العادة بكثرة العمل، مما أدى بداود لأن يذهب لزيارة الشيخ في منزله صباح يوم الجمعة هذا، قبل أن يحين موعد الصلاة، ليطمئن عليه أولاً لأنه لم يعهد منه كل ذلك الغياب، وليعاتبه ثانيًا على قلة العمل ونفاد نقوده وملاحقة إيلين والدائنين له.

كان الصيف قد انتصف، والحرارة والرطوبة على أشدهما في محرم بك، فشعر داود بالاختناق وقد بدت جموع القاهريين وقد ملأت الشوارع والحدائق، والشواطئ بالطبع، وكأنها جحافل جيوش من الرعايا غزت المدينة فابتلعته بخيرها وجمالها ونظافتها وهدوئها المعهود. وتفكر هو في كم يكره هؤلاء المصطافين، ولكنه استبشر بأنه لم تبق سوى أيام قلائل يعودون بعدها من حيث أتوا، ويتركونه لمحبوته؛ الإسكندرية. وقف داود يلتقط أنفاسه أمام باب الشقة وقرع بعصاه الباب قرعات هادئة متتالية، رفع بعدها طربوشه المبلل بالعرق، ومسح جبينه ورأسه بمنديله، وهو يسمع خطوات من داخل الشقة تعدو وتقترب من الباب، ثم يد تشد المزلاج وتفتح بتأن. أعاد الطربوش وحنى رأسه احتراماً فتلاقت عيناه بعيني طفل أطلتا من رأس منبعج ككوز العسل من فتحة الباب دون أن ينطق بكلمة، ثم أعقبه مجيء امرأة الشيخ وقد غطت معظم وجهها بمنديل أمسكت بطرفه فوق أنفها وهي تسأل:

- «مين يا وله؟». كان ما يزال يلتقط أنفاسه وقد أحنى برأسه أكثر تحاشياً لأن تقع عيناه على صاحبة الصوت فركز بصره نحو أقدام الصبي الحافية، وكان ما يزال واقفاً يتأمل ذلك الضيف الذي جاء لزيارتهم، وكانت أصابع قدميه الدقيقة تتراقص مع إيقاع براءته وفضوله. فأجاب داود دون أن يرفع وجهه:

- «الشيخ حسنين موجود يا ست أم لطفي؟» فأشاحت المرأة بوجهها للداخل، ونادت بصوت جهوري:

- «الخواجة داود يا شيخ حسنين» فتنامى صوته من الداخل متأففاً:

- «طب أدينا هانيجي على طول!«..

تعجب داود من ذلك الخجل والتواري المفاجئ للست أم لطفي التي كان قد اعتاد على رؤيتها سافرة لسنين طويلة، وأن لم يكن - للحقيقة - لليوم قادراً على أن يميز ملامحها.

وخلال لحظات كان الشيخ حسنين يسير بخطوات سريعة نحو المقهى، بعد أن كان قد ظهر فجأة أمامه عند عتبة الشقة وتمتم بكلمات مُدْغمة حسبها داود سلاماً أو تحية، وفي لحظة اجتازه ثم طار فوق درجات السلم كالهارب من مواجهته، وانطلق نحو الطريق وداود يتبعه بإصرار بالرغم من القیظ المحيط بهما، ويشد خطواته وبالكاد يلحق به فيبدوان - على الأقل للمارة من حولهما - وكأنهما يسيران معاً، وهو يتساءل لاهثاً عن سر كل تلك العجلة. ولكن الشيخ كان يسير صامتاً وقد اكفهرت ملامحه واشتعل وجهه الأبيض بحمرة القيظ، حتى لاح المقهى أمامهما في الميدان الكبير أمام «محطة مصر»، ولكنه بدا مكتظاً بالرواد، وعلت أصوات المارة والباعة الجائلين والسيارات بأبواقها وحتى صفارات القطارات المغادرة للمحطة، فتزايدت حدة التوتر

بينهما ومن حولهما إلى قرب الاستنفار، ثم ومن دون أية مقدمات توقف الشيخ فجأة واستدار قائلاً:

- «تعال بينا نطلعوع البحر، في الطراوه أحسن». وما لبث أن انعطف يميناً دون أن ينتظر حتى تعقياً على اقتراحه، ولم يزل داود يلهث خلفه حتى وصلا إلى طريق الكورنيش، فاختار الشيخ إحدى المقاعد الحجرية الخالية المترصة بطول الطريق، وجلس بها وقد تصبب رأسه وعمته من فوقه عرقاً. وبدا الشيخ في حال يرثى له وكان كرشه الضخم يعلو ويهبط في تتابع سريع وقد تبللت الجبة والقفطان أيضاً عند صدره وإبطيه، وازداد حنقه عليه لما شهد حالته المزرية، ومع ذلك سأله داود الذي كان قد جلس بجواره ما بين أنفاسه المتقطعة:

- «إيه الحكاية يا شيخ حسنين؟ بقى يا راجل ماشوفكش المدة دي كلها، ولما أجيلك لحد بيتك تقوم تاخدني على ملا وشي جزي كده لحد هنا، من غير لا سلام ولا كلام؟».

ولم يزل الشيخ يلهث فلم يقدر أن يجيبه. واستدار داود نحوه وأشفق عليه، فقد كان يبدو وكأنه يلفظ آخر أنفاسه، فلم يزد من عتابه إياه. وأخرج داود منديل من جيب السترة ورفع الطربوش ومسح جبهته وشعره ثم أعاده إلى موضعه منتظراً أن يلتقط الشيخ أنفاسه وتهدأ حركة كرشه الصاعدة

الهابطة كنافخ الكير بدكان الأسطى حمزة الحداد. ومضى الوقت فهدأت
أنفاس الشيخ تبعاً، وهبت نسمة رقيقة من ناحية البحر محملة برائحة
اليود اللذيذة فخففت من حدة الحرارة من حولهما، وإن لم تبشر زرقة السماء
الصافية وقرصها الذهبي المستعر في وسطها حتى بسحابة ضالة قد تحجب
عنهما حرارة الشمس اللافحة تلك ولو قليلاً، في حين اقترب بائع مثلجات
مجلجلاً، ينادى بصوت رائق:

- «اشرب يا عطشان!»..

فخاطر داود قائلاً:

- «هات لنا قزازتين (اسباتيس) يا شيخ حسنين وحياة أبوك لحسن أنا
ريقي ناشف زي الحجر، وما فيش في جيبي يا خويا غير نص فرنك!»..

فتبسم الشيخ بطرف فمه حيث راقته الفكرة، ولكنه لم يستطع الكلام
بعد، إذ كان صدره ما يزال يعلو ويهبط، وتراءت له ذكرى أول لقاء جمعه
بالخواجة داود الذي لا بد أنه كان طفلاً صغيراً حينما كان يخطو في درب
الشباب، وبعد عودته من القاهرة معماً، انتقل إلى الحي ذلك الرجل المتزوج
ذو الأبناء الثلاثة ليشغل شقة أبيه «الخواجة عيسى عبد الملك» الجار اليهودي
زوج المرحومة «الست راشيل» صديقة أمه، والذي كان قد مات لتوه. ثم
جمعتهم محطة الترام ذات صباح، فما كان من الرجل الضئيل الواقف بجانبه

ينتظر، أن بادره بالسؤال عما لو كان يعمل مأذوناً شرعياً، إذ كان له صديق قد طلق امرأته ويريد أن يردها إليه دون أن يتكلف مصاريف باهظة، ولكن الشيخ حسنين اعتذر يومها نافياً أن يكون مأذوناً، ولكنه بادره بفخر بأنه يعمل مقررًا مبتدئاً في طريقه للشهرة والنجاح لما أثنى عليه به زبائنه من جمال الصوت وتجويد اللحن، فضحك ضحكة بريئة مناسبة أشاعت الراحة في قلبه، ثم علق داود يومها بأنه كان مثله يغني ويعزف العود فتواعدا للقاء ليلتها امتد بهما نحو الصباح، وولدت مع انقضائه صداقتهما.

مرت تلك الذكريات في مخيلته بسرعة البرق فابتسم قليلاً ثم رفع يده بصعوبة ناحية بائع الثلجات، مشيراً للرجل فأسرع إليهما وفتح زجاجتين ساقعتين سحبهما من أعماق الدلو المملوء بزجاجات المياه الغازية وقطع الثلج المتناثرة، الذي كان يحمله فوق كتفه، ثم قفز جالساً برشاقة فوق السور المقابل لهما وهو ينظر المارة من المصطافين من حولهما بحثاً عن زبون جديد، وفي انتظار أن ينتهيا من الشرب ليأخذ النقود والفوارغ ويرحل. وكان ذلك سبباً آخر، بالإضافة لتخرجه الأصيل من أن يثير معه تلك الزوبعة، القادمة لا محالة، منع الشيخ حسنين من أن يبدأ كلامه ريثما يرحل الرجل الغريب. وفي خلال دقائق تنحنح الشيخ ثم تحشأ وأدار وجهه ناحية داود مُعلنًا نيته في أن يجيبه عن تساؤلاته، وإن أشاح بعدها بوجهه بعيداً عنه متجنباً نظراته،

وكان شخصاً آخر يلقي عنه بكلمات غريبة عن شفثيه رافعاً مسؤوليته عن معانيها حين بدأ يتمتم بصوت خفيض أولاً، لم يلبث أن استحال إلى خطاب ملؤه التقرز قائلاً:

- «عندي سؤال ليك يا خواجه داود». ثم صمت قليلاً لينظم كلماته التالية وعيون داود تتابعه في تشوق:

- «بذمتك إنت إيه الي مقعدك في البلد دي لحد النهارده يا خويا؟ مش كفاية الي عملتوه من ثمانية واربعين لحد دلوقت؟ إيه؟ مستنيين إيه تاني؟ ما تفارقونا بقى!!..»

وكانت تلك المعاني قد تراكمت تنخره في قلبه حتى كاد أن ينفجر، من كثرة ما كان قد سمع من لوم وانتقاد - بالذات من الشيخ فودة - بسبب علاقة العمل، بل والصدقة تلك التي كانت تربطه بذلك اليهودي المسمى داود، متناسياً كلام القرآن الكريم عن اليهود ومتعامياً عن خيانتهم للرسول، عليه الصلاة والسلام، ومتغافلاً عن اغتصابهم لأرض الإسلام والمسلمين وإقامتهم لدولة يهودية فوقها منذ بضع سنوات معدودات، حتى أن هاجر إليها بعض اليهود المصريين بكل تبجح معلنين حقيقة انتمائهم!!.. لبست تلك التلميحات ثياب العتاب تارة «هو ده يصح برضه!!»، واللوم - بل والإتهام الصريح للشيخ حسنين بالسكوت عن الحق - تارة أخرى «إيه يعني إيلي

حايشك عنه؟ يكونش ماسك عليك ذلة!». وإن كان الشيخ بدوره مُصراً على أن يحتفظ بها لنفسه، حتى اليوم، إذ لم يكن ليرغب في مواجهة داود بها، لأنه كان أولاً وأخيراً صديقه الوحيد، فأثر أن يبتعد! ظن أن بُعد المسافة فيما بينهما قد يؤدي إلى أن تكتم الأفواه العاتبة ويستحي المتقذون. ولكن استمرت سيول الأفكار والكلمات الغاضبة تلك تتدفق عليه، فلما فاض به الكيل بمجيء داود إلى بيته، الذي شهد على استمرار علاقته به تحت مرأى ومسمع من الجميع، كما سيشهد المتطفلون عليه بكل تأكيد! فباغت الشيخ حسنين صديقه، في فورة من الغضب، بتلك الكلمات كاللكنات التي انهار بها تباعاً، فلم يجد الأخير فرصة ليحمي نفسه من تبعاتها. وأدرك داود أن اجتماعات الشيخ مع أعضاء جماعة الإخوان قد بدأت تأتي بشمارها، ولكنه أجاب كالمذعور من أن تأتي هذه الكلمات على لسان صديقه الوحيد:

- «كلام إيه ده إيلي بتقوله ده ياشيخ حسنين، وبعدين عايزني أسيب بلدي واروح على فين؟ وهو أنا لى بيت غير هنا؟ ثم تعال هنا بقى، همّا مين دول إيلي (عملتوه) و(مستنيين) وبتاع الي بتتكلم عنهم دول هم؟ تقصد مين؟ وَصَّحْ كلامك»..

ونظر الشيخ بعيداً ناحية البحر فلم يكن يستطيع أن يقول ذلك الكلام وهو يواجه الخواجة داود والعين في العين، فهو مهما كان صديق العمر. ولكنه استجمع قواه وأضاف:

- «يعني بنقول زيك زي غيرك الي مشيو من تمانيه واربعين لدلوقت.
مش بقالكو (بلد) ياسي داود في أرض المسلمين وبين أهله وناسه، ولا آني
غلطان يعني؟»

لم يستطع داود أن يجيبه في الحال لشدة انفعاله، بل قبض بيده على مسند
المقعد وعزم على القيام ليتركه وشأنه، إلا أنه تماسك وتراجع وأدار وجهه
نحو صديقه ودموعه تنساب وقال بصوت متهدج:

- «ماعندكش فكرة يا شيخ حسنين الكلام ده جرحني قد إيه، وخصوصاً
إنه جاي منك إنت. إنت برضك تقول الكلام ده؟ ولين؟ لى أنا يا شيخ
حسين؟ بقى أنا منهم؟ إالي مشوا دول يمكن كانوا (خواجات) بصحيح،
جايين من أوروبا ولا من الشام ولا تركيا من خمسين ولا ستين سنة، قعدوا
شويتين وعملوا القرشين وبعدين مشوا لما الحال ما بقاش على كيفهم، إنما أنا
تقول لي إيه إالي مقعدك في البلد؟ ماكانش العشم!. ماكانش العشم!..»

وأخرج المنديل المبلل بالعرق ثانية، ليمسح دموعه التي بدأت تتسلل
فوق خديه هذه المرة، ثم تمالك نفسه وأضاف وقد تهدج صوته:

- «هانسيو اسكندرية ونروحو على فين بس يا شيخ حسنين؟ ده أنا لما
بنروح «دمنهو» علشان شغل ولا مصلحة بنحسو بغربة. ماكانش العشم.
ماكانش العشم. دي بلدي يا شيخ حسنين! بلدي الي مانعرفوش غيرها

بلد. بلد أبويا وجددي، وجد جددي، وجده كمان، وبلد إبني ومَرّتي وأصحابي
وحبابي. تمام زي ما هي بلدك يا شيخ حسين. هانسيها ونروحو على فين
بس؟ طب وإذا سبتها أنا. هي. هي هاتسيني؟ لا يمكن أبداً! ماكانش
العشم. والله العظيم ماكانش العشم..»

وقام هذه المرة واستدار تاركاً الشيخ خلفه. وانطلق سائراً لا يلوي على
شيء، لا يعبأ بحرارة الجو اللاسعة، مشى ومشى حتى مرّ بفتحة في سور
الكورنيش، فمسح دمه بظهر ساعده ونزل درجتين أفضيتا به إلى رمال
الشاطئ فخاض خلالها بصعوبة حيث دأب حذاؤه أن ينغرس مع كل
خطوة وهو يقتلعه بإصرار، ومازال يسير ببطء متجهاً نحو السطح الأملس
المذكوك للشاطئ عند لقائه بأمواج البحر التي تروح وتحيي، فلا تعلم معها
إن كانت آتية لتبقى أم أنها قطعت كل هذه الرحلة لمجرد أن تتلامس مع
رمال الشاطئ السكندري فتعانقه لبرهة، ترحل بعدها باحثة لنفسها عن
رمال شاطئ جديد. ولا تزال دموعه تتكّوم عند جفنيه ثم تنساب وهو
يمشي على طرف الشاطئ عند لقائه بالبحر في مسار متعرج، تدفعه الموجات
المتلاحقة تباعاً ليميل أكثر نحو اليابسة، وتعوق خطواته غزارة الرمال التي
يغوص فيها بحذائه فتحثه على أن يقترب أكثر من جانب المياه حيث الرمل
المذكوك، ثم تدفعه المياه بعيداً ثانية. وهكذا إلى أن اقترب من طفل مُقوّس
الظهر محني يلعب أمام كوم من الرمال على شكل دلو مقلوب، لفت نظره

إليه أولاً حذاؤه الذي كان يمشي به على الرمال، فرفع رأسه ليتطلع إلى ذلك الرجل العجوز بكامل ملابسه، من الحذاء وإلى الطربوش على شاطئ البحر، وحين عبره عاقداً ذراعيه خلفه هاله أن يلحظ أن العجوز كان يبكي، فهب الطفل بتلقائية من عقصته، وجرى نحوه وناداه:

- «يا عم.. يا عم..» فتوقف داود واستدار ملتفتاً إليه، فأضاف الطفل الغريب متحذلقاً:

- «بابا قال لي مافيش رجالة تعيَّط. صح؟» انتزعه من وسط حزنه فجأة، فابتسم داود وهو يستطلع وجه الطفل البريء وعينيه الواسعتين الباسمتين، ومسح دموعه وخطا نحوه ومال وربت على رأس الطفل بشعره الأسود المبتل بحنان ثم مضى.

تساءل داود وهو ما يزال يتمشَّى بصعوبة فوق رمال الشاطئ الغزيرة عن أصله، كسكندري يهودي أباً عن جد، وقد امتلأ قلبه بالحزن حتى فاض به. فأشار إليه طيف «دينوقراطيس» الذي عاد وتبدى له بإيائة، فاردّاً ذراعه ناحية البحر الممتد شرقاً لاتجاه «الأزاريطه»، بمعنى أن هناك، ولقرون عديدة، كان يقبع حي اليهود عند البوابة الشرقية للمدينة، المعروفة آنذاك ببوابة «الشمس»، والتي كانت تقابلها عند الناحية الغربية لسور المدينة، بوابة «القمر». وتَفَكَّرَ.

- «لأ. مش ماشى!!»

راجع داود ما قرأه من قبل عن معشوقته في الموسوعة المروسة بعناية فوق أرفف المكتبة بحجرة الصالون في شقته، مع أطياف تبدت له تتراقص فوق رغوة الأمواج البيضاء، تتمايل من حوله وكأنها تتحاجج معه، وهو ماضٍ فوق رمال الشاطئ مستسلمًا لذلك الشعور المتناقض، بالغضب والحزن والغربة في بيته ووطنه، الممزوج بالتيه كحامل في قلبه وفكره لذلك التاريخ الممتد، والفخر الذي كان يحتاج مشاعره الآن. فهو سكندريُّ أبًا عن جد، ولم تكن الإسكندرية في ذلك العصر القديم، عصر «دينوقراطيس» عاصمة العلم والمعرفة في العالم فحسب، بل كانت أيضًا أكبر مدينة لتجمع اليهود في العالم. حيث كانت شهرة وجاذبية المدينة لطالبي العلم والثقافة سببًا في زيادة هجرة اليهود إليها من أوروبا ومن البلدان المجاورة. وتتابع الأطياف تجول أمامه وهو يتابع خطواته، تاركًا العنان لخيلاته معها. تراقصت الكلمات أمامه وكأنها هبت من فوق صفحات الكتب، فتعانقت وتلاحمت وصارت أصواتًا مسموعة تتنامى إلى أذنيه وكأنها قادمة من قاع هوة عميقة. كان جيش «ببليموس الأول»، أحد قادة جيوش «الإسكندر الأكبر» الذي صار فيما بعد أول حاكم للإسكندرية، يضم جنودًا مرتزقة من كل مكان، وكان منهم بالطبع بعض اليهود الذين استوطنوا الإسكندرية في أول عهداها. كذلك فلقد اقتنى «ببليموس الثاني» من بعده، الكثير من العبيد اليهود،

ثم أطلق سراحهم وأذن لهم بالبقاء في الإسكندرية. اندهش داود من ذاك الكم من المعلومات التي خطرت له بالرغم من كراهيته الشديدة التي كان يكنها لمادة التاريخ وللأستاذ «أحمد المعداوى» مدرس التاريخ بالمدرسة لعنفه وملاحظته لتلاميذه بالعصا التي لم تكن تفارقه، والذي مايزال اسمه عالماً بذهنه يتذكره دون أسماء باقى المدرسين، باستثناء الأستاذ منير مرسى - طبعاً - مدرس الموسيقى، الذى كان السبب فى ولعه بالفن منذ طفولته. والحقيقة أن يهود الإسكندرية على مدار التاريخ قد شاركوا فى ثراء المدينة ثقافياً، فظهر منهم الكثير من الفلاسفة والعلماء كأرتبانوس، وفيللو، وسليمان أبي أيوب وغيرهم. وتذكر أيضاً أن بطليموس الثانى هذا كان شغوفاً بالعلم والمعرفة، فكان قد أمر ببناء مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التى صارت مع الوقت مركزاً عالمياً للفنون والآداب تجذب إليها المفكرين والحكماء من كل أنحاء العالم. وبناء على طلبه أيضاً، تم الإتيان باثنين وسبعين من كبار الحاخامات اليهود من القدس إلى الإسكندرية، ليقوموا بشرح التوراة للمترجمين من اليهود السكندريين، فترجموا الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى النبي إلى اليونانية وأصبحت هذه الترجمة للتوراة (كتاب العهد القديم عند النصارى فيما بعد) معروفة بـ «الترجمة السبعينية». وأحس داود بالفخر لهذا التاريخ الممتد الذي أخذه عن أبيه وجدوده، وحفظه فى قلبه، وتعهد أن يسلمه لأولاده من بعده،

وخاصة لابنه سليمان الذى كان يتوسم فيه ذلك الصوت الذى سيحمل هذا التراث لأبنائه من بعده. وتملكه العناد فقال من جديد:

- «لأ. مش ماشى!!»..

دخل داود البيت والوجوم مُرْتَسِم على ملامحه، فأثرت إيلين أن تدعه وشأنه. استبدل ملابسه واتخذ كرسيه المفضل فى البلكونة الصغيرة، وجلس بالفانلة الداخلية وبنطلون البيجاما رافعاً رأسه إلى العمارات المواجهة المكتظة بسكانها، وقد علت الضوضاء المسائية المعتادة الآتية من الشارع، مزيجاً متبايناً من باعة التين والعنب، وصياح الصبية يركلون كرة صغيرة مطاطية، على ضوء عامود النور ومصابيح الغاز للباعة الجائلين المتوهجة، ثم رنين عجلات الترام بدقاتها المعدنية المميزة الآتية من ناحية شارع السوق، بالإضافة لمستوى منخفض لضوضاء أخرى غير واضحة الملامح، هى مزيج من أحاديث المارة ومسامراتهم، وأصوات الراديو، ومرور السيارات والعجلات والعربات الكارو والخنطور من كل جهة من حوله. وتساءل داود فى حيرة لو كان صوته أيضاً يعد جزءاً من ذلك الضجيج. وهاجت أفكاره بذكريات طفولية لأقرانه فى المدرسة الإلزامية يتهايمسون فيما بينهم «داود ده يهودى يا جماعة، أنا شفته داخل معبد اليهود مع أبوه يوم السبت الى فات» بينما تظاهر هو بأنه لم يسمعهم. دخلت إيلين بصينية الشاى ووضعتها أمامه

على سور البلكونة المفلطح، واتخذت مجلسها بالفوتيه القديم الموضوع في ركن البلكونة تحت عناقيد الثوم وشبكة البصل المعلقة على حائطها الأيمن. وبادرها داود متسائلاً:

- «أنا مين يا إيلين؟». فأجابته مرتاعة:

- «مالك يا داود فيه إيه؟»

- «الشيخ حسنين بيقول إني لازم نمشى من إسكندرية ومن مصر كلها زي باقي اليهود إيلي مشوا»

- «جه مشا فركبهُ الشيخ حسنين بتاعك ده!! تمشي تروح فين؟ ثم إنت دلوقت مسيحي أرثوذكسي من ساعة ما التجوزتني»

- «يعني خلاص؟ دلوقتي أنا مصري إسكندرا في علشان بقيت مسيحي لما التجوزتك يا إيلين، وقبل كده كنت خواجه؟. من السياح يعني؟»

- «أنا عارفة بقي يا خويا؟ أهو إيلي تشوفه إنت بقي. بس مَشَيَان بره البلد دي مافيش!..»

تذكر داود بحسرة ابنه الأكبر «فؤاد» الذي كان قد شَبَّ وترعرع في حضان أم غير أمه، مرتين، وفي غياب تأثير أبيه النسبي لانشغاله بفنه وعمله من ناحية، وبزوجتيه من بعد أن ماتت أمه، من ناحية أخرى، نشأ «فؤاد»

على سجيته يفعل دومًا ما يتبدى له. ترك المدرسة الثانوية وهو دون الخامسة عشرة وبدأ يعمل في مصنع للبسطرمة أولاً، ثم في مصنع المياه الغازية الكبير «سباتيس» وترقى حتى أصبح رئيسًا لوردية عمال وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره. ولا ينسى حين (أعلمه) يومًا بأنه قد انضم للحزب الشيوعي وبدأ فعالاً يواظب على حضور الاجتماعات الأسبوعية، بل وفي صيف عام ١٩٤٨ وبعد الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، فوجئ داود بابنه يخبره بأنه سيرحل عن مصر، ومعه أخوه الأصغر «موسى»، وسيذهبان إلى إسرائيل. وأسقط في يد داود حين باغته ولكنهما رحلا فعالاً في اليوم التالي. لم يشعر داود بالخسارة والوحدة بعد رحيل زوجتيه الأوليين مثلما أحس حين رحل عنه ولداه.

ألم تجر نفس الدماء الحارة في عروقيهما؟ أم كيف تأتى لهما أن ينتزعا أنفسهما انتزاعًا هكذا من وطنهما وبيتهما، ويذهبا ليصنعا لأنفسهما وطنًا جديدًا؟ كيف تمكنا من ترك أهلهما وناسهما من وراه ظهريهما، ورحلا باحثين عن أهل وناس جديدين ينتسبان إليهما من جديد؟. لم يستطع أبدًا أن يفهم..



الفصل الخامس

قيظ النهار ولهيبه فى فصل الصيف لا يلبث أن يذوب ويتلاشى حالما يغوص قرص الشمس فى مياه البحر، ليحل مكان السابحين الذين ملئوه طوال اليوم. ثم تملأ الجو رائحة شواء الأسماك تفوح من كل تلك المطاعم المتناثرة بطول طريق الكورنيش، وتتسرب عائلات المصطافين مناسبة بطوله بعد العشاء يتمتعون بقضم الذرة المشوى فوق جمرات الفحم، بينما يلتفُّ الأطفال حول عربات بائعى (الجرانيتة) السكندرية المصنوعة من المانجو والفراولة أو الآيس كريم الفستقى، ويطوف باعة الجندوفلى وقنفذ البحر بصيئاتهم المفروشة بأطايب البحر المحلاة بفصوص الليمون، يمرقون بين رُؤاد المقاهى الذين يمضون أمسياتهم يتسامرون ويحتسون البيرة الثلجة ويتأعون المزة الطازجة تتراقص بينهم نسائم بحرية منعشة، بينما تدور بين مناضد الزبائن أرجل لا تكل للجارسونات اليونانيين يقدمون لهم المشروبات والمأكولات الخفيفة المزوجة بضحكاتهم وقفشاتهم الشهيرة بألستهم العربية المعوجة اللكنة التى تميزت بها ليالى المصيف بالإسكندرية. وبينما هذا

هو حال المصيفين، وأهل الإسكندرية المتربحين من استضافتهم، يختبئ باقى
السكندريين تحت جلودهم وخلف جدران بيوتهم طوال موسم الصيف،
منشغلين بأعمالهم اليومية العادية فى أثناء النهار بينما يقضون أمسياتهم فى
أماكنهم المعتادة بعيداً عن أعين المصطافين وجلبتهم - على مرحها - فى قلب
المدينة غالباً وبعيداً عن طريق الكورنيش.

وهكذا ليال كثيرة أمضاها داود فى بار الخواجة أنطونيلى بالإبراهيمية
وحتى حلول الساعات الأولى من الفجر، حين يتمشى إلى طريق الكورنيش
الخالى، تدغدغه نسمة البحر الطرية ويتناجى مع أمواجه زافراً إليها
بتساؤلات تبدو له كالألغاز التى تَسْتَعْصِي عليه، عن أمور حياته وعن الشيخ
حسنين وعن فؤاد وموسى وعن سليمان وما تحبئه الأيام له ولهم من بعد،
وقبل أن يخلد إلى منزله متوقفاً حتى يحين المساء التالى، فيترقق به وينقذه
من برائن سجنه الصباحي. وكان أحياناً ما يقف ملتصقاً بسور الكورنيش
متأملاً آخر خيوط الليل الواهية وهى تنسحب رويداً تحت زحف السنة
النهار الوليدة، فتنسكب بجملتها فوق سطح المياه لتكسوها برقاقة فضية
براقة تأخذ بلبه، فيخرج العود من جرابه ويتخذ له مجلساً متميزاً فوق السور
الحجرى أو بداخل إحدى الكبائن الصامتة المصطفة بطول الشاطئ، ويُعطي
ظهره للمدينة ويبدأ فى العزف والغناء الرقيق يناجي به الرمل الأصفر

المنساب أمامه والموجات الفضية المكلفة بتيجان الألباس التي تبعثها إليها
المياه الكاحلة الزرقة الممتدة إلى ما لا نهاية، يعزف ويعزف ويغنى حتى يتسلل
قرص الشمس الوليد ويتصاعد متباطئاً إلى وجه السماء، ويتوالى وقع الأقدام
من حوله تشاركه عالمه الخاص الذى كان قد استأثر به لساعات، فيأبى هو
شراكتهم إياه فيضع العود في الجراب وينصرف.

إلا عند تلك الليلة، أو بالأحرى ذلك الفجر حين كان قابلاً بإحدى
الكبائن الحجرية أمام الشاطئ يفصلها عن مياه البحر أمتار محدودة من
الرمال، ثم ممر مبلط يمتد حذاءها، وكالعادة خلا الشاطئ من أي أثر لحياة
عند تلك الإرهاصات الأولى من الفجر، حتى كان الظلام ما يزال مخمياً، فيما
عدا بصيصاً من الضياء استطاعت خيوطه المذهبة أن تفلت من قبضة الليل
فأتاحت لداود في مجلسه أن يميز معالم المكان أمامه ولو قليلاً. تَسَلَطْنَ ولم يزل
يغازل أوتار العود ويتغنى بكلمات دافئة تموج في فراغ الشاطئ الخالي من أي
مخلوق فيما عداه. وبين سترات الظلام الغالبة الملتفة بإحكام من حول المكان،
تسلل جسم إنسان مغلف بالغموض جاء من ناحية الممر ثم تخطاه إلى رمال
الشاطئ. ثم انسلت بضعة خيوط فجرية مضيئة إلى حيث كان واستقرت
فأظهرت لداود معالمه، فتبدى له جسم امرأة يخطو مترقفاً فوق الرمال، وهيئ
له أنها نظرت إليه لبرهة ثم استدارت نحو البحر. وفي لحظة كانت قد خلعت

عنها ثوبها وكَوَّمته بجانبها ثم خطت في غلالة رقيقة نحو مياه البحر. توقف داود عن العزف متأملاً المشهد أمامه مأسوراً بجسد المرأة الذى عصفت به موجة البحر فاحتضنته تارة ثم اندحرت عنه فالتصق ثوبها بجسدها مبرزاً منحنياته وهضابه ووديانه في لمعة وردية مسحورة بضياء الفجر الوليدة، في حين كانت المرأة تتقلب مداعبة للأمواج المنكسرة عند الطرف الضحل من البحر الممتد. ثم انحسرت الغلالة عن ساقها وأعلى فخذيها، في حين ازدادت تدريجياً سطوة الضوء فتبدى جسدها يللمع وكأنها كائنٌ نورانيٌّ قد خرج لتوه من الماء! وقبع داود في مكانه وقد تسارعت دقات قلبه الذى كاد أن يقفز عنه واشتعلت شهوته غير مصدقٍ ما يراه، إنها حتماً حورية من حوريات البحر التى طالما سمع بهن! وطفقت المرأة تداعب مياه البحر وأمواجه وهى تتراقص معها تعلو وتهبط مع إيقاعاتها المتتالية، وتغوص برأسها في لجة المياه ثم تخرج منها وقد التصقت غلالتها بجسدها أكثر فأكثر حتى صارت وكأنها كمثلى ورقة السيلوفان التى يغلفون بها الحلوى فتبدو كأشهى ما يمكن أن تكون عليه! وفى لحظة كانت المرأة - أو الحلوى - قد خرجت من المياه، وبهزة خفيفة نفضت المياه عن شعرها واهتز معه ثدياها الناضجان، وانحنت متمهلة ثم لَفَّتْ جسمها بمنشفة كانت قد أتت بها وصارت تحفف جسدها بصبر وتأنً، وَخَيْلَ لداود من جديد أنها رفعت رأسها والتفت ناحيته ثانيةً،

ولكنها مع ذلك لم تَبْدُ متململة من وجوده، فلم تضطرب أو تبدل إيقاعها ولو قليلاً، ولكنها مضت فيما كانت عليه حتى انتهت من تخفيف جسدها، ثم نفضت بقايا من الرمال عن ثوبها ووضعت عليها ثانية ثم خطت فوق الرمال في ثقة مبتعدة وقد علقت الششب بأطراف أصابع يُمناها تطوحهما على إيقاع خطواتها، ومضت تتثنى فوق الرمال حتى عبرت الممر المبلط، ثم عند مكان تعرفه مسبقاً ما بين الكبائن دلفت ماضية نحو الكورنيش، بينما بقى داود متسماً في مكانه، يحاول أن يتبين ما إن كانت تلك المرأة التي جاءته ثم رحلت على غير ميعاد، حقيقة كمثل العديد من النساء اللاتي يأتين إلى الشاطئ متسللات تحت خمار الظلام ليتحممن في مياه البحر بعيداً عن العيون المتطفلة، أو مجرد خيالات لحرورية من الحوريات داعبته بها - ساخرة منه - خمر الخواجة أنطونيللى!

ولم يرَ داود جمال عبد الناصر ثانية حتى ذلك اليوم العجيب؛ ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤. ولكنه تابع أخباره من الجرائد وهو يشعر بفخر أن هذا الرجل كان في يوم ما صديقه الذي أعطاه «الخاتم» ذات أمسية، نجح بعدها في القيام بثورته التي غيرت مسار بلده. في الأيام التالية أعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، في حين صار محمد نجيب رئيساً

للوزراء، وفي ١٨ يونيو ١٩٥٣ تصدر الجرائد خبر قرار مجلس قيادة الثورة بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وبإسناد رئاسة الجمهورية إلى محمد نجيب إلى جانب رئاسته لمجلس الوزراء، أما جمال عبد الناصر فقد تولى أول منصبٍ عامٍّ كنائب لرئيس الوزراء ووزير للداخلية في تلك الوزارة التي تشكلت بعد إعلان الجمهورية. وفي الشهر التالي ترك جمال عبد الناصر منصب وزير الداخلية، ولكنه احتفظ بمنصب نائب رئيس الوزراء. وفي فبراير ١٩٥٤ أقيل محمد نجيب وأصبح جمال رئيسًا لمجلس الوزراء والمجلس قيادة الثورة ثم رئيسًا للجمهورية. رقص قلبه في صدره ولم يصدق داود أن ذلك الضابط الشاب الذي لاقاه بالمقهى مع الشيخ حسنين ذات يوم منذ نحو خمسة أعوام قد صار رئيسًا للجمهورية!

ومضت الأيام رتيبة بداود، بعد ذلك الخضم من الأحداث الجلييلة التي ملأت بوقعها أيامه. وكما يسبق الهدوء العاصفة، فهو حتمًا يعقبها أيضًا. ولكن داود ابتلع حزن جفاء الشيخ حسنين له وافتقد بالطبع ابتعاده عن صديقه الأقرب، وحاصرته ذكريات تلك الحورية التي تبدت له ذات فجر عند شاطئ البحر تملأ خيالاته نهارًا وليلاً، فتبدّى لمن يراه ساهمًا أكثر من اللازم وصامتًا معظم الأوقات. قرر أن يستفيد من هذه الأيام «الهادئة»

ليقضى أكبر قدر من الوقت مع إيلين والأبناء. ولم يكن أنسب في ذلك الوقت من السنة من أن يصطحبهم جميعاً إلى شاطئ البحر. ولأنه لم يكن ينتظر أن يتلاقى هناك بحوريّته على أى حال، فلم يكن يفكر في نفسه أو يُبدي رغباته هو، حين قرر الذهاب بهم إلى الشاطئ، ولكنه لم يكن يتوقع مقدار السعادة التي حملتها تلك النزحات البسيطة إلى قلوبهم جميعاً، وذلك الأثر العميق الذي تركته في نفوس الصغار بالذات، والذي سيبقى محفوراً في ذاكرتهم على مدى الأيام.

كان في الواقع يعاني من ضيق الحال لانقطاع الدخل الذي كان يأتي من العمل مع الشيخ حسنين، ولكنه استطاع بفضل مساعدة أصدقائه من اليهود بمحرم بك، وعلى رأسهم «زكي فريجة» الصائغ الذي كان قد ابتاع منه خاتمه المسحور، والذي كان قد أبى - مثله - أن يغادر الإسكندرية مع بعض اليهود الذين كانوا قد هاجروا في أعقاب حرب فلسطين في خريف ١٩٤٨، فتعهد زكي أن يساعده ليجد عملاً على الفور، فكوّن بمساعدته فرقة موسيقية صغيرة تخصصت في إحياء موسيقى الفنان المصري اليهودي الراحل «داود حسني». قوبلت الفرقة باستحسان الجالية اليهودية بالإسكندرية الذين بدءوا يدعونه وفرقته لإحياء حفلاتهم الخاصة بمنازلهم، شادياً بـ «على خده يا ناس ميت وردة» وأدوار «كل ما يزداد رضى قلبك عليّ» و«جنة نعيمى ف

هواك» لأم كلثوم، وطقطوقة «قمر له ليالي يطلع لم يبالي»، فطلع القمر من جديد، ولم يُبالِ داود بالظلام الذي كان يحيط به. بل وانصلحت الحالة المادية خلال فترة وجيزة، وعاد يلعب بالملك من جديد.

ولكن كعادة الأفراح التي تكون منقوصة لسبب أو لآخر، لم يكتمل فرح داود بالنجاح؛ لانحساره داخل دائرة الطائفة اليهودية، فذكرته عزلته هذه بشعور قميء كان دائماً ما يعتريه منذ أيام الطفولة، حينما كان أقرانه في الحي يجتمعون في دائرة عند مدخل أحد البيوت، بعد ما تنقطع أنفاسهم من طول الركض الذي كان يستغرق أمسياتهم الصيفية، فيبدؤون في الغناء على إيقاع تصفيقاتهم المرحية:

«وصلي صلي. ع النبي صلي. واقروا الفتحة لابو العباس. يا اسكندرية يا أجدع ناس. والي ما يصلي. أبوه أرمني وأمه يهودية..»

وذا صباح في خريف ١٩٥٤، وكان قد اجتمع بأسرته عائدتين للبيت من زيارة حدائق أنطونيادس، بداخل سيارة تاكسي من ذلك النوع المزود بمقعدين مقلوبين بظهر مقعد السائق، وكان سليمان ومنى ابنا إيلين، وليلى الابنة الصغيرة للراحلة بدور - يعشقون تلك المقاعد المقلوبة، وكانت الفرحة تكاد تثب من عيونهم الصغيرة، وضحكاتهم البريئة تقهقه هنا وهناك، وداود يتابع المشهد بنشوة وارتياح، وإذا بإيلين تصرخ فجأة:

- «يا لهوى!» وهى تقرع بيدها فوق صدرها بينما عيناها شاخصتان نحو شارع «فؤاد» الذي كان التاكسي يقطعه بصعوبة، فتلفت داود أيضاً وإذا بجموع غفيرة تتدافع متلاحمة وكأنها أمواج البحر، الذي لم يكن يبعد عنهم فعلاً إلا خطوات قليلة، وكانت تلك الكتل البشرية تزحف في دائرة أو دوائر متماوجة، تحدها عند الجانبين صفان من العمارات، وقد امتلأت نوافذها وشرفاتها عن آخرها بوجوه باسممة وأيادٍ مصفقة وملوَّحة، مما أصاب إيلين بالخوف بالرغم من مظاهر البهجة الواضحة إلا أن تكدسهم بالشارع أمامها هكذا أوجسها. وأما هو، ففي خضم تلك اللوحة الرائعة الماثلة أمامه لمح داود، على بعد نحو مائتي متر من موقعه خلف نافذة التاكسي، وسط تلك المظاهرة الحاشدة وعند محورها، سيارة «كاديلاك» سوداء، تبرق لمعاناً، مكشوفة السقف، يقف فيها جمال عبد الناصر - نعم هو شخصياً - وبرفقه ضابطان عن يمينه ويساره، يحيون الجماهير الحائمة حول موكب سيارتهم، فما كان من داود إلا أن دفع برأسه، بل بجذعه كله من نافذة التاكسي وقد مدَّ ذراعه أمامه يلوِّح بشدة، وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- «يا جمال أنا هنا!! أنا الخواجة داود... أنا هنا يا جمال يا بن عبد الناصر افندى. أخويا!!». ولكن ذابت صرخته في خضم ضوضاء الزحام المحيط..





الفصل السادس

وفى مساء ذلك اليوم سمع داود فى الراديو خطاب الصباغ «صلاح نصر»، وأعقبه خطاب «الشيخ الباقوري» وزير الأوقاف، ثم جاءت خطبة الرئيس جمال احتفالاً بعيد الجلاء من وسط ميدان المنشية الذي كان ما يزال يموج بالآلاف من أهل الإسكندرية، الذين احتشدوا بتلقائية وعفوية حول قائدهم، وتمنى داود أن يكون وسطهم، بل ويتقدمهم بما أنه كان من جنود الحركة، حين خطب جمال فى الجموع الغفيرة قائلاً:

- «أيها المواطنون نحتفل اليوم معاً - ويشير بيده إلى داود الواقف أمامه فى الصف الأول بين الجماهير المحتشدة - فينظر الكل إلى حيث يشير، فيفهم الجميع «من» يقصد بقوله «معاً» (أى أنا وداود وباقي الشعب طبعاً) - نحتفل معاً بعيد الجلاء، عيد الحرية، وعيد الكرامة»..

ويسمع داود صوت طرقات كالألعاب النارية، كصواريخ «أولاد على بمبه». تراك تراك.. تاك تاك تاك تاك. نعم، نعم إنها كذلك، فيبتسم مدارياً لانقباضة تغشاه. ثم يحلُّ صمت للحظات حتى يجيء صوته من جديد من خلال الراديو، وإن كان يكتنفه نوع من الهلع:

- «أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! أيها الرجال فليبق الكل في مكانه! عشرات وعشرات من المرات يكرر النداء، ويكرر، لإخوانه من الضباط من حوله وللجماهير المحتشدة أمامه، ولمصر كلها المجتمعمة حول أجهزة الراديو تستمع إليه، بأنه بخير وبأن محاولة اغتياله تلك قد باءت بالفشل. ويتنهد ثم تنساب دمعة جديدة على خد داود.

مرَّ يومان وداود يأبى أن يغادر منزله، بل بالكاد يترك غرفته لشعور انقباض وحزن يجتاحه ولا يفهم هو مكنونه، وإن كان قد استسلم له خانعًا. كان الوقت يتسرب ببطء من حوله وقد تتأقل بلزوجة عجيبة جعلته يلتصق بإصرار بكل ثانية تمرُّ به فلا تستطيع الفكاك منه إلا بأعجوبة. وكان يمضى الساعات الأولى من يومه ممددًا فوق السرير متطلعًا إلى سقف الحجرة أو دافئًا رأسه تحت الوسادات في محاولة لعزل أصوات الشارع المألوفة من نداءات الباعة على الخضروات، أو اللبن الزبادي، أو رنين أجراس الدراجات المارقة، أو نداءات السكان بعضهم لبعض عبر النوافذ أو البلكونات، أو حتى ذلك الصوت النادر الزاعق عند مداخل البيوت، فلان الفلانى... بوسطه! وكان صوت الراديو القادم من الشارع يذيع برامج وأغاني وطنية تشيد بالثورة وبعبد الناصر، ويشعر معها داود بالفخر لأنه كان شريكًا في ذلك

العمل الوطني، ولكنه يتذكر كلمات الشيخ حسنين الجارحة فيقبض قلبه في صدره ويتلوى كمدًا من جديد، فيستسلم لموجة أخرى من اليأس الممزوج بالدمع حتى يباغته وجه الطفل على شاطئ البحر ليقول له إن الرجال لا يكونون!. نعم لا يكون، حتى عندما يشكك أصدقاؤهم في حقيقة انتمائهم لوطنهم، لا يكون. حينما ينقطع رزقهم ورزق أولادهم بسبب ديانتهم ولا أكثر، لا يكون. وعندما ينعتهم أهل بلدهم - الإسكندرية - بالخواجات طيلة حياتهم لأنهم لا يتبعون دين الأغلبية، في حين يدعون المهاجر والوافد إلى البلد، التركي أو الشامي - المسلم - بالحاج فلان أو الأخ فلان، ولكن ما عليه؟ فالرجال لا يكونون!. ولماذا لا يبكي رجال مثل داود؟ لأنهم أقوياء - طبعًا - ولأنهم المثل والقذوة - بلا شك - بل ولأن الطين الذي جُبلوا منه، يبدو أنه كان مختلفًا عن باقي الطين الذي جُبل منه باقي البشر، لذلك فهم - تلك الفئة من الرجال - لا يكونون!..

انتفض داود فزعًا على دقائق متتالية قادمة من عند باب الشقة، وإن بدت لارتفاع وتيرتها وكأنها قد ملأت البيت، فاتسع صداها في لحظات ليملاً فراغ الشقة كله بصوت يشبه دقائق الطبول ترتجّ معه حيطان الغرفة، فهبّ الجميع، الأولاد وداود يهرولون من جميع الغرف إلى الصالة التي تتوسط الشقة، وحتى إيلين أطلت بوجهها من باب المطبخ، وقد ارتسمت

علامات الجزع فوق وجهها الجميل، ولكنها أبت أن تترك مكانها حتى لا يحترق الطعام الذي كانت تعدّه وإن أعلنت مشاركتها بصياحها:

- «يا عدرة!! حد يفتح الباب يا ولاد، شوفوا مين، يا مار جرجس يا شهيد!! خير إن شاء الله!!»

وهبّ داود ليفتح الباب فإذا بالست أم لطفى وقد التفت بالملاية السوداء كعهده بها، وفي يدها طفلها الصغير يتطلع لأعلى إليه بفضول وقد غمس إبهامه الصغير في فمه وأخذ يمصه، وما تزال أمه تطرق الباب بقبضة يدها الأخرى بهستيريا حتى بعد أن انفتح الباب، ولما رآته أخيراً بعد أن وعت أنه واقف أمامها، صرخت من بين دموعها:

- «إلحقنى ياخواجة داود، إلحقونى يا ناس، أخذوا الشيخ حسنين». فجحظت عينا داود، إذ فهم في لحظة سر عزلته واكتتابه اللذين أديا به أن ينطرح أسير غرفته ليومين. ومن دون أن ينبس بكلمة، أشار إليها أن تدخل وطفلها معلق في يدها ما يزال يتطلع إليه بعينه الواسعتين المطلتين من كوز العسل المتخفي في هيئة رأس طفل، في حين هرولت إيلين من ناحية المطبخ، وهى تقرع صدرها مؤازرة للمرأة في جزعها على مصير زوجها. انتهز داود فرصة الانشغال بقدم إيلين فدارى ابتسامته الساخرة التي بدأت تزيح ملامح وجهه الجادة، من رأس الطفل المنبجج، مؤمناً بينه وبين نفسه بأنه لم

يأخذ من شبه أمه شيئاً. ودلف لغرفة النوم مبدلاً ثيابه وعاد بسرعة، كانت الست أم لطفي قد قصّت خلالها كل تفاصيل الأحداث على إيلين. وعند عودته إلى الصلاة، ألقّت المرأتان بروايتهما في تتابع على مسمعه وهو يكمل لفة رباط العنق ويرشف آخر فنجان القهوة، فعلم منهن أن بضعة من الرجال في ثياب مدنية - يبدون كالمخبرين - قد زاروا الشيخ حسنين في منزله ليلة أمس، أو بالأحرى في الساعات الأولى من فجر هذا اليوم، ثم أخذوه معهم في جلبة، بعد أن قلبوا محتويات الشقة رأساً على عقب. وبالرغم من صراخ الست أم لطفي ومن تجمع الجيران حول عتبة الشقة، وبطول السلم، وحتى باب العمارة، إلا أنهم دفعوا به إلى داخل سيارة من نوع «البوكس» الحكومية التابعة للشرطة دون أن يجاوبوا أحداً عن تساؤلاته، إلى أين يأخذونه أو لماذا، وفي دقائق كانوا قد اختفوا بزوجها إلى الشارع الرئيسى تاركين خلفهم الحيرة والخوف والجيران المذهولين أمام مدخل البيت، والأسرة وقد انقلب حالها في خلال دقائق، وكأن إعصاراً أو نوبة من نوات أمشير قد اجتاحتها فدمرتها تدميراً.

دار داود، والمرأة تتبعه، في شوارع الإسكندرية كلها دون جدوى. بدأ بشاويش شاب بقسم البوليس بمحرم بك، ثم ضابط التحريات، فمأمور القسم، ثم مديرية الأمن بكامل طوابقها وممراتها ودهاليزها. وكانت

الإجابة واحدة في كل الأحوال: «ليست لدينا أية معلومات عن الشيخ حسنين البصري هذا، لا بد أن في الأمر خطأ ما». وتحير داود ماذا يفعل وقد مال النهار ولم ينجز شيئاً، ولم تكف المرأة المسكينة عن بكائها. بدأت الغيوم والسحب تتلاحم منذرة، واغتم الطريق بلون داكن حين اختفت الشمس وغابت خلف وطأة الغيوم القريبة، وملأت الجو رائحة الرطوبة الباردة الممزوجة بالملح واليود المنبعث من النباتات البحرية الملقاة بإهمال فوق رمال الشاطئ الخالي من كل شيء، فيما عدا أذرع الضياء الهابطة أحياناً من السماء بين السحب الغاضبة. وهرع الجميع إلى منازلهم الموصدة الشبايك، وقد بدأت لافتات الطريق وإشارات المرور تتراقص بفعل هبوب الريح اللافة المنذرة بالعاصفة القادمة، فيما خلا الرجل والمرأة اللذين بقيا هائمين تتلففهما الشوارع والأرصعة بلا طائل.

وفجأة بدأ سيل من المطر ينهمر وكأن السماء قد انشطرت ففاضت في لحظة بكل المياه التي كانت تحملها في جعبتها. مياه في كل مكان! فوقهم وأمامهم وخلفهم بل وتحت أرجلهم ترتطم المياه بأرضية الشارع ثم تقفز إليهم من تحتهم، فوثب هو بخفة وبخبرة واستدار لاصقاً ظهره باب خشبي تحت عتبة أحد البيوت أمامه. وتأخرت عنه قمر نحو خطوة أو اثنتين، كانت كافية لأن يراها قادمة نحوه لتحتمي مثله بعتبة المدخل المسقوفة درءاً للشلال المنهمر.

وكان دوراً محفوفاً بالماء قد انقلب فوق رأسها، أو موجة بحر قد صعدت فوق رصيف الكورنيش وغمرتها، فالتصقت ثيابها بجسمها فتبدت معالمه بل وتفصيلاته أمام عينيه لأول مرة، فأخذَ بما تبدى له!. نظر داود إليها ربا لأول مرة منذ قابلها، بل منذ عرفها نظر إليها، إلى المرأة الشابة الباكية أمامه، وليس لزوجة الشيخ حسنين، وتبدت له صورة لم تعد تفارق مخيلته منذ وقعت عليها عيناه لأول مرة، عند ذلك الفجر يوم أن تبدت له تلك الحورية المسحورة تستحم أمامه عند شاطئ البحر. نفس المعالم ونفس الروح تهلُّ عليه الآن وكأنها ما فارقت أبداً! وإنما تغلبت تلك النظرة المنكسرة عليها فترقرق قلبه بل وكادت أن تفيض بالدمع عيناه لما رأى هذا الكم من الحزن يعترها، ولكن مشهد الحورية لم يزل يداعبه ويوقظ مشاعره. قبع «قمر» متسمة بجانبه تحت العتبة المسقوفة، وقد دنت منه لضيق المكان، حتى إن أنفاسها المترددة كانت تحفُّ بظهر يده التي كانت تعبث برباط عنقه. حاول التخفيف عنها، فشرع يخاطبها بكلمات تهدئ من نفسها، وهمَّ فجأة بأن يأخذها ليعتصرها ما بين أحضانه ولكنه امتنع، وشرع لأن يدعوها باسمها ولكنه أدرك لحظتها أنه لم يكن حتى يعرف اسمها الحقيقي، فهي كانت دائماً «أم لطفي» بالنسبة له. إلا أن الحزن في عينها أضفى عليها ضعفاً وانكساراً شداها إليها كامراً تبكي أمام رجل يتبغي حمايتها ويسعى بكل ما أوتي من رجولة ليكفكف

عنها دمعها، ورمها البكاء وتلك الحيرة المغلوبة على أمرها بجمال منكسر جذاب. ووثبت أنوثتها المستضعفة فجأة أمامه، تصارعه في ثوب امرأة واهنة منكسرة تحتاج إلى حمايته وتوجيهه إياها، فصرعته!. فجأة تبدلت حالتها من ربة المنزل «أم لطفي»، التي كان يراها دومًا عليها، إلى تلك المرأة الفاتنة التي يراها أمامه وقد التصقت ملابسها بجسد الحورية المسحور، فأصيب بدهش أسكته. وفجأة أيضًا عادت به السنون للوراء فطفقت رجولته المتدفقة تنهاى في الذود عنها. رآها لأول مرة امرأة شابة، نضرة كالفاكهة الشهيية، ملفوفة القوام، نقية البشرة كضوء الفجر، وخصلة شعرها الذهبي بلون الشمس تلوح من تحت المنديل في تحدّ تنساب على جبينها وتطال الجانب الأيسر من وجهها فتراقص أمام عينيها الخضراوين وهي تنشج، وخيّل إليه أنها تنظر له من بين دموعها وخلف خصلات شعرها المبلل بفعل المطر المنساب بنفس الوله والإعجاب. هبت ريحٌ تجاههما وندت معها من جسدها رائحة كالورود، ومن جديد همّ بأن يربت على كتفها، بل ويأخذها بين ذراعيه، ولكن تمالك داود نفسه مرة أخرى، بصعوبة، ثم سألها بنبرة تعمّد أن تكون أقرب للرزانة والصدق بعد أن كان قد ذاب في تلك الأفكار التي اجتاحتها فجأة كالإعصار، دافعًا إياها عنه خجلًا من نفسه، مغيرًا اتجاه مشاعره وداعيًا ألا تكون المرأة قد لاحظت ما قد يفضح مشاعره تجاهها:

- «هو انت اسمك إيه يا أم لطفي؟» فرفعت المرأة عينيهما نحوه فانسحب إلى عمق خضارهما وغاب في غضون عالم جديد لم يعهد مثله قبلاً، ثم كفكفت دمعها بطرف قميصها، متعجبة من كلماته ونظراته إليها، ثم أشاحت بخصلة شعرها من فوق وجهها، وكأنها ترفع حاجزاً كان يحجب وجهها عنه وأجابت كالمأخوذة:

- «اسمى» قمر «ياسى داود، إنت بتسأل ليه؟» فابتسم الرجل مرتبكاً:

- «أبدًا أصلي لقيت نفسي مش عارف اسمك، يا قمر، تعرفي إن مراتي الثانية - الله يرحمها - كان اسمها بدور؟ يعنى كذا قمر..» وضحك داود، وأما هي فلم تفهم مقصده فسكتت.. تَطَلَّع داود إلى وجه قمر وقد كفت عن بكائها ونشيجها، فتبدت له بشرتها البيضاء الرائقة وكریات من بقايا الدمع والمطر تنزل فوق وجنتها لتتجمع فوق شفتها العليا المكتنزة بحيوية الشباب فتلعقها هي بعفوية بطرف لسانها، وعيناها الخضراون تتطلعان إليه متسائلة، فَأَخَذَ من فرط جمالها وجاذبيتها الفطرية والبلل الذي يغطيها يضيفي عليها لمعاناً ويضاهي آدميتها العادية بسحر الجنيات. شعر بأنها امرأة جديدة فريدة، وكأنها حواء التي خلقت لتوها من أجله، وخرجت من وسط أمواج البحر؛ لتؤنسه في حياته، وإن قال لها ليغطي ارتباكها لوقع حسننها وأنوثتها عليه، وليعود بذهنه إلى ما كانوا فيه من حديث:

- «أنا هانكلمو الخواجة زكي في التلفون، يشوف لنا حد من الناس
الأكابر من معارفنا يساعدنا»..

وتوقف المطر فجأة كما بدأ، وانقشعت الغيوم فسطعت الشمس من
جديد وملاّت بأشعتها السماء وإن بقيت برودة معلقة بنسمات الهواء الهابة
هنا وهناك. وتطلع داود إلى قمر وابتسم لها بحنان مشفقاً عليها من ابتلال
ملابسها، فاقترح أن يرجعا إلى بيتيهما لتبدل هي ثيابها في حين يقوم هو ببعض
المكالمات التلفونية، فوافقت. وسارا صامتين متجاورين في حين كان فكره
يدور في كيف يتسنى له أن يسألها عن تلك الحورية التي تبدّت له يوماً عند
شاطئ البحر وقلبت كيانه تماماً! ولكنه آثر أن يلتزم الصمت لعلها تحجل من
أن تبوح بسرّها، أو ربما لم تكن هي تلك الحورية الحسنة فتستنكر سؤاله بل
وقد تعدّه مُهيناً، وإن استبعد هو بينه وبين نفسه ذلك الاحتمال إذ أكد له قلبه
أنها هي حوريته!..

وتلاقيا من جديد بعد الظهر، فمضى داود معها إلى قصر «بنوتي باشا»
ودخل بالمرأة التي صارت الآن ترف في فستان أسود يلتف برقة حول جسمها
محتضناً بشرتها الناصعة البياض، تعتلي سواده ورود حمراء كبيرة بينما قمطت
شعرها بمنديل أحمر تدلت من أطرافه المذهبة كريات من الخيوط الحمراء
والسوداء تهتز مع كل خطوة تخطوها، منسجمة مع ارتعاش القربط الذهبي

المتعدد الأدوار المتدلي من أذنيه. وانبهرت قمر بأمارات العز التي ملأت جنبات القصر المطل على البحر، انبعث صوت عزف رقيق لسوناتا (ضوء القمر) لبيتهوفن من آلة البيانو يبدو آتياً من الناحية المقابلة لغرفة الصالون التي قادها إليها الخادم، وقابلهم الباشا بعد دقائق في ذلك الصالون المهول المرصع بالتحف واللوحات المتناثرة هنا وهناك، ونفث دخان السيجار السميك أمامه وقد بدت عليه علامات الاستنكار لاصطحاب داود لتلك المرأة (الشعبية) إلى بيته، وإن كان لجدية داود الظاهرة في طلبه المعونة أكبر الأثر ليشحذ الباشا همته، ولسبب المعزة الخاصة التي كان يُكنّها له، في أن يجد الشيخ حسنين. وبالفعل طلب الباشا من خادمه أن يأتي بعصير الليمون للضيوف، وأن يحضر إليه التليفون ودفتر الأرقام من حجرة المكتب، وتحدث الباشا هامساً وفي خلال دقائق كان يعيد سماعة التليفون إلى مكانها، في حين كان داود يرشف الليمون، ونقرات البيانو ما تزال تتطرق إلى أذنيه. ثم سحب الباشا نفساً جديداً من السيجار ثم نفث به وقال مستنكراً، والدخان يتصاعد من فمه كالقاطرة مع كل كلمة ينطق بها:

- «إيه يا داود أفندي؟ مش كان الواجب تقول لي إن صاحبك ده إخوانجي؟
ليه بس الإحراج ده، وإيه يا أخي إلى يلمك على الأشكال دي؟» أعقب ذلك شهقة، لا بل ولولة مبتورة من جانب السيدة أم لطفي، وإن سارع داود

بوضع كفه فوق فمها قبل أن تتفوه بكلمة قد تُسيء إلى معالي الباشا، وشعر
برعشة تسري من شفيتها إلى يده فتلعثم. وعدته بعينها أنها ستصمت، فرفع
راحته عن فمها، ولكنه قال متلهفًا إلى مزيد من المعلومات:

- «معلّش يا سعادة الباشا، الشيخ حسنين ده صاحبي وعشرة عُمر.
أستسمحك بس يا باشا تعرّفنى هو فين دلوقت..» فقام الباشا من على
كرسيه معلّنًا عن انتهاء الزيارة، وهو يقول:

- «صاحبك اترحل على القاهرة من ساعتين. الموضوع ده جاي من فوق.
فوق قوي. فاهم يا داود أفندى؟»

شعر داود بفراغ ما من حوله، وانتابه إحساس بأنه قد ترك خلفه شيئاً
مهماً، أو نسيه وهو جالس بالقطار المتجه للقاهرة، فأخذ يعث بجيوبه
متفحصاً محتوياتها، كما خلع الطربوش ووضع ثانياً على رأسه، وتفحص
منديله في جيب سترته ثم أحكم وضعه، وهكذا لعدة دقائق حتى تذكر
أنه ترك «العود» - متعمداً - في البيت، وإن لم يكن اعتاد فراقه. ومدّ نظره
عبر النافذة محاولاً أن يقاوم ذاك الشعور القهري بالفقدان الذي اجتاحه،
ورنا إليه طيف «قمر» بوجهها الأبيض الرائق الجمال وشفيتها المكتنزتين
المرتعتين تحت وطأة كفه فوقهما، فهزّ رأسه على الفور مشيحاً بتلك الخواطر
مستنكراً مجرد تفكيره فيها، في زوجة صديقه الذي عزم ألا يعود للإسكندرية

من دونه. وتشاغل متأملاً تلك الخضرة المترامية على جانبي شريط القطار، تلك الخضرة الصامتة المسطحة الساكنة الأزلية، وتسلى عن تفكيره في «قمر» بمتابعة أشجار النخيل البعيدة المصطفة على مرمى البصر وهي تسابق القطار الذي كان يطير به إلى القاهرة.

وتذكر يوم اصطحبه أبوه «عيسى أفندى عبد الملك» للقاهرة لأول مرة لحضور حفلة عرس ابنة ابن عمته «يوسف قطاني» باشا المليونير الشهير، والتي أحيها ليلتها النجم الشاب «محمد عبد الوهاب»! الذي أصبح من بعدها نجماً عالياً متربّعاً في سماء الفن. كان عمره وقتها لا يتعدى التاسعة عشرة وكانت تلك هي أول سفره له من الإسكندرية، ويذكر جيداً كيف استيقظ يومها في الرابعة صباحاً، وكيف تركا البيت والظلام ما يزال يخيم على شوارع مدينته، وكيف ذرفت أمه دموعاً ساخنة وهي تودعه على عتبة الشقة وكأنه خارج بلا عودة!.

ومع رتابة صوت عجلات القطار زفر داود متفكراً «كم مرت الأيام، وكم تغيرت يا زمن! رحل أبي ورحلت أمي ومصيرك يا داود إلى أن تصبح جدّاً!! الأهم الآن أن نجد طريقة لنعود بالشيخ حسنين للإسكندرية»..





الفصل السابع

فور وصوله، لميدان المحطة المزدحم بالبشر الرائحين والجائين في كل مكان من حوله، انتابه ذلك الشعور بالاغتراب الذي عادة ما يحل بالسكندريين عند زيارتهم للقاهرة، العاصمة المكتظة بالناس، وبالمباني، وبالسيارات بأشكالها، والتاكسي الأبيض في أسود بدلاً من البرتقالي الذي تتميز به مدينته، وعربات الحنطور، وعربات الكارو، والنازحين من القرى المجاورة، والناس الملتفين حول عربات الكشري، يزدردون طعامهم في صمت واستسلام وسط زخم المدينة الهائلة. استقل داود سيارة أجرة وقال للسائق:

- «اطلع بينا يا أسطى على منشية البكري، على بيت جمال عبد الناصر». فالتفت السائق إليه عبر المراة الخلفية، وأوماً برأسه، متفكراً فيمن يكون ذلك الكهل الأنيق الذي ما يزال يلبس طربوشاً في ذلك العصر الجديد، الذي صدر به أمر من الرئيس نفسه بإلغاء الطرابيش والألقاب، والذي نزل من القطار لتوه واستقل عربته وانكمش في مقعدها الخلفي الوثير متجهاً مباشرة لمقابلة «الرئيس» ذاته!. وإن لم يدفعه فضوله هذا إلى أن ينطق بكلمة واحدة

طوال الطريق. تغلبت الرهبة على مشاعره وبصعوبة وافق حتى أن يأخذ ثمن المشوار، وسط استغراب «داود» بل وأصرَّ أن يدور حول العربة ويفتح للكهل الأنيق باب التاكسي عند وصولهم، ثم انطلق مسرعًا وكأنه يهرب من جرم ما قد يكون ارتكبه وهو لا يدري!..

عند المدخل كان ضابط جالسًا خلف مكتب خشبي صغير بداخل غرفة حجرية مشيدة خصيصًا لدواعي الأمن، بل ومزينة - من باب التأكيد - بياضة مكتوب عليها «مكتب الأمن»، زيادة في الحرص لئلا يشك أحد في شأنها الهام. كانت غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة تطل على الطريق، وعند جانبها حجرة أخرى أو على وجه الدقة، صومعة اسطوانية بالكاد تكفي لوقوف شخص واحد، وكان بالفعل يقف بداخلها عسكري حراسة يحمل بندقية تنتهي فوهتها بسلاح أبيض فوق كتفه. تقدم داود عابرًا العسكري في اسطوانته الحجرية بعد أن أومأ إليه محييًا ولم يرد، واقترب من النافذة فرأى ضابطًا جالسًا خلف مكتب، ثم طرق زجاج النافذة برفق، فأشار إليه الضابط أن يدور حيث باب الحجرة عند جانبها البعيد المختفي عن الطريق، فاتّبع داود التعليمات ودخل قائلاً:

- «صباح الخير يا حضرة الضابط، أنا عايز أقابل الرئيس جمال لو تسمح»
قالها بعنفوية وقد أخرج منديله لينفض الغبار وهو يهم بالجلوس على المقعد

الخشبي المواجه للمكتب، فقابله الضابط بابتسامة متعجبة من مظهره المتأنق أخفى وراءها مسحة سخرية خثي هو من أن تظهر لعل ذلك الزائر الغريب أن يكون من أصحاب الشأن، وما أكثر أصحاب الشأن في هذه الأيام!. كان يجلس وحده في تلك الحجرة الصغيرة المجردة الحوائط اللهم إلا من صورة للرئيس جمال عبد الناصر، وابتسامة كبيرة تعلو وجهه، تطل من الحائط خلفه، وفيما عدا بعض الأوراق المتناثرة على المكتب، لم يكن هناك شيء آخر يذكر باستثناء جهاز تليفون أسود من دون قرص للأرقام، أي مخصص فقط لاستقبال المكالمات أو للتخاطب مع جهاز آخر بداخل المبنى، موضوع على منضدة متعامدة مع المكتب، وبجانبه كوب شاي فارغ إلا من بعض بقايا أوراق الشاي الجافة العالقة بقاعه وذبابة أو اثنتان تحومان فوقه. وكانت الحوائط والمكتب والمنضدة والتليفون وحتى كوب الشاي مغطاة بطبقة من التراب الرمادي، ربما لقرب الغرفة من الشارع العمومي، الذي تنامت أبواق سياراته وأصوات المارة والدواب الجارة لعربات الكارو والقطط والكلاب الضالة الغاصين به إليه كواقع حاضر يلفُّ به بطول المقابلة.

- «وسيادتك عايز تقابل الرئيس ليه؟» وكان الضابط قد بدأ يدون بيانات داود من بطاقته الشخصية التي طلب أن يراها، فمدَّها إليه داود، وهو يشكر في فكره الشيخ حسنين الذي كان قد أشار إليه أن يذهب ويستخرج

شهادة الجنسية المصرية منذ أكثر من عشرين سنة، وحيث كان معظم اليهود المصريين وقتها لا يحملون شهادات الجنسية المصرية، فقد كان من حسن حظه أنه كان يحمل بطاقة شخصية في ذلك اليوم بالذات وهو يطلب مقابلة رئيس الجمهورية. أجابه داود:

- «أبدأ يا فندم، بس ده موضوع شخصي، لو سمحت حضرتك تبلغ الرئيس إن داود عبد الملك جه من إسكندرية وطالب يقابلك، أقصد يعني يقابل سيادتك». فكتب الضابط في دفتر الزوار نص ما أملاه عليه داود، ثم مال بجذعه ورفع سماعة التليفون وبدأ يضغط فوقه ضغوطات متتالية، وهو ينظر نحو السقف منتظرًا إجابة، ثم اعتدل فوق كرسيه فجأة وأعلم المتحدث على الجانب الآخر بوجود زائر يريد أن يقابل الرئيس مكرًا ما قاله داود. ثم وضع السماعة مكانها مبتسمًا مرة أخرى، وهو يتفحص داود عبد الملك الجالس أمامه في تأنيق ملحوظ منتظرًا أن يقابل رئيس الجمهورية. ولم تمر سوى بضع دقائق حتى اخترق رنين التليفون مساحة الضوضاء المسترسلة القادمة من الشارع، فانتفض داود في مكانه فزعًا، وأما الضابط المعتاد مثل ذلك الرنين، فما كان منه إلا أن استدار بهدوء والتقط سماعة التليفون ثانية، ثم ارتسمت على وجهه فجأة أمارات الجدة، وهب واقفًا وهو يقول:

- « أيوه يا فندم حالاً. شكرًا. مع السلامة سيادتك.. » ثم أشار لداود بمنتهى الأدب أن يتبعه إلى داخل المبنى، حيث استلمه ضابط ثانٍ ارتقى معه بعض الدرجات بينما عاد الأول إلى موقعه بمكتب الأمن.

تلقاه الرئيس جمال واقفًا، بشوشًا بابتسامة عريضة تملأ وجهه، وقد مدّ ذراعيه أمامه معلنًا استعدادَه أن يأخذه في حضنه، فاستجاب داود لدعوته متحفظًا، بسبب الرهبة التي تحيط في العادة بشخص الرئيس، فتقدم الخطوات اللازمة ولكنه لم يُلقِ بنفسه في أحضانه بالقوة المطلوبة لحضن الأصدقاء الحميميّ، وإن اكتفى بالاقتراب حتى أوشك صدرهما على التلامس، ولكن على أي حال لم يستغرق كل ذلك سوى برهة، ملأت أنف داود تلك الرائحة التي شك في أنها كانت تخص اليوزباشي جمال، رائحته يوم قابله في مقهى خليل أغا، ذلك المزيج من الليمون مع السكر المحروق، والتي كان حسبها يومها صادرة من مكان ما بالمقهى ذاته، ولم يفكر في أن تكون رائحته هو، إذ لم تكن - حينذاك - مألوفة لديه. ربت بعدها جمال على أعلى كتفه، وقد تبدى لداود أنه ربما يكون قد ازداد طولاً وعرضاً منذ آخر لقاء بينهما.

- « أهلاً أهلاً »

ثم أخذه جمال وهو يسير بجانبه متمهلاً واضعاً ذراعه فوق كتفه كالأصدقاء القدامى وهما يعبران الغرفة الشاسعة متجهين إلى طاقم من المقاعد الجلدية الخضراء المتناثرة عند الطرف البعيد لسجادة عجمية، لم ير لحجمها ولفخامتها مثلاً من قبل، بالرغم من ترده على قصور أغنياء كثيرين على مدار أيامه. جلس قبالة وقد اعتلت صفحة وجهه ابتسامة مريجة، بل وأحياناً ضحكة صامتة أظهرت أسنانه المبيضة. وكان يراه لأول مرة من دون الملابس العسكرية، فقد كان يرتدي قميصاً أبيض وقد ثنى أكمامه إلى منتصف ساعديه، وبطلوناً رمادياً فوق صندل جلدي دون جوارب، كشفوا عن مدى سمرة جلد ساعديه وأسفل ساقيه التي كانت قد غطتها البدلة العسكرية من قبل. جلس وقد مدَّ جذعه للأمام وسند ساعديه فوق فخذه وعقد يديه قبالة في تباسط دون أن يُشعر داود بأي توتر أو استغراب للمكان، وقال جمال مبادراً والابتسامة العريضة لا تزال تملأ وجهه الأسمر وقد بدأ يحرك يديه مع تتابع كلماته:

- «إنت فينك يا خواجة داود؟ ده انت واحشنا جدًّا والله العظيم. أنا عارف إني مقصّر في حقك، بس والله المشاغل زي ما انت خابر بقى» وقهقهه لبرهة ثم أضاف بصوته الحاد الذي لا يتناسب مع عملته:

- «في الحقيقة طلعت مقلب الشغلانة دى، أصل دي أول مرة في حياتي أبقي رئيس جمهورية! هاها. المهم تشرب إيه بقى يا داود؟»..

وقهقه جمال ثانية، فأضفى مزاحه معه مرحًا وبساطة على المكان، وشعر داود سريعًا بموجة من الاسترخاء تجتاحه، فمدَّ يده وخلع الطربوش ووضعه على المنضدة أمامه وتمتم متلعثًا:

- «مافيش داعي لأي حاجة سيادتك، بس لو كان ممكن يعني، ولو ما فيهاش تعب، يبقى فنجان قهوة مضبوط» فقهقه جمال ثانية معلقًا:

- «يا راجل يعني (جيت في جمل؟)، ده أنا كنت فاكرك هاتقول لي (كابوتشينو) ولّا حاجة صعبة قوي يعني وانت بتتلجلج كده..» ومازال يضحك حين ضغط على زرار كهربي بجانبه، فدخل سفرجى نوبي معمم بعمّة بيضاء، يرتدي الزي الأزرق اللامع المزركش على صدريته بخيوط ذهبية، والمؤزر حول بطنه بقماش ذهبي أنيق، كالسفرجية في بهو فندق «سيسيل» بمحطة الرمل، فطلب منه جمال بأدب جم:

- «لو سمحت تعمل لنا اتنين قهوة مضبوط يا «عم بشير»، من البن المخصوص، مش من بتاع «محمود الجيار»، لحسن الراجل ده حبيينا، وشريب قهوة ها يفضحنا لو البن مش هو». فابتسم عم بشير وانحنى دون أن يتكلم ثم انصرف. ازدادت شجاعة داود بفعل ذلك الجو المرح الذي أضفاه جمال على مجلسهما، فتنحنح ثم قال:

- «والله يا ريس أنا جاي من إسكندرية عشان أطلب ثلاث حاجات من سيادتك» فقاطعه جمال:

- «ثلاثة مرّة واحدة! أولاً قبل ما تقول أي حاجة، ده يا سيدي بتاعك إنت. أخذناه لفة، وكان وش السعد علينا بصحيح، بس لازم دلوقت كل حاجة ترجع لأصحابها» قالها وهو يخلع الخاتم الفضي عن إصبعه، ومدّ يده وأعطاه لداود، الذي تلقّاه بفرحة وشوق اللقاء بعد الفرة.

- «في الحقيقة، أنا مش عارف أقول لك إيه يا ريس، في الواقع، أنا.. أنا..»
فقاطعه جمال ثانية:

- «إيه مالك يا داود؟ حقيقة إيه وواقع إيه؟ ما تتكلم يا راجل»

- «مانا جاي في الكلام أهو يا ريس. أنا في الواقع كنت جاي بخصوص الشيخ حسنين البصرى يا ريس»، فاكفهر وجه جمال وانتفض واقفًا، فبدأ كالعملاق أمامه، ثم مدّ يده في جيب قميصه وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، ونفث بالدخان في حين زمّ شفّتيه متأفّفًا من ذكر ذلك الاسم الذي كان قد توقع من داود أن يأتي به إن آجلاً أو عاجلاً، وإن كان يمني نفسه بالألا يذكره داود أبداً. ثم أردف ومازال يرقب حلقات الدخان تتصاعد نحو السقف، وكأنه يخاطب نفسه:

- «دول كلاب!..»

- «معلش يا ريس، ما هو مش كلهم برضه.. والشيخ حسنين..» فقاطعه

جمال للمرة الثالثة:

- «كلب برضه. كلهم كلاب. ولا بيراعوا لا شرف ولا دين. أنا يعملوا

فيّ..». وصمت قليلاً ثم عاد يقول: «أنا يا داود؟ بعد كل إلى عملناه علشان

مصر!» واستدار ناحيته ليستشف رده عن تساؤله.

- «أنا وياك يا ريس. وإسكندرية كلها وياك والله العظيم، والشيخ حسنين

برضه أكيد وياك. ما هو مش ممكن يعني أنه كانت هاتوصل بيه..» فقاطعه

جمال لاحقاً زلّة لسانه على الفور:

- «بتقول إيه؟ يعني انت لسه مش عارف لو توصل بيه ولا ماتوصلش؟

إذا كان مشترك في الموضوع ده ولا لأ؟. وكمان جايلي من غير ما تكون مالي

إيدك منه؟ إنت آخر مرة كلمت الشيخ حسنين من إمتى يا داود؟»

- «والله يا ريس من مدة. أصل الشيخ حسنين راجل طيّب. زي ما

سيادتك عارف طبعاً، وإنت برضه سيد العارفين، وبعدين كل ما حد بيقول

له كلمتين بيقوم على طول مصدقه زيّ العيال الصغيرين، بس هو غلبان يا

ريس، غلبان والله العظيم، مخه على قده ووراه كوم لحم. وبعدين يا ريس ده

راجل مناضل قديم وعلى يدك. يعني شوية البهذلة والحبس اللى شافهم دول

كفاية قوي عليه، هايبقوا درس له مش راح ينساه طول عمره، وعلى ضمانتي

أنا يا ريس.»

ولم يشأ داود أن يقترب من جرحه الغائر الذي سببته له كلمات الشيخ
حسنين، منذ عام تقريباً، حين ردد تلك الأقوال إلى مسمعه دون أن يفكر
في مدى حقيقتها أو في وقع تأثيرها على نفس صديق عمره. بل وضحك
في نفسه وقهقهه، حين تفكر في أن ذلك الموقف الذي هو فيه الآن هو أكبر
دليل على مصريته الصميمة! إذ إنه لا يمكن أن يوجد مواطن في أي بلد،
ذو أي إنتهاء آخر في الدنيا، بمقدوره أن يفعل ما يفعله هو الآن، إلا لو كان
مصرياً ابن مصري!! فهذا هو يتقابل مع رئيس الدولة ليرجوه أن يفرج عن
شخص متهم بمحاولة قتله، نعم قتل ذلك الرئيس شخصياً، ويفرج عنه على
مسئوليته هو، وكل ذلك بعد أن اتهمه هذا الشخص نفسه من قبل بالخيانة،
والعمالة، ونفى عنه انتماؤه لبلده، وقطع عنه لقمة العيش، ناهيك عن تلك
العاطفة الوليدة التي نشأت في قلبه تجاه «قمر»، زوجته!! لا والله لم يكن
ليفعل كل ذلك إلا مصري أصيل!! معتوه!! مثله تماماً!! وانتبه على صوت
الرئيس يقول في حزم:

- «خلاص يا خواجه داود، بس خلليني أفكر في المسألة دي» قال جمال
وهو ينوى أن يغلق الباب وراء ذلك الموضوع المثير لغضبه، ولكن داود
أجابه مستدرجاً:

- «على راحتك يا ريس، بس أنا قاعد في القاهرة لغاية ما يصدر الأمر بالإفراج عن الشيخ حسنين، ومانيش راجع إسكندرية إلا وإيدي ف إيده. مانت عارف يا ريس مش هاقدر أحط عيني ف عين مراته إالي وعدتها مارجع إلا لو رجعت معاه..»

- «إنت بتلوي دراعي يا داود؟»..

- «أعوذ بالله يا ريس، أنا أقدر؟ والله العظيم ما قدامي أعمل غير كده». وساد صمت لبرهة ثم قال جمال:

- «خلاص يا سيدي يبقى هايطلع النهارده. مبسوط؟»..

- «كتر خيرك يا ريس! كتر خيرك!». وندت عن داود نظرة امتنان دفعت بجمال أن يخطو نحوه ثم يربت على كتفه محيياً إياه على موقفه من صديقه. موقفه من صديقه! كان الألم قد بدأ يعصر ضمير داود إزاء تلك المشاعر المتأججة التي بدأ يُكنها لقمر زوجة صديقه، فتعهد لنفسه أن يبتز تلك الأحاسيس ويطرحها عنه وألا يعود أبداً فيفكر في مثل تلك الأفكار. وهنا نددت عن جمال رغبة في أن ينهى اللقاء مما دفع بداود أن يبادره للمرة الأخيرة وهو يستعد للانصراف:

- «كان فيه موضوع أخير يا ريس». وصمت برهة وجمال يتطلع إليه متسائلاً وقد سارا متجاورين ناحية باب الغرفة..

- «خير يا خواجه داود، فيه إيه تانى؟»

- «أنا نفسي نشوفو عبد الناصر أفندي ونقعدو ويّاه» فضحك جمال ضحكته المتوترة، وقد زايله الخوف من أن يمتد طلب داود لأبعد من ذلك وقال:

- «طب وماله يا داود، دي بسيطة جداً، ماهو الوالد عندكو في إسكندرية، إبقى روح زوره، ده أكيد هايكون مبسوط جداً لما هاشوفك. أنا بس إالي مضيق عليه دنيته، علشان أريح أنا دماغي، مش عاوز كلام كده ولا كده من أى مخلوق، وانت عارف العيون علينا اليومين دول. آدي العنوان أهه».

توقف عند المكتب المزدهم بالأوراق، ثم طوى أقصوصة صغيرة دَوّن فوقها عنوان عبد الناصر أفندي وأعطاه إياه، وخرج داود من عنده، وفي غضون ساعات قليلة كان جالساً يعبث بالخاتم الفضي الذى أحكم وضعه حول إصبعه. ولم يجد ما يقوله للشيخ، الجالس بجانبه لا يبادل له كلمة ولا حتى نظرة، فانسابت به الخواطر وأحلام اليقظة تطوف به بشتى الأماكن، إلا مكان واحد أصراً ألا يتطرق إليه، وخطوة أبى بإصرار ألا يخطو نحوها أو حتى يقترب منها ولو قليلاً. وبجواره قبع الشيخ حسنين يترجرج صامتاً بمجلسه في القطار العائد بهما إلى الإسكندرية.

الفصل الثامن

أخرج الشيخ حسنين بصعوبة مفتاح الشقة من جيب عباءته وهدوء أداره وفتح الباب ودخل متعمداً ألا يُصدر أصواتاً قد توقظ مَنْ بالبيت. من شدة البرد والخوف الذي اجتاحه، كانت أطرافه ترتعش، ومؤخرة رأسه ورقبته تؤلمانه من كثرة ما تَلَفَّت خلفه بطول الطريق المظلم وحتى وصل إلى مدخل البيت. عاود اللقاء بالإخوان فور رجوعه من المعتقل، وكانوا قد استقبلوه كما يحق للأبطال، مما زاد حماسه إلى أن يكمل الطريق الذي كان قد بدأه. ولم يؤثر سعي الخواجة داود بل ونجاحه في الإفراج عنه على إعادة الحياة لصداقتهم التي كانت قد احتضرت فعلاً وماتت منذ لقائهما عند البحر منذ أكثر من عام. كان قد انتهى لتوه من لقاء امتد لساعتين مع الشيخ فودة - الذي نجا من مهانة الاعتقال وعواقبه، لسبب قرابته من أحد الضباط الأحرار - ومع مجموعة من الرجال النشطين في الجماعة، يتباحثون سرّاً في مصير بقية الزملاء المحبوسين بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال جمال عبد الناصر، العقبة التي كانت وما تزال تقف بينهم وبين كرسى الحكم. كان الخوف لا يزال يتربص بهم، والرغبة في الاستئثار بالسلطة لا تزال تدفعهم، فتلاقوا في أحد

مخازن الحاج «سيد الدمنهوري» تاجر المانيفاتورة. تجمعوا بعد صلاة العشاء بمسجد الشبراويشي، ثم تفرقوا بعد أن اتفقوا على اللقاء هناك، فتسللوا الواحد بعد الآخر من الباب الجانبي إلى القاعة المظلمة، وعلى ضوء عيدان الكبريت شقَّ كل منهم طريقه إلى غرفة بداخل المخزن لا نافذة لها، افترشوا أرضيتها فوق كليم سميك غطى بلاطاتها الرطبة تحت ضياء مصباح غازي علق إلى أحد الحوائط. دار الكلام بينهم واحتدت المناقشة أحيانًا ولكن اتفق الرجال بعد طول التشاور على ألا يتلاقوا من بعد الليلة ولمدة ستة أشهر وحتى تهدأ الأمور تمامًا ثم يعاودوا نشاطهم. ولكن الشيخ حسنين كان من المعارضين للفكرة إذ كان قد راق له العمل السياسي السري، منذ أن اضطلع به مع داود من قبل قيام الثورة. إلا أنه أرغم على الموافقة في النهاية، حيث لم يشاركه المعارضة سوى الأستاذ «محمد البوري» مدرس اللغة العربية وخريج مدرسة دار العلوم، والذي كان محبذًا مثله لفكرة استكمال الجهاد، من منطلق ديني بحث إذ آمن بأحقية الولاية الدينية في الوصول لكرسي الحكم، وحتى يسقط حكم الضباط المدني، وتستقيم أمور الحكم في أيدي جماعة الإخوان، والذي كان يعلم يقينًا بأنه لم يزل يؤيد منهجها السياسي بعض الضباط من داخل السلطة الحاكمة، وحتى بعد سقوط قائدهم اللواء محمد نجيب، الذي كان قد نما إليه أنه كان من أشد المتحمسين للحركة الإسلامية السياسية.

وهكذا كان الشيخ حسنين على مدى الأيام حين يتحمس لفكرة ما،

كانت تستهويه تمامًا بل وتسيطر كلية على كل أفكاره وأفعاله، مثل ما كان قد دفعه إعجابه بالشيخ «محمد عبده» الذي سمع عن سيرته من قبل وهو في عز الشباب إلى الالتحاق بجامعة الأزهر، وإن لم يستطع - كعادته أيضًا - أن يُتِمَّ دراسته بها لانشغاله وقتها بتدبير أمور حياته مع زوجته الأولى «زينب شربات»، فتاة الليل التي كان قد تعرف عليها في أعطاف شارع كلوت بك أثناء إقامته بالقاهرة وصَمَّم أن يقترن بها لينتشلها - في غمرة حماسه وقتها - من أحضان الرذيلة. ثم طلقها في غضون عام - بالطبع - من بعد أن أنجبت له بكره «محمد» الذي لا يعرف عنه اليوم شيئًا..

وبهدوء أيضًا دلف إلى حجرة النوم وكانت «قمر» نائمة وقد استدارت عند طرف السرير البعيد بمواجهة الحائط وراحت تغط في نوم عميق. بدَّل الشيخ حسنين ثيابه متعجلًا إذ انسابت الرطوبة بداخل المنزل الحجري القديم إلى كل شبر في جسده، مع كل قطعة ملابس كان ينضوها عنه، وبسرعة وضع الجلباب الصوف فوقه، وفرك كفيه نافخًا فيها هامسًا وأسنانه تصطك ببعضها:

- «أعوذ بالله! إيه البرد ده يا خويا؟ أمشير جاي السنة دي جامد ليه كده؟ رحمتك يا رب!»، ثم رفع الأغشية عند حافة السرير وانزلق تحتها متلمسًا دفء امرأته التي برزت مؤخرتها ناحيته. وفي خلال دقائق معدودات كانت

أطرافه قد تسخنت فتسللت يده من تحت جلابية قمر وجذبها إليه دافعاً
برجولته داخلها، وأما هي فشهمت من وقع فعلته تلك التى أفاقتها من
نومها لبرهة، وفي لحظات كان قد قد أفرغ شحنة انفعاله المجتاحة، فاستدار
على ظهره ونظر نحو السقف برهة علا بعدها شخير، ومسحت قمر نفسها
بملابسها الداخلية، ثم غابت ثانية في نومها العميق.

أفاقت على صوت بكاء «لطفى» ابنها، الذي كان قد بال على فراشه كعادته
وقبع في سخونة فرشته اللاهبة ينتحب. رفعت الغطاء من عليها، وجلست
دقيقة وهي موزعة الفكر ما بين شخير زوجها النائم بجانبها، وصراخ طفلها
وما يستدعيه منها من انتزاعه من فراشه ومن ملابسه ثم غسلها لجسمه المبلل
فوق حوض الحمام، مع ازدياد وتيرة نحيبه التي تتوقعها. ثم إشعال وابور
الجاز وإعداد الفطور، ثم بقية أعمال البيت من غلي صفيحة المياه فوق الوابور
حتى يتسنى لها بعد ذلك أن تقبع فوق الطشت في الحمام لتغسل ملاءات
الأسرة المتسخة، والغيارات الداخلية، ثم تنشرهم أمام الشرفة قبل أن تنكسر
شمس الصباح خلف المنزل فلا يجفّ الغسيل.

تلك الأفكار العادية التي كانت تبدأها يومها، وكل أيامها إلى اليوم الذي
خرجت فيه لتستحم في مياه البحر قبل أن تستيقظ عيون الفجر كما كانت
تفعل دائماً، ولكنها عند ذلك الفجر بالذات سمعت صوت العود والغناء

الشجى قادماً من ناحية الكبائن، وبنظرة خاطفة أبصرت ظل شخصٍ قابِعٍ في الظلام، فتنبّهت لتوها أولاً لإمكانية أن يكون لأحد السكارى أو المجرمين وقد اختبأ هنا بعيداً عن عيون دوريات الشرطة الليلية، ثم استمر الصوت يشدو بدفءٍ آسرٍ أزال كل وجلٍ من قلبها ربما لإحساس انتابها بنوعٍ من الألفة أو سابق المعرفة بصاحبه. ويا للغرابة! فقد استمرت فيما كانت تعتزم أن تفعله دائماً وحتى من قبل أن تتزوج من الشيخ حسنين، دون أن يثير وجود طيف الرجل الغريب خوفها، أو يثنيها عن أن تستمتع بمياه البحر تغسل جسدها من عناءات الحياة، بل وبسبب وجوده قابِعاً هناك - وربما لإحساس خفيٍّ بأن يكون هذا الرجل هو داود عبد الملك الذي كانت قد استمعت لشدوه بشرفة منزلهم من قبل - استمدت شعوراً بالاطمئنان إلى أنه جلس هناك ليحميها من شرِّ المتطفلين، وملاًها هذا الإحساس بمراقبته لها بنشوة لم تعهدها من قبل، فاستمتعت بحمايتها في ذلك الفجر أكثر مما استمتعت في أي وقت مضى! نفس الشعور الذي اجتاحتها ودغدغ قلبها من جراء نظراته، لما خرجت مع الخواجة داود لتبحث عن زوجها المعتقل. لا تدري حتى الآن ما حدث لها في ذلك اليوم، وإن باتت موقنة بأن حياتها لم تعد هي نفسها من بعد ذلك اليوم، من بعد طاقة الوله والحنان التي انفتحت فرأتها في عينيه وهو يسألها عن اسمها، وتلك الحرارة المشعة من جسده وأنفاسه الحارقة وهو

واقف بجانبها تحت العتبة المسقوفة والبرد وسقيع الرياح يتلاشيان تحت نير وجوده بجوارها، وما فعلته بها لمسة كفه فوق شفتيها ليمنعها من الصراخ في مواجهة الباشا في ذلك اليوم. لم تشعر بموجة الأنوثة تجتاحها هكذا فتشملها من قمة رأسها وإلى طرفي قدميها، إلا مرة واحدة من قبل، منذ اليوم التالي لليلة دخلتها على الشيخ حسنين، وكان قد أفاق من غيبة الحشيش التي اعتمدت برأسه في الليلة السابقة، فلم يميز جمالها وأنوثتها على حقيقته إلا في ذلك الصباح، حين نظر إليها وقد لمعت عيناه كالبرق ولسان حاله أن يلتهمها التهاماً ثم مارس معها «الحب» لأول مرة وهو مفتون بها، ذلك الذي لم يتكرر معها أبداً وحتى رأت تلك النظرة مجدداً في عيون الخواجة داود، عند ذلك اليوم!!..



كان داود فرحاً وهو يرتقي سلالم الدرج المؤدي إلى شقة «عبد الناصر أفندى» بالطابق الثاني وقد احتضن عوده في يده، بالإضافة إلى لفة الكتفة المشوية المعلقة بين أصابعه بالشريط المربوطة به، وفي اليد الأخرى حمل زجاجتي البيرة الـ «ستلا» المثلجة القابعة في الكيس الورقي، التي اشتاق فعلاً لأن يتجرعها بصحبة صديقه القديم، وبصعوبة ضغط جرس الباب، ممناً نفسه بأمسية ربيعية بهيجة يستعيدان خلالها ذكرياتها معاً. واستقبله عبد الناصر أفندى بهجة ولهفة وحمل عنه بعض اللفافات ووضعها على منضدة

الطعام التي توسطت بهو الاستقبال، وبحضن رائق التقطته ذراعاه، وبقبلتين على كل خد تلاقى الصديقان القديمان. فوجى داود بمظاهر الشيخوخة التي كانت قد اعتلت ملامحه فأدرك كم السنين التي كانت لا بد قد مرت منذ أن رآه عند آخر لقاء بينهما، وأيقن في ذات الوقت حتمية التغير الذي لا بد أنه كان قد ألمَّ به أيضاً، وإن كان قد تصبر بكون عبد الناصر أفندي يكبره بأكثر من عشرة أعوام. وبين قضمات الكفتة ورشقات البيرة، وإن تمنع عنها بكل أدب عبد الناصر أفندي حرصاً منه على ألا يجرح مشاعره، وكلمات الأعبة تستحضر الأيام والليالي والذكريات التي كانت قد جمعت فيما بينهما، غنى داود للست:

جددت حبك ليه بعد الفؤاد مارتاح
حرام عليك خليه غافل عن اللي راح
ده المهجر وانت قريب مني كان ليه أمل في وصالك يوم
لكن بعادك ده عني خَلَّى الفؤاد منك محروم

قال له عبد الناصر أفندي ليلتها أن ابنه جمال كان قد اتصل به تليفونياً قبل أيام وحكى عن زيارة داود له، وعلق يومها قائلاً إنه كان يكن له الكثير من الود والاحترام، وتأثر داود جداً عند سماعه هذه الكلمات عن شعور رئيس الجمهورية تجاهه وشعر بالفخر..

عند منتصف اليوم، وبينما كانت مشغولة كعادتها بمباشرة شئون البيت، فوجئت «قمر» بشخص يطرق بابهم، فهرعت لتوقظ زوجها الذى كان ما يزال يغطُّ فى نومه، بينما جرى الطفل لطفى كعادته ليفتح الباب، ثم يقف أمامه ينظر إلى الطارق دون أن ينبس بكلمة، إذ كان متأخرًا في الكلام عن باقي أقرانه. هَبَّ الشيخ وهو يفرك عينيه متثائبًا وينادي للطفى من غرفة النوم:

- «مين يا وله يا لطفى؟» وهو يعلم جيدًا بأن لطفى لا يتكلم، ولكنها وسيلة كان يارسها الشيخ حسنين لبيتاع بواسطتها دقائق تتيح له أن يغيّر ملابس النوم، بالجلابية والعممة التى لا يواجه أي غريب إلا بهما، بينما توارت قمر بغرفة النوم حسب التعليمات الجديدة وحتى يتفحص زوجها شخص الطارق، فيتبين من كونه «محللاً» له أن ينظر - نعم مجرد أن ينظر - إلى زوجته أم لا. وكانت قمر قد بدأت تضيق من تلك القيود الجديدة التى أضافت لصعوبة الحياة صعوبة، ولجفاف أيامها جفافاً. لضيق ذات اليد من ناحية، ولذلك الحبس الانفرادى الذى حُكم به عليها دون أن ترتكب من ناحيتها أي ذنب لتستحقه، فلم يسمح لها بمغادرة المنزل إلا للضرورة القصوى. ولمعاشرتها لرجل يكبرها بنحو ثلاثين عامًا من ناحية أخرى، فضلاً عن كون هؤلاء المحرمين عليها رؤيتهم، من أهل حيّها أو من جيرانها أو عم سعيد البواب، من الرجال الذين كانت قد اعتادت رؤيتهم لها طوال سنين

زواجها، وحتى قبل ذلك بحكم الجيرة، ومن دون أن يبدر منهم - أو منها - ما يثير ظنون الشيخ نحوهم أو نحوها.

ومن وراء الباب سمعت قمر صوت الشيخ يدعو الغريب للدخول إلى غرفة الجلوس وقد بدت من نبرات صوته التلعثم وكأنه فوجئ أو جزع لمجيئه، أو كأنه شخص غير مرغوب في قدومه للبيت. أثار ذلك فضولها فواربت الباب قليلاً لتحاول أن تتعرف على شخصية ذلك الضيف من قبل أن يتوارى مع زوجها خلف باب الغرفة الموصد خلفها. كان رجلاً غريباً لم تشاهده من قبل، في منتصف الأربعين، طويل القامة بشكل ملحوظ، عريض الكتفين وإن كان يميل للنحافة، أسمر البشرة تلوح على وجهه أمارات الجدة بل والكآبة، ازدادت بفعل النظارة الطبية السمكية بإطارها الأسود واللحية الداكنة التي كانت تزيد بشرته اسمراراً. وكان يرتدي بدلة رمادية متهاكة وحذاءً جلدياً متسخاً بتراب الطريق، ترك وراءه ومع كل خطوة يخطوها علامة قدرة على البلاط اللامع الذي كانت تعتني بنظافته وتباهى أمام جاراتها ببريقه، فكان ذلك - بالإضافة إلى - حبستها الجبرية خلف باب غرفتها - سبباً لاشمئزازها منه ومن زيارته للشيخ حسنين - زوجها - في وسط النهار هكذا. ووجدت قمر نفسها تقارن بين ذلك الغريب وكآبته، وبين الخواجة داود وأناقته ومشيته المعتدة التي تعودتها حين كان يزورها، وتلك الرائحة العطرة التي تفوح منه عند مروره بالردهة الموصلة ما بين باب

الشقة وحجرة الجلوس والتي تبقى بالمنزل ولا تبرحه حتى بعد أن يغادره مع الشيخ كما كانت عاداتهما، فسرحت هي مع أفكارها وقد غلبها الفضول عن سبب غياب داود عن منزلهم كل تلك الفترة ومنذ أن رجع الشيخ حسنين من المعتقل، وإن لم تجرؤ على مبادرة زوجها بتساؤلاتها تلك تجنبًا لاستثارته تجاهها، أو تجاهه.

أغلقت الباب واستدارت نحو السرير وسحبت الغطاء ونفضته، ثم أعادته مفروشًا ممدودا فوق الملاءة وهى تتغنى:

هاقابلة بكره

وبعد بكره

وبعد بعده

هاقابلة هاقابلة هاقابلة بكره

وخلف الباب الموصد بكل إحكام، كانت الكلمات تروح وتجيء هامسة بين الرجلين، الأستاذ محمد البوري والشيخ حسنين، همس ولكنه كالصراخ، نار تتأجج بها أحاديثهما. أن ينبغي أن تعود وترفرف راية الإسلام عالية، وحكم الله أولى من حكم الناس أيًا كان هؤلاء الناس، فالإخوان هم من

أنجح الثورة أولاً وآخرًا، وهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، ولن يكفوا عن السعي لاسترداد حقهم المغتصب من حفنة الضباط تلك، الذين خانوا العهد بمجرد أن تحسست مؤخراتهم كراسى السُلطة!. كلمات حادة ومقتضبة وكأنها حفنة من مسامير يقبضان بها ويتبادلانها من كف إلى كف، ويتلذذان بالآلام قبضاتهما عليها، ويهون الألم في سبيل الهدف الأسمى.

تبدو الإسكندرية هذه الأيام كأجمل ما تكون في عينيهِ، وقد تزينت بشعرها الذهبيّ الممتد من حبات الرمال المتناثرة على الشاطئ وإلى عنان السماء تتجمع خصلاته وتتعانق حتى تصير قرصًا ذهبيًا يملأ الدنيا بنوره. أه! ما أجمل الحياة!!..

وتوطدت علاقة داود بدولة «بنيتي باشا» من بعد عودته من زيارة القاهرة، حيث كان قد ذهب خصيصًا إلى قصره ليشكره على مساعدته إياه في مهمته في البحث عن الشيخ حسنين في أحد الأيام التالية لرجوعه، فما كان من الباشا إلا أن استقبله استقبال الفاتحين، لما تنامي إليه خبر زيارته لجمال عبد الناصر بكل تفاصيلها، من أول فنجان القهوة ذي البن المخصوص وحتى عودته مظفرًا عند آخر النهار بصديقه «الإخوانجي»، سمعها بنفسه من صديق مقرب لمجلس قيادة الثورة.

وقد استغرب داود طريقة تعامل الباشا معه إلى أن سأله عن مدى صلابة علاقته بجمال عبد الناصر، بل وإفصاحه - مباشرة ومن دون التواء - عن رغبته في شراكته في أعماله التجارية والصناعية المهولة! ليكون واجهة قوية له ودرءاً يحمي ثروته الطائلة من بطش رجالات الثورة، الذين كانوا قد بدءوا في مصادرة أموال الأغنياء وخصوصاً اليهود منهم، مما أدى إلى هرب البعض منهم إلى خارج البلاد. وفعلاً في غضون شهور قلائل، ذات صباح وبينما هو جالسٌ في البلكونة محتضناً لآلة العود يدندن لحنًا للشيخ «زكريا أحمد» ويحتسي كوب شاي الصباح، فوجئ داود ببنيوتي باشا يبعث إليه بسكرتيره الشخصي وبسيارته الباكار السوداء التي سدت الطريق أسفل العمارة المتواضعة بمحرم بك، وقد أطل هو من فوق السور ليتطلع باحثاً في فضول عن مصدر الجلبة التي ملأت الشارع. وفي خلال لحظات كان السائق يطرق باب شقتهم ليطلب منه أن يصطحبه لمقابلة الباشا في مكتبه الخاص بمحطة الرمل..

تتشابه الأيام المارقة بسرعة الجنون بحياتها.

تجلس إيلين أمام صينية الكوسة تقشر ثمارها في وسط الصالة التي تتوسطها مائدة السفرة المستديرة وقد التفت من حولها الكراسي الخاوية من كل ناحية. لقد اندفع داود خارجاً في عجلة من أمره بصحبة ذلك الرجل

الغريب الذي ارتدى زياً هو مزيج ما بين ضابط البوليس وعامل المصعد بمحلات شيكوريل، بينما لم تفهم هي لماذا، وفي الحقيقة لم تعد تكثرث على الإطلاق، ومنذ فترة لا تدري حتى طولها، لم تعد تأبه لدخوله أو خروجه، لا هو ولا غيره، بل ولا «ليلي» بنت المرحومة بدور، ولا حتى «سليمان» و«منى» - أبنائها هي - ففكرتهم يروحون ويحيئون كما يحلو لهم، بل وصارت تطلب منهم أن يدعوا باب الشقة مفتوحاً، حتى لا تتكلف مشقة أن تترك ما هي مشغولة به، لتفتحه لهم عند رجوعهم مما كانوا منصرفين في شأنه، أيًا كان هذا الشأن. لم تكن تشك في براءة تصرفاتهم - لا سمح الله - فقد كانوا أطفالاً على أى حال، لا يمكن أن تتخيل أن تشوب أفعالهم ما يمكن أن يصل إلى حد غير مقبول عندها أو عند جيرانهم من أهل الحي. ولكنها مع ذلك كانت مصابة بداء اللامبالاة التي ارتطمت بسطوته العاتية منذ أن رحل عنهم صغيرها «مكارى». تبدلت مشاعرها من بعدها تجاه الجميع - بل وحتى حيال نفسها - فلم تعد تجد حولها ما يسعدها، أو حتى يقترب ولو قليلاً من ذلك الجدار الرمادي الذي أحاطت به حياتها، فاستسلمت لواقع تمضي أيامها بداخله متشابهة، تتأرجح خلاله مشاعرها بين الحزن والاحزن، ولكن على أى حال لم تجرؤ بشائر الفرح من أن تقترب منها ولو قليلاً. انطفأت جذوة الفرح في أعماق روحها، وجعلت الطعام الاستثناء الوحيد، ففيه وجدت لذتها وإن لم تطل محاولاتها الدءوبة في الاستزادة منه

على أي حال شبع نفسها. ولكنها عكفت على معاقرة بتصميم متفenne في صنوفه وأشكاله بكل مقدرتها - المهارية والمادية على السواء - لعلها تشبع أو تلتذذ دون جدوى، وكأن ثمة فراغاً بداخلها تحاول أن تملأه بحشر كل صنوف الأطعمة به دون طائل. وكما هو متوقع طبعاً، فقد انعكس ذلك النهم المستعر على قوامها فكانت طبقات الدهن تتكالب فوق جسدها تباعاً، فصارت سيدة سمينة لأول مرة في حياتها في غضون عام أو أكثر قليلاً، وإن لم تبلغ بالطبع شبعها المنشود، ولا استعادت ولو جزءاً ضئيلاً من روحها المرححة التي كانت دوماً ما تشع بها. ومع ذلك فقد كانت الطبيعة قد حبتها بملاحة عوضت سمنتها هذه، بل وأضفت إليها جمالاً جديداً بمقاييس عصرها، فصارت إيلين هانم!..



الفصل التاسع

انتابت داود حالة التأمل التي كانت تشمله في مثل تلك اللحظات المصيرية، وهو جالس بالمقعد الخلفي للسيارة الفخمة خلف السائق الذي كان قد سارع ليفتح له بابها الخلفي، ببذلة السموكن السوداء بأزرارها الذهبية وقبعته ذات الحافة الجلدية اللامعة، مع أول إطلالة له عند بوابة المسكن، وسط زهول الجيران وأصحاب المحال المحيطة. كانت تلك أول باكار - لا بل أول سيارة ملاكي - تطأ عجلاتها شارعهم، فالتفت النسوة العائدات من التسوق من حولها بل وكادت إحداهن أن تطلق زغرودة كتمها الخجل عند طرف لسانها، وتوقفت حركة البيع والشراء، وكَفَّ الفتية عن ركل الكرة فيما بينهم، وتسمَّرت الفتيات فوق مربعات (الحَجَلَة) المرسومة بالطباشير على وجه الأسفلت، وتبادل هو وإياهم نظرات خجلة، وشاركهم الحيرة فيما يحدث له ولهم، بل وكاد يصيح معتذراً لهم عن ذلك الحدث الجليل الذي فاجأ حيَّهم وأعطب دوران عجلة يومهم. جلس وكعادته أخذ يعبث بالخاتم الفضي حول إصبعه، وهو ينظر جحافل البشر من حوله عبر زجاج النافذة

المصقول بينما اخترقت السيارة شارع فؤاد إلى طريق الكورنيش. لم يتغير شيء من حوله، قبل الثورة أو بعدها، لم تنزل الجموع الغفيرة تهرع إلى الإسكندرية لتمضي أشهر الصيف هاربة من قيط القاهرة ورطوبة جوها، بنفس الفرحة المنطلقة، ونفس التطلع للحياة الذي عهده دومًا في وجوه المصطافين، ونفس الأقدام الخافية تتبختر فوق الرصيف المطل على شاطئ البحر، ونفس النظرات اللاهية نحو الأفق الممتد في حين ينفلت طفل من قبضة أمه ثم يعدو بجنون غير مبالٍ نحو طابور السيارات المتدافع فوق طريق الكورنيش، ولا يقطع استرسال تلك الأحداث الرتيبة المتوالية إلا صفير مطاط عجلات السيارة فوق الأسفلت لتقف فجأة وفي آخر لحظة من قبل ما ترتطم برأس ذلك الطفل المارق، وتهلل أصوات جميع ذوي الأقدام العارية «الحمد لله. الحمد لله..»

ثم تأمل داود انعكاس صورة وجهه هو على زجاج نافذة السيارة، بينما تحولت صور الناس من وراء صورته إلى خيالات تمرق سريعة، فأعادته اللحظة ليتساءل إلى أين تقوده تلك الرحلة. ووجد نفسه يسرح في «قمر»، بوجهها المليح النضر وعينيها الخضراوين وشعرها الذهبي، ويخالها تشاركه ذلك المقعد الوثير بتلك السيارة الفارهة، وقد احتضن يدها المنمنمة بين كفيه، وهو يطوف بها شوارع الإسكندرية المزدهمة بالمارة، بينما تجلس هي بجانبه،

راضية مبتسمة فخورة بتميزها عن باقي الجموع المترجلة، المتناثرين على الجانب الآخر من زجاج السيارة. وتخرج داود لما فوجئ بأنه كان مستمتعاً بتلك الأفكار، حتى إنه لم يُلقِ بها عنه كما كان قد اعتاد كلما راودته في السابق، إلا أنه عزا ذلك إلى جفاء الشيخ حسنين المستمر له حتى بعد أن سعى في خروجه من المعتقل، فعذ ذلك - عن استحياء - أقل ما كان يمكن أن يفعله انتقاماً لما فعله به الشيخ حسنين!..

دخل داود إلى حجرة «بنوتي باشا» في الدور الرابع بالعمارة المواجهة لبحر الإسكندرية الغامق الزرقة، وكان الباشا جالساً بمقعده الجلدي النبيذي الوثير بجسده الضخم وشعره اللامع، خلف مكتبه الأبنوسي الفاره الطول والعرض، وقد ازداد احمرار وجهه المكتنز من تأثير الخمر، واتخذ رجل تبدو عليه مظاهر الرقي والأناقة المقعد المواجه للمكتب، وموسيقى غربية راقصة خافتة تهمس، وكان الرجلان يدخان سيجاراً كوبيّاً تعرف هو على رائحته الفواحة، بينما يتبادلان الضحكات - في وقار - حين دخل داود إلى الحجرة، فتلاعبت الرياح القادمة من الفراندة الملحقة بالغرفة بدخان السيجار، لما أدار مقبض الباب النحاسي اللامع البريق، فأضفت تراقصات أمواج الدخان أمام عينيه نوعاً من السيرالية، وكأنه يتقدم تباعاً، مقترّباً من شاشة العرض بسينما «الهمبرا» بشارع صفية زغلول أثناء عرض فيلم «كازابلانكا» - الذي كان قد

رآه بها لأكثر من عشرة مرات، بثلاثة قروش للتذكرة كان يحضر الفيلم لثلاث أو أربع مرات متتالية - وما يزال يقترب ويقترب منهما، إلى أن تعثر بطرف السجادة المطروحة على أرضية الغرفة الباركية، فانشى جذعه للأمام قليلاً وأوشك على السقوط، فوجد نفسه فجأة وقد أصبح فعلاً داخل المشهد، ولكنه لحق بنفسه معتدلاً قبل أن يقع على وجهه!! دلف داود أولاً متلعثماً منكمشاً على غير العادة، ولم يفهم سبب الغصة التي اعترته بالرغم من الروح المرحية التي كانت تلف المكان، ثم تبعه السكرتير الشخصي حاملاً حقيبة جلدية أنيقة مليئة بالأوراق، فتحتها ووضعها في مواجهة الرجل الغريب، ثم أشار لداود بانحناء صغيرة وبأدب جم ودون أن ينبس، بأن يأخذ المقعد المجاور في مواجهة كرسى الباشا..

- «تشرب إيه يا داود؟ ولا تحب تاخذ كونياك معانا؟» بدأ الباشا الجلسة بتلك المقدمة المتوقعة، فأوماً داود وهم بأن ينهض نصف نهضة وقد ثنى بجذعه للأمام نصف ثنية، وهو يربت بكفه الأيمن فوق صدره ممتناً، ليعلن للحاضرين فوراً وفي صمت عن ضعة حاله وضالته، طبعاً في مواجهة كرم الباشا الغامر الذي بدا وكأنه قد عقد لسانه. ولكن لم يعجب الباشا تصرف داود المنكسر هكذا أمام صديقه، وخاصة لما كان قد عرفه عنه من عزة نفس وقوة وبأس تليقان بما كان مزماً أن يتحدث به إليه لاحقاً، مما دفعه لأن يقول:

- «إيه يا داود مالك؟ إنت بعافية ولا إيه؟»

- «أبدأ يا دولة الباشا. مافيش!» أجاب داود مقتضبًا وقد طاف بنظراته متفحصًا أرجاء الغرفة الفخمة بحوائطها العالية ولوحاتها الفنية المذهبة الأطر تطل من عليائها إليه، ووجد نفسه يتساءل عما جاء به إلى هذا المكان. اعتدل الباشا في مجلسه مقررًا أن يبدأ حديث العمل على الفور مدركًا الطريق الذي قرر داود أن يطرقه فقال:

- «طيب مادام كده بقى، أنا أحب أقدمك للأستاذ (سينوت قرياقوس) المحامى المشهور ومدير أعمالى هنا فى مصر» ثم التفت الباشا ناحية الرجل الآخر وأسهب قائلاً:

- «الأستاذ داود يا سينوت، الرجل اللي شايفه سعادتك بيدّعي التواضع ده، وهو بقى يا سيدى نفس الرجل المهول إالى خلص موضوع الولد الإخوانجى إالى كنت حكيت لك عنه، فى رحلة صغيرة للراجل الكبير، أنهى خلالها سعادته كل المسائل ورجع وفي إيده صاحبه وكأن شيئًا لم يكن، آه والله زي ما باقول لك كده» قال قوله هذا وكان الأستاذ سينوت يوزع نظراته ما بين الباشا محدثه، وبين داود، فى لفتات متتابعة وهو يهز رأسه إعجابًا بقدرة داود..

- « أهلاً وسهلاً بحضرة الأستاذ » قالها على استحياء ثم مدَّ «سينوت قرياقوس» يده لتحية داود، في حين انتفض ذلك المحامى المرموق واقفاً إكباراً له بعد ما أدرك مقدار نفوذه الممتد لرأس البلد، ثم قال بنبرة توشي بالعظمة:

- «أهلاً بيك يا أستاذ داود، تشرفنا»

ورنّت كلمات «أستاذ» و«سعادته» و«الرجل المهول» في رأس داود تتخبط من ناحية إلى الناحية الأخرى، ومن أعلى لأسفل، رنّات متتابعة، متلاحقة ومتضخمة بفعل الصدى الذي خلفه ترددها بداخله، فانتفخ رأسه وكبر حتى كاد أن يملأ الغرفة. فلما لم يستطع بدوره أن يحمله منتصباً في مجلسه، غاص في كرسيه نائياً عنه بحمله الثقيل، ثم عقد ذراعيه فوق صدره، وتشابكت أصابع يديه أمامه، في انتظار أن تعبره تلك العاصفة من الكبر التي اجتاحت كيانه، وحتى يستطيع بعدها أن يتفوه بكلام مفهوم أمام الرجلين المرموقين الجالسين قبالة. وما إن جاءه الفراش بكأس الكونياك، حتى تجرّعه بسرعة، فسرى مفعوله بأطرافه منساباً كالماء يخترق جفاف الأرض العطشى، فانتعش!..

- «شوف يا داود، أنا هادخل في الموضوع على طول، لأنني أولاً راجل أعمال بتاع شغل وعارف قيمة الوقت إزاي، ولأني يا داود أولاً وأخيراً راجل

(يهودي). أيوه، يهودي وفاهم وعارف كمان معنى الكلمة دي كويس قوي، وأقدر أعتمد على أخويا (اليهودي) وأنا متأكد من وقفته جنبي..» وكان قد ضغط بقوة على كلمة (يهودي) هذه مرتين ثم رفع كأسه إلى شفثيه يرشف منها وهو يدير عينيه ما بين داود وسينوت، ثم أوماً للفراش بإصبعه أن يملأ كأس داود من جديد، ثم أضاف:

- «أنا قررت استدعي الأستاذ سينوت النهارده، علشان عاوز أنقل ملكية مصنع الحديد في الدخيلة لاسمك يا داود». ثم صمت وهو يتابع رد فعل كلماته على وجهي الرجلين. اعتدل الأستاذ سينوت في كرسيه وهو يضم طرف سترته إليه ثم مسح يده فوق رباط عنقه الحريري منتظرًا تعقيب داود..

- «طيب ممكن أعرف ليه يا دولة الباشا؟» سأل داود وقد عاوده الارتباك والتلعثم من جديد..

- «إنت مش عايش في البلد ولا إيه يا داود؟ ما هو أنا لو ما كتبتش المصنع ده باسمك النهارده، هایلطفوه أصحابك في مصر بكره ولا بعده، وإنت برضه مننا وعلينا، وحتى لو سرقطني. حتى لو عملتها يا داود يا خويا، فالفلوس والشغل برضه لسه بتاعنا إحنا، وهيفضل بيننا وبين إيدين ولادنا من بعدنا. ولا إيه يا سينوت؟»

لم يرد الأستاذ سينوت طبعًا، فهو مدرك تمامًا أن معالي الباشا لم يطلب مجيئه ليأخذ رأيه أو يستشيريه في الأمر، فحضوره كان لتنفيذ القرار الذي كان الباشا مزعمًا اتخذه، أيًا كان ذلك القرار. أملت عليه خبرته الطويلة في التعامل مع بنيوتي باشا أن يصمت تمامًا حتى لو طلب منه الكلام، بل وأحيانًا - وبالذات - عندما يطلب منه الإدلاء برأيه. ولكن ذلك لم يمنعه من التساؤل - بينه وبين نفسه - لو كان ذلك التصرف هو الأفضل من جهة الباشا حيال مصنع يساوي أكثر من مائة ألف جنيه مصري، أي حوالي ربع مليون دولار أمريكي وأكثر! رسم ابتسامة عملية فوق وجهه وتشاغل سينوت عن الإجابة بإخراج الأوراق والمستندات المطلوبة من داخل الحقيبة الجلدية الموضوععة على المنضدة أمامه، أما داود فلم يطق أن ينتظر أكثر فقال:

- «لكن يا سعادة الباشا أنا ما بافهمش أى حاجة في المصانع ولا في الحديد، أنا راجل فنان أعزف موسيقى وأغني، وصوتي جميل ما فيش كده، بس الحديد، والصناعة، أكذب عليك؟ ما عرفش!!..»

- «اسمع يا داود لكلامي ده كويس، أنا عايز أنقل ملكية المصنع ده ليك في أقرب وقت، علشان أنقذه من الضياع، مش علشان أضيعه!! في إيدين الأوباش دول هايروح! فاهم؟؟. المصنع شغال عال العال وفيه إيلي بيديره ويمشييه زي الساعة مئات ومئات، كل الحكاية إنه لو فضل باسمى أو باسم حدّ من ولادي هايروح، لكن معاك ممكن يبقى. فاهم؟؟»

سرى مفعول الكأس الثانية بجسم وعقل داود فاسترخى في مقعده، واعتلت وجهه ابتسامة لا تحمل في طياتها فرحة أو بهجة، فقط استسلام وقناعة بأن الأمر لم يعد بيده، فالقرار كان قد سبق واتخذ الباشا حتى من قبل مجيئه، فأذعن هو للأمر الواقع وابتسم ممتناً للقدر وهو يعطيه المال والجاء والشهرة، من دون حساب، ومن دون أن يسعى هو لذلك الجاه أو المال يوماً. وأخذ يعث بالخاتم الفضي المحيط بخنصره، بين لحظات انحناءاته على المنضدة أمامه يوقع بإمضائه حيث يشير إليه الأستاذ سينوت، وتلك الابتسامة لم تزل قابضة فوق شفثيه تأبى أن تفارقه..

كان داود جالساً في البلكونة يحتمي كوب الشاي مع السجارة بعد أن أفاق من قيلولته منذ قليل حين طرق باب الشقة.. لم يكن قد أفاق بعد من صدمة ما حدث له في غضون الأسابيع الأخيرة، بل وكان يتساءل عن معنى كل ذلك، دون أن يجد إجابة شافية. لقد تحول فجأة ومن دون أي أسباب منطقية من مجرد عود ومطرب، حتى وإن كان ملك ملوك الطرب، إلى ملك حقيقي يمتلك المال والسطوة معاً. وبين أفكاره تكررت الطرقات الملهة على الباب فعاد إلى الواقع على وقعها. منْ يا ترى؟ وإيلين والأولاد ليسوا هنا..

لم يكن قد مضى أسبوع على انتقال ملكية المصنع إليه حتى فوجئ داود بسكرتير «بنوتي باشا» يأتيه مسرعاً ليخبره بأن معالي الباشا كان يطلبه على وجه السرعة إذ كان قد اعتزم السفر إلى خارج البلاد. وفي القصر قابله الباشا متعجلاً وكان الخدم وأهل البيت يهرولون جميعاً صاعدين وهابطين السلام الرخامية في حركة دءوبة وكأنهم في سباق مع الزمن. قال له معالي الباشا:

- «خلاص يا داود. أصحابك اشتروا السلاح من عند الشيوعيين، وإسرائيل والغرب طبعاً مش راح يسكتوا. خلاص أيا منا هنا خلصت، ما عادتش مسألة غني وفقير، كل حاجة خلاص اتغيرت، كل شيء راح يا داود، واحنا لازم نمشي من هنا بأسرع وقت».

وعرض الباشا في عجلة على داود أن يشتري منه القصر بما فيه في الحال بمبلغ عشرة آلاف جنيه عدداً ونقداً، وإن كان عليه لو وافق أن يأتيه بالمبلغ المطلوب على الفور من خزانة مصنعه الجديد في خلال ساعة واحدة حيث كان سيُبحر على متن سفينة مغادرة لميناء الإسكندرية في غضون ساعات قلائل. وفعلاً طار داود بسيارة الباشا للدخيلة، وقابل رئيس الحسابات بالمصنع وطلب المبلغ، إلا أن رئيس الحسابات الذي استقبله بكل حفاوة، اعتذر بأنه كان قد سبق وأودع الإيرادات للبنك، ولم يكن بالخزينة سوى ثلاثة آلاف جنيه، كان قد أبقاها لمرتبات العمال في اليوم التالي، أعطاه إياها

على أن يحضر مثلها بالإضافة لباقي المبلغ ويرسله إليه في الغد عندما يفتح البنك أبوابه من جديد. ولما عاد داود إلى القصر وأعاد كلمات الرجل للبasha، فوجئ بأنه أخذ المبلغ ووقع المبيعة لداود فأصبح «داود عبد الملك» المالك الجديد للقصر الفخم، وكانت آخر كلمات البasha له:

- «خللى بالك من المصنع يا داود، أنا هابقى أتصل بيك لما أستقر». وفي اليوم التالي انتقلت إيلين والأولاد للقصر، بينما بقي داود بشقة محرم بك لحين إتمام الاستعدادات للانتقال بصفة نهائية.

عند باب القصر الخشبي السميك المصنوع خصيصاً من أشجار غابات بولونيا لدولة البasha، وقف خدم البيت مصطفىين لاستقبال إيلين وأولادها. وقفز الطفل «سليمان» من باب السيارة إلى الممر المتمايل بين خمائل الجاردينيا وشجيرات الياسمين الفواحة، ثم طائراً فوق درجات السلم الرخامية مارقاً ما بين أجسادهم إلى داخل القصر، حيث استمر في ارتقاء الدرج تلو الآخر حتى فتح الباب الأخير فوجد نفسه فوق السطح المطل على البحر المترامي أمامه إلى ما لا نهاية، فارتكز بكوعيه فوق السور وداعبته نسمة هواء تطايرت معها خصلات شعره الناعم فوق رأسه الصغير المستكين بتلذذ، من جمال المنظر ورائحة البحر، فوق يديه المتشابكتين تحت ذقنه..

عاد الطارق ليترك الباب من جديد، فقام داود من كرسيه بالبلكونة وأغلق ضلفتها ليكسر أشعة الشمس الحارقة، وهمَّ ليفتح الباب..

قمر!!..

نعم هي واقفة أمامه بشحمها ولحمها، وهو شاخص إليها بذهول، بينطلون البيجاما والفانلة الداخلية، حافي القدمين، وباقي كوب الشاي ما يزال في يده. تَفَحَّصَهَا بنظراته وهو غير مصدق بأنها فعلاً هنا، أمامه. شعرها الذهبي متطاير فوق جبهتها دون اعتناء، وعيناها، آه من عينيها الخضراوين المغلفتين بسحابة الحزن هذه، والشفَتَيْنِ المكتنزَتَيْنِ كحبات الكريز، والحدَّيْنِ. يا الله!!

ولكن ما هذا؟

مزيج من أحمر وأزرق يتلاقيان فوق بشرتها الوردية، كدمات، تؤلمه عيناه لمجرد النظر إليها، فانعقد حاجباه وتقلصت عضلات وجهه ولكنه لم يزل لا ينطق بما يحيش في صدره، يحزن قلبه ويعتصر ولكنه لا يبكي ولا يحتج..

- «هاتسيني واقفة ع الباب كده يا سي داود؟» قالت قمر بعد أن طالت وقفته أمام باب الشقة وسحابة من الحزن تلفها..

- «إيلين والولاد مش هنا يا قمر!!»..

- «ما أنا جايه لك إنت يا سى داود»..

- «أنا برضه قلبي كان حاسس!».

قالها وهو ينسحب من أمام الباب ليتيح لقمر أن تدخل، وقد خفض عينيه نحو الأرض، يتتبع خطأ قدميها، وعقباها تُعصر دمويتهما مع كل خطوة تخطوها، قبال كعبي حذائها المكشوفة مؤخرته. وتوقفت قمر فى منتصف الصالة، ثم استدارت نحوه لا تعرف ما إذا كان سيسمح لها بالجلوس.

أما هو فشعر أنه كان يريد أن يأخذها بين أحضانه فتبكي على كتفه وهي تشكو إليه كم فعل بها الزمن. ولكنه أثر أن يكتفي بإشارته لها بأن تجلس. ودخل إلى غرفة النوم ووضع چاكيٲ البيچاما ثم عاد، وكانت قمر قد أخفت وجهها في راحتيها وصارت تتحب..

- «مالك بس يا قمر؟»

- «ضربني يا سى داود. كسّرني من الضرب علشان خايفة عليه وعلى

ابنه». ثم غابت ثانية وسط دموعها..

- «اهدي بس علشان خاطري وقولي لى إيه إالى حصل». لكنها استمرت

في بكائها فأضاف مستعطفًا:

«بس وحياتي!. كفاية!!»..

رفعت قمر وجهها نحوه وقد جلس قبالتها وهي غير مصدقة ما سمعته
أذناها لتوها. كل تلك الرقة تصدر من ذلك الرجل الذي كان مع ذلك يتمتع
بالسطوة والمقدرة التي أعادت لها زوجها من قبل، وفي غضون ساعات
قلائل. وكفكت دمعها ثم صرخت منفعة:

- «فيها إيه يعني لما واحدة تخاف على بيتها. كل يوم والثاني يطب علينا إيلي
إسمه محمد البوري ده، ويقعد وياه يتودودوا ورا الباب المقفول بالساعات
وأنا سامعاهم بوداني بيتكلموا عن الرئيس عاوزين يموتوه!. ولما شكيت
له قام ضاربني. يعني عايزني أستني لما ييجوا ويقبضوا عليه من تاني؟..»
واستدركت وقد علت نبرات صوتها أكثر:

- «أنا قلت له الكلمتين دول يا سي داود، وهو نزل عليّ بالاقلام
والشلايت وقال إيه راح جايب خرزانة وقال لازم يأدبني. ليه يا خويا؟،
وهو أنا قليلة الأدب؟» وراحت تنتحب من جديد. ثم كفت فجأة ورفعت
رأسها قائلة بنبرة مهزومة:

«أخذت الولة لطفي للست أم إحسان، وجيت لك على طول. لابد
تشوف لي صرفة يا سي داود، أنا بنت ناس ومش وش البهدلة دي».
ثم عادت تبكي من جديد..

- «خلاص بقى يا قمر كفايه بُكا. هو ده كلام برضه؟، فيه حد يرضى يعامل واحدة ست بالطريقة دي؟..» وقبض يديه بعضهما ببعض، ثم قال محتدًا:

- «أنا مش باقول هانضربه بس علشان ضربك، لأ مش كفاية!». بس لو عايزة نموتهولك هانموته لجل دموعك الغالية!!».

ثم أشاح بوجهه بعيدًا عنها تجنبًا لمواجهتها.

قالها بجدة أخافتها، فتطلعت إلى عينيه، تستطلع خلاهما مدى جديته في الاضطلاع بما قاله. وجفت دموعها فجأة حينما بدأت تتفكر في تلك الكلمات. نعم هي تفضل ولألف مرة أن يموت حسنين البصري ويختفي من حياتها، وأن يحلّ مكانه داود عبد الملك فتستعويض بقوته ونفوذه، مع رقة شعوره وعواطفه الجياشة، من بطش الشيخ حسنين بها، وحتى وإن شاركتها فيه الست إيلين. قامت قمر من مكانها وقد حسمت أمرها في أن تمضي في الطريق حتى النهاية، فدارت حول المنضدة التي كانت تفصل بينهما حتى واجهته، ثم مدت يدها إلى كفه ورفعته نحو شفيتها ولثمت ظهر يده إكبارًا، ثم باطن يده هيامًا، فسرى شعور دافئ إلى قلبه، وقشعريرة اجتاحت كفه. مدّ هو بدوره يده الأخرى وطاف بها حول خصرها، حتى احتاوها وضمها بقوة إليه، ثم رفع كفه عن شفيتها وبرقة رفع ذقنها قليلًا ثم التقطت شفتاه

إياها، وأغمض عينيه خجلاً، وذاق أجمل رحيق عرفه، وذوقت هي طعم أول قبلة حقيقية فذابت بين ذراعيه، وبتأني ابن الخمسين، نزع داود رداءها الخارجي عنها برقة وغطى جسدها بقبلات ناعمة، ألهمت شعورها فبادلته حُباً بحب، وقامت قمر واتجهت ناحية العود المستند إلى ظهر المقعد المواجه وأمسكت بعنقه وأعطته لداود دون أن تنبس ولو بكلمة. بدأ داود يداعب أوتاره ثم انطلق يعزف ويغني نفس الأغنية التي غناها للهوريّة المسحورة عند شاطئ البحر، وانسابت النغمات إلى جسد قمر الذي بدأ يتمايل معها في لذة ونشوة ثم أزاحت عن كتفها حاملة قميصها الداخلي فسقط عنها عند قدميها وهي مازالت تتثنى على وقع الموسيقى، ثم نزعت عنها صديريتها ولباسها الداخلي ودارت بجسدها حول نفسها مزهوة بجملها، ثم نزعت عنه بدورها ملابسها حتى صار عاريين تماماً في وسط الصالة، هي واقفة كتمثال فينوس المرمري، وقد أغمضت عينيها من فرط لذة النشوة، وطاف داود بقبلاته من حولها ومازال يعزف أوتار عوده وكأنه المثل ألكساندروس الأنطاكي، يدور بأنامله وبروحه حين خلق تمثاله الأشهر. ومازال شعاع شمس المغيب العابر من بين ضلفتي شيش البلكونة يتدحرج فوق جلدها الحريري فيلهبه بضياءه، فصارت «قمر» كتلة من النور يحوم هو من حولها كفراشة عاشقة مسلوكة الإرادة لا تبتغي سوى الالتحام بها. وشعر داود

بشهوة تشمل كيانه كما لم يشعر من قبل فعادت إلى جسده العجوز توترات الشباب ولفتاته، وعنفوانه وشدته، كما لم يختبر لزمان من قبل ذلك اليوم، ذلك اليوم الذي عده فارقًا في حياته فيما بعد..

رقد داود وبجانبه قمر وقد أغمضا أعينهما سابحين في بحور النشوة، ثم مدَّ يده وأشعل سيجارة وهو يراقب حلقات الدخان تتصاعد نحو سقف الغرفة. ومضت لحظات صامتة ثم هبت قمر رافعة نصفها العلوي مرتكزة على مرفقها، وقد أحكمت الغطاء فوق صدرها بيدها الأخرى وقالت:

- «أنا لازم أمشي دلوقت. هي الساعة تطلع كام؟ لازم أروح أجيب الواد لطفي من عند أم إحسان» فسألها من بين دخان السيجارة:

- «وبعدين يا قمر؟ عايزة تعملي إيه مع جوزك؟» فأجابت على الفور وبلهجة حاسمة:

- «أنا ماليش إجواز. أنا لازم اطلقه النهارده قبل بكرة..». فالتفت داود نحوها محاولاً أن يستنبط بدوره مدى جديتها فيما تقول وسألها:

- «وال مطلوب مني إيه؟ أنا قلت لك أنا ممكن أموتته علشانك!» فأجابت بكل برود:

- «يبقى لازم تموته. لو تقدر!» والتفتت نحوه رافعة حاجبها في تحدٍّ، فنظر داود أمامه وتمتم وكأنه يخاطب المجهول:

- «مشوار صغير لمصر، هايكون فيه موتك يا شيخ حسنين! ما هو انت خرجت من الحبس على مسئوليتي، ولما تكمل في مشيك البطال ده تبقى بتضرني أنا شخصياً!! وهاتكون نهايتك على إيديّ دول» ورفع كفيه في الهواء، كالمُصلي! وإن كان ينظر نحوهما ذاهلاً بل وغير مصدق ما كان مزماً أن يقدم عليه..

قامت قمر، وفي لحظات كانت قد تركت المنزل وبقي داود وحده في الغرفة المظلمة لساعات ينفث دخان سجائره بلا طائل. وكما تقضم ثمرة الكمثرى الشهية، المتدفقة بالرحيق الحلو فتتلذذ، إلى أن تلتقط بأسنانك - دون أن تقصد - لبها المرير، نعم. لا يزال طعم المرارة يملأ حلقه، ولا يستطيع أن يدفعه عنه، برغم كوب الشاي المحلى بثلاثة ملاعق من السكر، الذي ازدرده دون أن يميز له طعمًا. امتلكه الشعور بالإثم الثقيل على قلبه، فقام وارتدى ملابسه متعجلاً، يريد أن يهرب، ثم نزل للشارع وسار عابراً الدكاكين المغلقة، والمقاهي المكتظة بالساهرين في تلك الأمسية الربيعية من أمسيات الإسكندرية، وقد غسلت الأمطار المتلاحقة بطول الشتاء شوارعها، فعاد الناس يساهرونها بعد طول غياب. وانطلق في شارع السوق متجهاً نحو البحر، ملاذه الأخير لعله يجد عنده دواء لتلك المرارة.

وملاً الجو عبق دخان النارجيلة المحترق وضحكات المتسامرين حتى عبر الكورنيش، فتبدلت الرائحة مع نسمة الهواء الباردة المحملة برائحة البحر الممزوجة بفواح كيزان الذرة المتقلبة فوق قطع الفحم المتوهج، فتصوّر نفسه، في هلع، يتلوى مثلها فوق النار كمثّل عقابه في الآخرة، تلك النار المتقدة التي كان قد تهادى في وصفها له أهله وناسه بالإسكندرية بطول السنين، جزاءً له على فعلته الشنعاء، بل وعلى ما كان يعتزم أن يصنع بصديقه الشيخ حسنين. وجد نفسه ينظر إلى البحر بغموضه الداكن وأماجه الفضية تتواصل، وهو يتمتم:

«يا رب السماح!! يا رب الغفران!!..»

ولكنها قمر!

نعم هي التي أغوته بجماها، وشبابها، وأنوثتها الطاغية! ثم جاءته - دون دعوة منه - بعد ذلك إلى داره باكية!. لا بل مستعطفه إياه أن ينقذها مما هي فيه، بل ولينتقم لها، وحتى الموت!! من ذلك الغبي الذي يضربها! كيف يتسنى له أن ينظر ذلك الجمال دون أن يركع أمامه متعبداً!

إنه الشيخ حسنين!

نعم هو المذنب، المستحق لكل عقاب ينزل به!

لا. ليست خطيئته، ولا خطيئتها. الشيخ حسنين هو المسئول الأوحد!
ويستاهل تبعات ما حدث، وكل ما سيحدث له.

الوغد يضربها!. إنه حتماً أعمى، ولذا فهو دوماً يتحسس طريقه في الحياة
دون أن يدري! من الأزهر لإحياء الحفلات! ومن «زينب شربات» إلى
«قمر»! ثم يأتيني أنا - صديقه ورفيق دربه - ويقول لي بأن أرحل عن بلدي!
ويستبدل بي أنا «محمد البوري»! ذلك الصعلوك - الذي كان قد قابله مرة
أو مرتين من قبل - الذي يدعي مرة أنه فنان ورسام، ومرات أنه سياسي
واشترافي، ثم ينقلب أخيراً إلى إخوانجي! بهلوان ويلاعب فيل بزلومة في
قاعة سيرك درجة الثالثة. إنه حتماً أعمى، لا يميز أمامه، وسيقع قريباً عند أول
حفرة تقابله. نعم. حتماً إنه الشيخ حسنين!
ولا بد أن ينال جزاء فعلته المشينة!!



الفصل العاشر

وتعود الشمس وتشرق من جديد كما أشرقت بالأمس، ومنذ شهر مضى، وعند بدء الخليقة، وإلى المنتهى. تسلفت أشعتها تحترق ما بين فتحات الشبايك بنافذة غرفة النوم العلوية، فأيقظت إيلين من نومتها المتقطعة قلقاً على ابنها سليمان الذي كان قابلاً بجانبها، فقد قضى الليل كله يرتعش من الحرارة التي أشعلت جسده ناراً، فنقلته إلى سريرها لتسهر بجانبه. أما داود فكان مسافراً للقاهرة لبيتاع بعض اللوازم للمصنع، وكان ذلك اليوم الأول الذي يفترقان فيه منذ أن كانا قد التقيا بمحرم بك.. كانت تتمم بصلواتها وقد تجمدت عيناها فوق وجه الصبي النائم، وتتجمع حبات العرق كالؤلؤ فوق جبهته، فتمسحها هي بالقماش المبلل تارة وبراحة يديها تارة أخرى والدمع ينساب فوق خديها، وشفثاها ما تزالان تُردّدان صلوات حفظتها عن ظهر قلب أيام الطفولة والشباب بدار الأيتام. وتلقفتها شطحات الذاكرة فأخذتها إلى حيث كان ابنها «مكاري» - الأخ الأصغر - راقداً فوق سريرها بشقتهم الأولى بمحرم بك، وهو يذوب بسرعة ما بين يديها من كثرة ما فقد

من رحيق جسده، وهي مغلوبة على أمرها لا تستطيع إلا أن تغسل جسمه الطري من آثار الإسهال والقيء اللذين لم يتوقفا أبداً لأيام وليالٍ لا حصر لها حتى قضيا عليه. لم تكف عن البكاء لشهور طويلة من بعده، ولا زالت تبكيه أحياناً. لقد ملأ الحزن قلبها من بعد رحيله حتى لم يعد يتسع لأي شيء آخر، فكفت تماماً عن الغناء، بعد أن كان شدوها كل حياتها، وعلامة وجودها أينما كانت، بل وحتى داود - رجلها - لم تعد ترغب فيه وفي قربها كما كانت من قبل، بل ووجدت نفسها تتجنب الانفراد به حتى في غرفة النوم، صارت تنام في غرفة نوم الأطفال ساعات قبل أن يعود هو من سهراته، وفي الصباح - أو بالأحرى عند منتصف اليوم - حين يصحو كانت تتشاغل عنه بأمور المنزل وتدابير شئون الحياة. ولما لم يمانع داود أو يعترض، عزت هي تقبله لذلك الوضع الجديد لتقدم العمر به، فلم تثر تلك المشكلة بينهما، ولم يطرحها أحدهما للآخر بطول السنين، إذ أثر كل منهما أن يلزم الصمت تجاهها حتى لا يجرح مشاعر الثاني موقناً بينه وبين نفسه بأنها ليست مشكلته هو بل مشكلة الطرف الآخر..

ملأت رائحة المرض مساحة الغرفة فهتت من مرقدها وفتحت أشعة النافذة لتدخل نسمة البحر الرقيقة تغسل ما علق بالجو من أنفاس ليلة الأمس. ورمقت الصبي النائم بنظرة عطوفة هي كل ما كانت قادرة أن

تقدمه إليه، فقد نَدَّتْ مشاعر الحب العميقة عنها حتى تجاه أبنائها، منذ أن وارت طفلها «مكاري» التراب قبل ثلاثة سنوات. أما سليمان فكان يهذي من فرط الحرارة ويقول في نومه:

- «أنا سليمان ابن داود ابن عيسى. ابعدوا عني كلكم، ابعدوا وإلا...!!»
وكانت الحمى قد طافت به إلى تلك الصحراء المترامية حيث أحاط به صبية أشرار يريدون الفتك به، وهو لا يعرفهم ولا يعلم لماذا يتربصون به، فما كان منه إلا أن بدأ يعدو فجأة نحو صبي منهم كان يقف في مواجهته، ملوحًا بقبضته نحوه وخاتم أبيه يبرز أمامه بفصه الأحمر كالنار المستعرة، وكان يبذل خطوات أقدامه على الرمال بسرعة فائقة، وما زال يعدو حتى باتت أصابع قدميه بالكاد تمس الأرض من تحته، ثم بدأ يرتفع عن الأرض تدريجيًا حتى طار نحو قرص الشمس الساخن عابرًا فوق الصبي الذي كان يعترضه. ثم ارتفع في الهواء منطلقًا ولكنه لم يطق حرارة الشمس ففتح عينيه الصغيرتين ليجد أمه تنظر إليه مشفقة عليه من خطرات الحمى، وسألها:

- «عطشان يا ماما، عايز أشرب، ريتي ناشف قوي.. تتصورى كنت باحلم إنى طائر لحد قرص الشمس!!»..

عاد داود نحو الظهر ليجد سليمان مريضًا وطريح الفراش، أما إيلين فكانت مكتئبة ومنزوية في ركن الغرفة لا تكفُّ عن البكاء، ولكنه انزعج

لأنها لم تفكر في إحضار طبيب أو حتى في إعطاء الولد ولو حبة أسبرين. وفي خلال ساعة كان السائق في طريقه للأجزخانة ليحضر الدواء الذي كتبه الطبيب الذي جاء به داود على عجل. وشعر بأن عقاباً من السماء قد حلَّ بيته جزاء الذنب الجسيم الذي اقترفه! بل وشعر بكمد أكبر إذ لم يجد من يشكو له محتته ويسأل إرشاده، كما كان قد اعتاد أن يفعل مع صديقه الوحيد الشيخ حسنين!! هذا الذي كان قد عاد من القاهرة اليوم بعد أن أتم مهمته وبعد أن تأكد من دَقِّه لآخر مسمار في نعشه!. صعد داود إلى سطح القصر المواجه للبحر ووقف في وسطه سابحاً ببصره بين زرقة سماء الإسكندرية الصافية وبين زرقة البحر الداكنة الغامضة، وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

«يا رب السماح!! يا رب الغفران!!..»

وأَمْضَى بقية اليوم ما بين هبوط إلى غرفة النوم ليستطلع حالة الصبي، وبين سطح القصر ليصرخ وينتحب من ذلك الألم الذي كان يعتصره..

وعند المساء بقى داود ساهراً فوق سطح القصر، وحيداً وسط النجوم الساهرة المتناثرة كحبات الماس في سماء الإسكندرية الرائقة إلا من غلالات رقيقة من السحب تمر متباطئة فتضفي على الليلة سحرًا وغموضًا. ومضى داود يجول بالسطح من ناحية لأخرى وهو رافعُ عينيه نحو السماء، ثم نحو البحر الأسود الممتد بغموضه حتى يلتقي بسواد السماء عند الأفق المخفي تحت جناح الليل، ثم ثانية نحو السماء. مبهللاً وسائلاً، يا رب! إلى متى يمتد

ذلك الشعور بالذنب؟ اكتنفه الحزن والانكسار ودموعه تترقرق حول مقلتيه. لم يستطع داود ليلتها، ولا من بعدها وحتى آخر عمره، مهما حاول وبذل من جهد، أن يمحو من نفسه تمامًا أثر فعلته مع قمر وخيانتة للشيخ حسنين..

لكن يبدو أن عدالة السماء قد ترفقت بسليمان فلما أشرقت شمس اليوم الجديد تبين أن الابن لم يؤخذ بذنب الأب وتمائل الصبي للشفاء بالرغم من الإثم الجسيم الذي ارتكبه أبوه. تهلل داود كما تهلل جميعنا وكأن قيام العدل فيما بيننا هو الاستثناء وليس القاعدة..

ومضى سليمان ينمو ملتصقًا أكثر فأكثر بأبيه، إذ تبدى له مدى العاطفة التي كان يكنها له دونًا عن باقي إخوته، فكان ذلك الشعور يعوضه عن الجفاف الممتد ما بينه وما بين أمه.. لم تكن إيلين مقصرة نحوه كأم، ولكن مشاعر الأمومة وكأنها قد جفت! نعم جفت لديها حتى لم تعد تتعدى حدود المسؤولية كأم ترعى أبناءها وزوجها، وكانت تقدمها بغزارة مشهود لها بها. أما الحب فكانت ترضن به - دون أن تقصد ذلك - على أيٍّ منهم منذ رحيل مكاري وكأنه أخذ معه قلبها إلى جوف القبر حين مضى، فلم يُبق لها - ولهم - سوى عقلها وشعورها الفطري كأم، وواجباتها كزوجة إزاء داود والأولاد..

بعد اعتقال زوجها، سعت قمر في الحال للحصول على الطلاق منه. وفور طلاقها الذي حصلت عليه خلال زمن قياسي، بسبب انحياز المسؤولين عن تنفيذ الإجراءات ضده بصفته من الإخوان المسلمين، تملقًا للسلطة، بدا الطريق ممهدًا لتحقيق حلمها بالزواج من معشوقها داود. ولكن بقيت عقبتان تحولان بينها وبين رغبتها الملحة: صداقتها لإيلين واختلاف الديانة. أدركت على الفور أنه لو تحول داود للإسلام، فسيحل الإشكالين معًا. هكذا كانت قمر دائمًا لا تفكر كثيرًا، ولكن حين يخطر لديها خاطر أو فكرة لحل إشكال ما، كانت غالبًا ما تكون الخطوة الأكثر عملية بالنسبة لها، ولو يبدو الحل مجنونًا في بعض الأحيان، ولكنها تشرع في العمل به وهي لا تدري كيف خطرت لها تلك الفكرة أصلاً، وما كانت تستطيع الإتيان بها ولو تفكرت في حل لتلك المشكلة ولو لمائة عام!. ولكن بقيت معضلة إقناع داود بذلك الحل. لم تقدر أن تجد لها مخرجًا أو تمهيدًا لمفاتحته بها، فقررت أن تترك الأمر لسجيته حين تلقاه. كانت تتفكر في هذه الأشياء وهي تتأمل جمالها ورشاقتها في المرأة وهي تمصمص شفيتها متفكرة باستنكار في الشيخ حسنين الذي لم يوفها حق قدرها، بالمقارنة بدادود الذي يذوب هيأً كلما صار في مقربة بها.

خرجت قمر لتبتاع زيتًا وسُكَّرًا للبيت، وتركت ابنها لطفي عند الجيران يلعب وانتابها شعور لذيذ بالحرية كانت قد افتقدته لزمن طويل. سارت في

الشارع الضيق بين نفس البيوت المتلاصقة الواحد تلو الآخر، نفس البيوت التي حفت بجنبات طفولتها وحتى اليوم، وإن كان طلاؤها قد تقشر بفعل الملوحة ورطوبة الجو، نفس الوجوه والجيران والمحلات المتبعثرة على جانبي الطريق، وإن تغير أصحابها وتجارها، فحامد الكواء كان حسنين اللبان، وعباس الجزار كان لاوندي الساعاتي، وإن بقي الآخرون في صناعاتهم ولكن استبدل الأبناء آباءهم في حِرَفهم وتجاراتهم. وحلَّ جيل جديد من الصبية والصبايا يملئون الشارع حياة، لعبًا وصياحًا وضحكًا وبكاءً وعدوًّا هكذا في كل مكان. ودخلت إلى محل «رزق» العطار، «أهلاً بالست قمر وردة حتنا» ابتسمت هي وغشيتها الروائح النفاذة النابعة من الجوانات المتراسة المحملة بالتوابل والبهارات، ومدت أطراف أصابعها تلتقط أوراق النعناع، وزهرات الريحان، وحبات الينسون، والكمون، والحلبة، تفرکہا بين أصابعها لا لشيء إلا لتقربها من أنفها وتملأ أنفاسها بروائحها العبقة، وتسرح وهي تفاضل فيما بينها، وابتاعت نصف أوقية جوزة الطيب لتطحنها مع حبات البن المحمصة لتعد القهوة لداود بالطريقة التي يحبها وقرطاسًا من الحلبة والينسون. أحقًا ما تزال «وردة» الحي؟ ولو كانت فهل تكون هكذا في عينيه؟ وتذكرت قمر طفولتها، تلك الأيام التي لم تبدُ بعيدة كل البعد عنها، كيف كانت دومًا تقود أترابها في اللعب، وكيف كانت في المقدمة

إذا ما اجتمعن للهو وخاصة في أمسيات رمضان الساهرة، كانت على رأس قافلة أطفال الحي يدورون حول البيوت بفوانيسهم المنيرة بلهب الشموع، يجمعون الحلوى والمكسرات اللذيذة وهم يغنون أهazيجهم الرمضانية. ومرت بمنزل «أمنية حلمي» بحوائطه الصفراء القديمة المتآكلة وسكونه المطبق، صديقة الطفولة وحببتها الراحلة، وترنمت عليها متذكّرة في ألم وخز قلبها حادث الترام الذي قضى عليها. كم خاصمها النوم لشهور طويلة بعد ذلك الحدث المروع وخاصة أنها عاينته بنفسها إذ كانتا تلعبان معاً - وكانتا في الرابعة عشرة عندئذ - قبل أن تعدو - رحمها الله - بكل سرعة دون أن تدري نحو الترام القادم، فكان ماكان. ولكنها في النهاية كانت قوية وتخطت المحنة بإصرارها وعنادها، وشبت فتاة يضربون بها الأمثال في الرسوخ والالتزام. ثم حبتها الدنيا بجمال نادر وقوام مليح فأضحت مبتغى لكل شباب الحي، ولكن خطفها الشيخ حسنين خطفًا وهي ما تزال تخطو على عتبات الشباب لما كان له من دلال عند والدها رحمه الله، الذي وثب إلى تزويجها منه درءًا للمخاطر التي تحسبها من نظرات الشباب من حولها، فتزوجها وهي بعد بنت السادسة عشرة بينما كان هو في منتصف الأربعين، ومن يومها وبين جدران بيته، تحولت إلى قطعة من قطع الأثاث، لا رأي لها ولا كلمة، ولا حول لها ولا قوة. توارت قمر القائدة الذكية خلف الجدران، ثم مؤخرًا خلف حواجز

متجددة من غلالات الثياب والأقنعة إذا ما خرجت من سجن شقتهم. ثم يتناول عليها بالضرب أيضاً؟ لا يمكن! لم تكن راغبة، ولا قادرة بعد، على أن تحيا هكذا بل وتحمد ربها أن فرّق بينهما الطلاق إلى الأبد..

وفي ذات اليوم، كان قد اتفق أن يمضي داود ليلته بشقته بمحرم بك، وقد أدركت قمر ذلك بسرعة عند مرورها من أمام المنزل لدى عودتها من التسوق، فلما وجدت الشبايك مفتوحة، ألقت بنظرة خاطفة حولها لتتأكد من أن أحداً لم يكن يراها ثم دلفت إلى مدخل العمارة دون تردد..

ثلاث طرقات خفيفة على الباب ووجدت نفسها أمامه، وذابت بين ذراعيه في عناق دافئ، وإن انتزعها منه داود برفق، وهو يتعذب..

- «أنا مش قادر يا قمر. إحساسي بالخيانة بيعذبني»

- «خلاص يا سي داود، أنا اتطلقت!»

- «معقول؟ بالسرعة دي؟ إزاي؟»

- «ولاد الحلال..»

- «ولاد الحلال؟؟..»

- «خلاص بقى!. والماضي راح لحاله»

- «قوام كده!. بقى ماضي؟ إزاي قدرتي؟»

- «قول إزاي قدر هو؟؟!! هو الي عمله كان شوية؟»
وأطرق داود، لا يسعه أن يجد إجابة للحظات، ثم عقب دون أي
انفعال:

- «صحيح. هو الي عمله كان شوية!..» وغاب في صمت كثيف..
لم تنزل قمر تتأمله في صمته، وقد أضفى ذلك الصمت عليه مزيداً من
رقة المشاعر، التي أظهرت لرجولته بُعداً جديداً، سمت بها وعلت، فألهبت
إحساساتها حتى لم تستطع قمر أن تتمالك مشاعرها الجياشة نحوه، فبادرت
وألقت بنفسها ثانية في أحضانه، مشتعلة هذه المرة بالرغبة في أن تلتحم كلية
بجسده، فيصير اتحادهما الآن كاملاً لا يحده خوف من أحد، أو شبهة خيانة،
أو عذاب ضمير. ولما كانت مشاعرها أصيلة فعلاً، لا تشوبها ذرة افتعال،
انتقلت عدواها - كالحمى - إلى جسم داود وإلى قلبه، فترك عنه كل مقاومة،
إذ بددت سعادة النشوة التي اشتملتها كل شك في أن ما بينهما يمكن أن
يكون خيانة. أو خطيئة!

حكى له عن كل حياتها، عن طفولتها وعن شبابها، وعن أمينة حلمي
وعن الشيخ حسنين، عن أي شيء وعن كل شيء، ثم قالت والحب يتدفق
من بين شفتيها، وكأنها الأرض المتخمة بالحمم لم تقدر أن تُبقي حرارتها
وفورتها بداخلها بعد، فتفجر البركان يفيض قلبها بلهبه، إذ لم تقدر أن تظل
بعد ساكنة:

- «مش قادرة!. مش قادرة أوصف لك إحساسي! قد إيه أنا محتاجة لك!!
أنا ملكك يا سي داود، إعمل فيّ ما بدالك!» ثم فاقت عينها الخضر اوان
هيامًا وأضافت:

- «الأمر ليك إنت، بإشارة واحدة منك أنا مستعدة أعيش تحت رجلك
طول العمر».

- «أعوذ بالله يا قمر. تحت رجليّ إزاي!. ده إنتي ست الستات!»

- «مش عايزاك تفهمني غلط، بس الست إيلين. دي مهما كان، في مقام
أختي الكبيرة برضه، وأنا مارضلهاش حاجة بطالة أبدًا!»

- «أنا مش عارف هانعمل إيه مع الغلبانة دي إالي عمرها ما أذتش نملة!
والله ماتستاهلش مني ده كله!»

- «خلاص يبقى نتجوز يا سي داود، ولو في السر، أنا موافقة». وصممت
قمر خجلة من أن تكون تسرعت في كلامها هكذا، متفكرة فيما يمكنه أن
يظن بها، تبتغي أن تسرقه من زوجته، ثم بعد برهة أضافت:

- «وعلى العموم إالي تشوفه يا سي داود..»

- «نتجوز ده إيه يا قمر! ما أنا متجوز إيلين وما يحقلش أتجوز عليها، إنت
في إيه ولا إيه؟؟ بقى نقول لك مش عايز نزعها، عايزاني نطلقها؟؟»

- «مين جاب سيرة الطلاق بس؟. ما هو إيلي بنعمله دلوقت ده هو إيلي
بيسموه - والعياذ بالله - (خيانة) يا داود يا حبيبي، وده إيلي تابع ضميرك
من ناحية الست إيلين. بس لو اتجوزنا - ولو في السر - خلاص ما فيش خيانة
ولا حاجة!»

- «تاني يا قمر هاتقوليلي نتجوز، طب إزاي بقى؟»

وهنا أدركت قمر أن اللحظة الحاسمة قد جاءت. بكل براءة وصدق
قاداته إليها دون تخطيط مسبق أو مناورة منها، جاءت، ومن ناحيتها هي
فقد تحيَّنتها فرصة لا تعوّض، فمالت نحوه وأفرغت كل أنوثتها مناسبة فوق
صدره الأثيب تداعبه بأصابعها، وهو راقد على السرير بجانبها وهمست
قائلة:

- «شوف يا داود يا حبيبي، مافيش غير إنك توصل مشوار لجامع الأزهر
في مصر، وهناك تسلم - في السرّ طبعا - ومافيش مخلوق غيري هاعرف،
وبعدين ممكن نتجوز عُرفي، في مصر برضه علشان يفضل الموضوع برضه في
السر، يعني عقد جواز - حته ورقة - بيني وبينك، يشهد على إننا متجوزين
قدام ربنا، فينصلح الحال! وأبقى مراتك وخدامتك طول العمر، وإن
تفضل متجوز إيلين وما تحسش إنك بتخونها وانت معايا». هكذا طرحت
قمر كل أوراقها مكشوفة أمامه دون تخاثر أو موارد، وإن كان ما تطلبه منه

ما زال عسيرًا عليه أن يقوم به، أو على الأقل ليس بالبساطة التي طرحتها هي، إذ كانت تبعاته أصعب من أن يستطيع حسمها هكذا سريعًا. وتفكر في ذاته:

«من جديد؟»

أأخوض في ذلك الطريق أيضًا، بعد كل هذه السنين المتراكمة من ورائي؟

حقيقي أنني لم أعبأ قط بتلك الكلمة، التي تكتب فوق ورقة ماء، في خانة الديانة. حقيقي أن ديانتي وعقيدتي محفورتان فوق جدران روحي، بكلمات من ذهب مرسومة على الناحية الداخلية من جسدي، الناحية التي لا تبصرها عيون، سوى عيون قلبي!..

كنت ظننتني وصلت إلى نهاية الطريق، لأنني جزت في الماء وفي النار واختبرت ملء الحياة، وظننتني عبرت أخيرًا إلى الراحة! بعد زَوْجَتَيَّ الأولَيْنِ ورحيلهما عني ومسئولية العيال التي تحملتها عني إيلين. والمال، حتى الرزق الذي كان قد قطعه عني الشيخ حسنين، عاد وانفتح لي سبيله على مصراعيه!..

ولكن أيمكن أن أفعلها من جديد؟ ومن أجل امرأة مرة أخرى؟ يهودي، فمسيحي، ثم مسلم!. والكل يصبحون فجأة أهلي وناسي! يا له من أمر مضحك!. ولكن أنا. مَنْ أكون أنا؟ وَمَنْ أكون لهم؟».

ورغم نقاء الجو وجماله في ربيع الإسكندرية البديع، موسم الحب والغزل وأصل الحياة، إلا أنه أمضى يومه قابلاً بمفرده في شقته حائر النفس. في خضم المشاكل تنوء أحياناً المشاعر الحقيقية، وتساءل هل يجبها فعلاً أم هي لا تعدو أن تكون مجرد نزوة. بدت له خيالات لقاءاتها، فأشعلت ذكرياتها النشوة في جسده، فهل تكون إذن مجرد متعة جسدية؟ وفي سنه هذا؟ لا شك أن شهوته تجاهها كانت تمثل عنده الجانب الأكبر من انجذابه نحوها على الأقل في بداية علاقتها. ولكم اشتهى قربها يوماً، بل وحتى الآن. ولكن هل ذلك هو كل ما يمكنه تجاهها؟ لقد عصفت به الأفكار بجنون فلم يتبين بوضوح الطريق أمامه، لذلك اختار داود الصمت ملجأً له وحصناً يحتمي خلفه حتى يتمكن من أن يرتب أفكاره ثم يتخذ القرار..



الفصل الحادي عشر

برودة الليالي في وسط الصحراء متميزة، ولا تضاهيها برودة ولا ينافس آلامها ألم. تنفذ بين ثقبوب الجلد كالخناجر، ثم تنخر وتتلوى وتستقر في اللحم، في العظم، بل في النخاع. مؤلمة، قاسية، لا ترحم..

جلس «محمد البوري» وحيداً في الزنزانة الضيقة، مستنداً إلى برودة الحائط الإسمتي وقد رفع ركبتيه مرتكزاً بقدميه فوق حافة السرير الحديدي، وضمهما بذراعيه إلى صدره العريض محاولاً أن يخفف آلاماً تحتاج جسده برمته. لقد التبسته روح حزينة ولم يستطع مهما أوتي من قوة أن ينتزعها عنه، وفرت دموعه من مقلتيه وهو شاخصٌ نحو السرير المقابل الذي بقي خاوياً، فقد غاب الشيخ حسنين اليوم، وإلى الأبد من أمام عينيه، لم يأبه بموته أحد وكأنه حشرة داستها الأقدام أو حيوان نفق!! فلم يحظَ من المحيطين به بشبهة شفقة أو شعور بالذنب، لا من الجندي المعتدي ولا من رؤسائه من الضباط، الذين علت وجوههم ابتسامات السخرية، تلك التي لم تغب لوهلة سوى عند احتسائهم لرشفات الشاي المتلاحقة، ثم عادت تراقص

فوق شفاههم الغليظة وهم يتابعون شتائمهم وسبهم لباقي المسجونين. والكرابيج والعصي في أيدي العسكر ما تزال تلهب أجسادهم بالسنة من نار آتية من الجحيم، ويتفرق القطيع في أنحاء الساحة، ويعدو محمد البوري مهرولاً ما بين جموع المساجين الشاخصين بذهول إلى ما يحدث. فرقعات الكرباج وراءه تلاحقه، وهو يعدو وعيناه شاخصة نحو الشاويش القابض بقوة على مؤخرة رقبة الشيخ حسنين، ويحاول أن يقترب ولكن تمنعه أجساد المساجين المتزاحمة والسجانة وعصيتهم من الاقتراب أكثر، يدفع بكلتا يديه الأجساد من حوله بلا جدوى فيصرخ وما تزال نظرتة متسمرة فوق مشهد وحيد؛ رأس الشيخ ويد الشاويش ما تزال تدفع بها تباعاً بقسوة ووحشية نحو جدار المبنى الإسمنتي حتى شج رأسه مرات ومرات، ثم تركه ليسقط على الأرض جثة هامدة!! لم يكن بمقدوره أن يبصر أي تفاصيل أخرى فلقد تحولت الساحة والجند والسجناء في تلك اللحظة إلى لاشيء، اختفى الكل وبقي أمامه وجه الشيخ الجاحظ العينين وقد اختلط بياض بشرته بحمرة الدم المتدفق الذي لم يكن قد جفَّ بعد بتراب الحائط الإسمنتي بزرقة الموت التي كست الكل بحضورها المهيمن. فتوقف هو عن الحركة مستسلماً للساعات السياط وهو يبكي في صمت. بعدها جاءوا بسيارة نقل وحملوا جثمانه وخرجوا به إلى خارج أسوار السجن ليدفنوه في الصحراء المترامية

حولهم. لم تزل الآلام تمزقه في وحدته بينما صراخات التعذيب تأتيه من كل صوب من حوله. وتملك منه الخوف فتمتم قائلاً:

- «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»..

لم ينس ارتعابه وتقلص ملامحه وهو جالس أمامه في خلفية العربة التي دُفعوا إلى مؤخرتها في ذلك الفجر منذ أيام قلائل، وهما محاطان بالجنود المدججين بالسلاح، بينما كانا في الطريق إلى القاهرة. هناك اقتيدا لمبنى المحافظة أولاً ثم لوزارة الداخلية حيث أخذوا بياناتهما ثم سيقا إلى «سجن الأجنب». لم يتبادلا ولو كلمة واحدة بطول الطريق بسبب حالة من الرعب اجتاحتها معاً، فبالرغم من قرب عهد الشيخ حسنين بالاعتقال، إلا أن هناك شعوراً يقينياً كان يملكه بأن تلك الرحلة كانت تحمل معها عواقب وخيمة. هالهما أولاً منظر البوابة السوداء المخيف ولكن لما مضت بهما السيارة إلى داخل أسوار السجن، انتابتها موجة من الهلع حين أبصرا المساجين ما بين عادٍ وساقطٍ إلى الأرض، بملابسهم الداخلية تلاحقهم الكراييج في أيدي الجنود الذين يلاحقونهم بها بلا رحمة أو هوادة. لن ينسى وجه الشيخ المسن لحظتها وقد استحال ارتعابه إلى غضب وثورة زادت من تقلص ملامحه واحتقن وجهه الأحمر حتى كادت عيناه أن تقفزا قفزاً من مقلتيهما، فما كان منه إلا أن حاول تهدئته بكلمات رقيقة وكأنه يدرك عاقبة غضبه وما

تخبئه له الأيام القليلة التالية. وبعد لقائه بالضابط المختص وتدوينه لبياناته الشخصية، فوجئ الشيخ حسنين بأن الضابط يأمره ساخرًا أن يخلع عنه ملابسه، هكذا أمام كل الموجودين، ولما تبين له جدته فيما أمره به، استجاب هو مرغمًا وهو يرتجف غضبًا، فهو الذي لم يخلع عنه ملابسه حتى أمام امرأته في خصوصية حجرة النوم، كيف يؤمر هكذا أن يأتي بذلك الفعل المشين أمام العشرات من الأغراب، ولماذا؟ أي جرم كان قد اقترف ليستحق عنه ذلك العقاب؟. لم تكن لديه أدنى فكرة أن ما كان ينتظره بعدها كان ليعد تلك الإهانة نعمة وحسن استقبال من قبل الباشا الضابط!. فقد بدأ اليوم بتجمع في فناء السجن بالملابس الداخلية حيث أمر المئات من المساجين، بغض النظر عن أعمارهم، بالجري في طوابير ثم الوقوف فجأة ثم العدو ثم الجلوس القرفصاء ثم الوقوف، وهكذا في تتابع سريع يعاقب المخطئ في تنفيذه بالجلد الفوري على أيدي الجنود المحيطين. ثم بدأت الموسيقى تشدو بأغنية أم كلثوم «يا جمال يا مثال الوطنية». ثم أمر الضابط الشيخ حسنين أن يقف في ملابسه الداخلية - هكذا أمام المئات - وأن يمسك بالميكروفون بنفسه ويغني أغنية أم كلثوم عينها، بما أنه مقرئ ومتعهد حفلات، فوجب عليه أن يتمتع الإخوان بجمال صوته وإلا. بينما أوقف الشيخ حسن الهضيبي، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، بنفسه بلباس أزرق في الوسط وفي

يده عصا يلوح بها أمامه كقائد للأوركسترا إمعانا في الإذلال. وبعد الانتهاء من فقرة الغناء، ومن شدة المهانة ساد هرج بين الإخوان، وتعالَت همهمات فيما بينهم حتى صاح واحد من وسطهم هاتفاً:

- «لا رجعية ولا إخوان. ولا متاجرة بالأديان

حسن البنا وحسن الثاني. سلخوا طريق ضد الإنسان»

لم يعرف أحد من كان صاحب الهتاف ولكن أجبر الجميع أن يرددوا الهتاف خلفه بأمر الضابط قائد الطابور. وهنا اقترب الشيخ حسنين غلطة عمره، إذ سأل الضابط الجالس أمامه في غلظة واستنكار عمن يكون «حسن الثاني» هذا؟ فما كان من الضابط إلا أن هبَّ قائماً ورفع كفه وبكل قوته هبط به كالصاعقة على خد الرجل العملاق، ولكن وهن السن غلبه، فترنح الشيخ وكاد أن يسقط. وإذا بالضابط يصرخ في وجهه بسخرية:

- «مش عارف مين حسن الثاني يا روح أمك؟ تعال يا بني إفتح لنا محضر وخذ أقوال الجدع ده!. الثاني يا روح قلب أمك يبقى حسن الهضيبي، تعرفه يا وله؟. انطق!!» وجلس ثانية وهو يرمقه بنظرة ساخرة..

- «أعرفه يا فندم» أجاب الشيخ وكفه لا تزال عالقة فوق خده تتلمس المهانة فوقه وتحاول أن تنتزعها عنه، وقد استبد به الغضب فلا يزال وجهه ملتهباً بفعل اللطمة التي تلقاها أمام كل الحاضرين..

- «أقف انتباه يا مسجون! الاسم، والسن، والعنوان» فأسقط يده إلى جانبه وأجاب صاغراً. مال الضابط بجذعه للوراء على كرسيه، وعقد ذراعيه أمام صدره وسأل متهمكاً:

- «تعرف إليه بقى يا حسنين عن حسن الهضيبي؟»

- «ده يبقى المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، يا فندم»

- «وهو إلی قتل رئيس الوزارة السابق النقراشي باشا، بعد ما كان نازل من عند أمك مش كده؟» أجاب الشيخ متلعثماً ودون تفكير:

- «لأ يا فندم مش هو! أنا قصدي أقول أنا ما عرفش، بس الشيخ حسن الهضيبي راجل تقي وعالم إسلامي كبير، ومالوش دعوة بالقتل والحاجات دي»

- «وهو إلی حاول يقتل الرئيس جمال عبد الناصر ليلة ستة وعشرين يوليو. بعد ما خلص من عند الست حرمك، يا حسنين، مش كده؟». غلَى الدم في عروقه، ولكنه تماسك في اللحظة الأخيرة، وأجاب منفعلًا:

«يا فندي لو سمحت!. (صمت). بلاش!. (صمت). يا فندم المستشار الهضيبي ده راجل عظيم وأنا رأيي إنه مش ممكن يعمل كده!» فصرخ الضابط في وجهه غاضبًا:

- «رأيك؟ إنت فاكِر إنك هاتقول لي رأيك في الموضوع يا كلب يا ابن الكلب؟» وهنا اشتعل غضب الشيخ حسنين فلم يتمالك نفسه هذه المرة،

وانقضَّ على الضابط فجأة بجسده العملاق، فدفع به وبكرسيه للخلف فانقلب الضابط على ظهره وارتفعت قدماه نحو السماء، في حركة هستيرية مباغته، فصار يصرخ للعساكر من حوله أن يمسكوا بابن الكلب ذلك الذي تجرأ واعتدى عليه، بينما ضجَّ المساجين بالضحك من المنظر. فما كان من أحد الجنود إلا أن انقضَّ على الشيخ المسن، وفعل فعلته إكراماً لرئيسه وابتغاءً لمرضاته، وبابتسامة رضى فوق شفثيه كما ينبغي لأى مواطن صالح يؤدي واجبه على أكمل وجه.

ومات الشيخ حسنين، هكذا أمام جميع الحضور من المساجين، كما ماتت الضحكة فجأة وسقطت من فوق وجوههم. كما هشم الجندي الساذج رأسه، صُرعت ضحكاتهم وقتلت أحلامهم كلها، قتلها قهر العسكر وقلة الحيلة من جانبهم. لم يكن قائداً أو زعيماً طيلة حياته، ولكن سما الشيخ حسنين بموته إلى قامته البطل والشهيد بالنسبة إليهم. وبالرغم من إيمانهم به وبموقفه، وبالرغم من التفافهم حوله فقد مضى عنهم إلى الأبد، دون أن يتمكن أي منهم من أن يفعل أي شيء..

وتساءل محمد البوري في وحدته وتحت ثقل ظلمة الزنزانة وبرودة جدرانها إذا ما كان مستعداً الآن أن يحذو حذو الشيخ حسنين إذا ما تطلب منه الأمر أن يفعل..

أصرت إيلين أن يلتحق سليمان بمدرسة «سان مارك» بالشاطبي . مدرسة كاثوليكية خاصة وبمصاريف مرتفعة، ولكن داود أصبح الآن ميسور الحال وينبغي له أن يعلم ابنه أحسن تعليم . ومن ناحيته لم يعارضها داود وإن بقي تفكيره شاردًا بسبب موضوع السفر والرحيل عن البلد الذي بات يلح عليه، ربما هروبًا من قصته مع «قمر»، القابع كالجلبل فوق صدره، لا يستطيع معه نومًا أو تشاغلاً بعمل، وحتى العود والغناء والطرب لم تعد له رغبة بهم . ولا حظت إيلين ذلك التغير وإن لم تعتد أن تتدخل في أموره لو لم يفتحها هو أولاً بها . فآثرت أن تدعه وشأنه وتلتفت لرعاية شئون الأولاد والإشراف على الخدم من «عبد الطباخ» لـ «وليام السائق» ومن «عم حسن الجناني» لـ «الست نرجس» مديرة المنزل أو المربية، لا تعرف بالضبط، وزوجة سي وليام بسلامته! . وبالرغم من أنها لم تعد تمس أيًا من الأعمال المنزلية منذ أن انتقلت للعيش بالقصر إلا أنها وجدت أن الوقت لم يعد يكفي لقضاء حاجاتها اليومية، بل وأنها باتت تقضي وقتًا أقل بين الأولاد ومع داود . في منزلها الجديد كانت تشعر كالتائهة، تدور يوميًا بين الغرف وبين الخدم تأمر وتنهى، وهى تبحث عن شيء ما، عن نفسها التي تركتها مع شقتها القديمة أو مع مكاري هناك في محرم بك، أو عن الأولاد وحتى تتلاقى مع أحدهم - بمحض الصدفة - في ممر ما بين الغرف في الدور العلوي مثلاً، أو بإحدى

الشرفات، أو عند البهو الكبير في الدور الأول قادمًا من الخارج أو تاركًا المنزل، فيتبادلون كلمات مبتورة وُجلاً ناقصة تنسى هي - وينسون معها - أن يستكملوها عند لقاءاتهم العفوية التالية. وماتزال تزداد عزلة، وسمنة، وخمولًا مع الوقت، ففقدت تدريجيًا تلك الروح النشطة، فكانت تمضي معظم وقتها بغرفتها بالطابق العلوي، تزدرد قطع الحلوى، وتستمع نادرًا للراديو لأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وبعض أغنيات عبد الحليم حافظ وتصلي لأن يمنحها ربها من عنده سلامًا وفرحًا من جديد..

ولكنها لم تنس ملجأ العذراء الذي شهد أيام صباها وشبابها، أيام الفرحة الأصيلية النابعة من داخل القلب وسلام النفس الحقيقي، فغمرته بالعطايا والخدمات في السر ودون أن تعلن عن شخصها، خجلًا من أن يروا ما آل إليه حالها من تعاضم الحياة! أو ربها خوفًا من أن يحسدوها على ما هي عليه من رغد المعيشة، أو لأنها - وذلك كان ربما الأقرب للحقيقة - لم تستطع أن تقنع نفسها باستحقاقها فعلاً لتلك النقلة المسحورة، وخاصة أنها لم تجلب معها السعادة لها أو لأي منهم! لذا صممت أن ترسل سليمان لمدرسة «سان مارك» وليلى ومن بعدها منى إلى مدرسة «الأي جي سي» أو مدرسة البنات الإنجليزية (التي تغير اسمها فيما بعد إلى كلية النصر)، وأن تغمر الملجأ بالعطايا والهبات لعل في ذلك يكون السبب المكنون الغامض لديها، المطوي

سره إلى الأبد تحت غلالات المشيئة الإلهية، التي بسببها ومن أجلها انقلبت حياتهم هكذا رأساً على عقب!

فراغ قاتل تركه الشيخ حسنين وراءه، وفجوة في حياة داود عبد الملك لم يستطع أن يملأه العمل أو تشاغله بأمور الحياة من إدارته لشئون المصنع إلى رعايته لأسرته. وكأنه ثقب في جدار نفسه تسربت من خلاله أسباب السعادة، فحال دون أن يمتلئ قلبه بالفرح أو روحه بالرضى. أشعل سيجارة وهو يسير متفكراً، ما يزال يفتقد «الصدقة» التي كانت تجمعهما في العمل وحول الطرب والسهر، أو حتى التفكه بفعل سبائر الحشيش الملفوفة بعناية التي كان يتفنن الشيخ حسنين في إخراجها كأبهى ما تكون، بل ويتبارى بجودة صناعته بين أترابها الذين قد يتقابلون معهم خلال سهراتهم معاً فيدعوها متفاخرًا وهو يقف في وسطهم ويرفع بها بين أصابعه بحب وحنو في وسط مجلسهم فيقول:

- «وَسَّعَ يا جدع للعروسة!» بالمقارنة بـ «الشمطاء» أو «العرجاء» أو «الحزينة» التي قد يجسر أحد سواه أن يلفها في محضره. وجد داود نفسه يحمل عوده الصامت تحت إبطه ويتجه لمقهى الأسطى محمود القرش ذات خميس ليتنازع قطعة «مزاج» لعله يملأ به ذلك الفراغ الذي ينال منه أو لعله يفجأ بالشيخ حسنين جالساً هناك..

استقبلوه - والحق يقال - أجمل استقبال، بل وصاح الأسطى محمود بصبيه
 «الهن» أن يعيد تنظيم الكراسي بركن المقهى الداخلي لدواعي السلطنة! فقد
 هَلَّ الخواجة داود في ميعاده وقد اجتمع أهل المزاج والفن والفرفشة بالمقهى،
 فجلس بينهم وقد رسم صورة ابتسامة على صفحة وجهه، إذ لم يجد صديقه
 الغائب بينهم، وأخذ يعث بخاتمه الفضي حول إصبغه. ثم بدأ صوت المذيع
 ينبعث من موجات الراديو القابع بصدر المقهى، يُقدِّم من خلاله حفلة أم
 كلثوم الشهريّة - ولم يصدق داود أن فاته أن اليوم كان الخميس الأول من
 الشهر - حيث كانت تعزم كوكب الشرق أن تقدم أغنيها الجديدة التي يقول
 مطلعها:

شمس الأصيل دهبّت خوص النخيل يا نيل
 تحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل
 والنأي على الشط غني والقُدود بتميل
 على هبوب الهوا لما يمر عليل

وانساب صوت «الست» يجتاح كيانه فيغسله من كل بواذر تعثر، فحلّق
 معها عاليًا ثم مدَّ رجله من تحته وتحسس موضعها فوق الأرض من جديد،
 فشعر مجددًا بأنه قادر على مواكبة هذه الحياة بكل ما تحويه من متناقضات،
 حتى لو كان هو من يجلبها على نفسه بنفسه..

أيام وأيام تمر بها ولم تسمع من داود فانتابها شعور دفين بأنه لن يعود.
مرات ومرات مرت من أمام بيته وتطلعت بشوق نحو شقته لعلها تلمحه،
أو لعلها تبصر بصيصاً من ضوء ينبعث بها يعيد إليها الأمل. التفت حولها
غلالة سوداء كثيبة ولاحت نهاية مشوار علاقتها مع داود تطل إليها بإصرار
فتزداد ظلمة حياتها ظلاماً. أطلت عليها فكرة الموت - لا تدري من أين - تلح
عليها مرات ومرات. كم من مرة تباطأت قليلاً وهى تعبر الطريق لعل سيارة
قادمة تنهي عذاباتها إلا أن أبواق العربات كانت دوماً تفزعها، فتنتفض هاربة
عند آخر لحظة. بل ووقفت ذات يوم ذاهلة فوق شريط الترام العابر وقد لاح
لها طيف «أمينة» صديقتها تبسم لها وتلوح بيدها، إلا أن رنين جرس الترام
المدوي أفاقها، فاندفعت نحو السلامة لحظات قبل أن تكتسحها عجلاته
الحديدية..

ومع مضي الأيام ازداد إلحاح نفس الفكرة عليها بأن داود قد لا يعود
إليها أبداً..



الفصل الثاني عشر

تلتف أصابع الزمن من حولنا فتجمع الأصحاب تارة وتفرق بينهم تارة أخرى. وفي ميدان المنشية أيضاً، وعند انتصاف صيف عام ١٩٥٦، وبالتحديد في مساء السادس والعشرين من يوليو هبت نسمة لطيفة خفت من حرارة الجو وأضفت نوعاً من البهجة حول المجتمعين في الميدان، كما تجمعوا منذ نحو عامين. توافدت الآلاف من جديد، مدعويين من قبل أولي الأمر هذه المرة، ورجالاتهم المنتقين والمنتشرين بين جموع الشعب ووسط المصالح والشركات والمصانع، ومن بينهم داود عبد الملك، نعم. كحقيقة واقعة هذه المرة، ولم تكن شطحة من شطحات خياله كالتي انتابته قبل عامين. اجتمعوا في ذات الميدان ليستقبلوا الزعيم والقائد يلقي إليهم خطابه المرتقب بمناسبة أعياد الثورة وذكرى جلاء الجيش الإنجليزي عن مصر. كان «داود» قد تلقى دعوة للحضور من نقابة العاملين المثلة في شخص «عبد الحميد مصطفى» رئيس اتحاد العمال الشاب الذي يعمل في مصنعه، والذي كان يُذكره دوماً بابنه «فؤاد» الذي رحل عنه إلى إسرائيل قبل سنوات، ولم يعد

يسمع منه تاركا وراءه حرقه القلب لغيابه والحيرة والغموض عما آلت إليه حياته. وجاء «جمال» في موكبه الرائع تلفه عاصفة من التصفيق وتقدم نحو المنصة وسط نداءات الجماهير بصيحاتها الجهرية، وبدأ يتكلم عن التغييرات التي ألمت بمصر في السنوات الأخيرة، وداود يتفكر في التغييرات التي ألمت به شخصياً في السنوات الأخيرة! وتأمل داود الناس من حوله وأبصر في عيونهم ذلك البريق المبهج الذي جمع فيما بينهم، وشعر داود بفرحة لوجوده وسطهم يتشارك معهم تلك اللحظة التاريخية (كما كان قد أدرك فيما بعد). وأعلن «جمال» في نهاية الخطاب عن تأميم شركة ملاحه قناة السويس لتصبح شركة مصرية، وسط هتاف الجماهير المحتشدة. إلا أن داود - وبالرغم من إعجابه الشخصي بجمال - لم يستطع أن يمنع عنه تلك الغصة التي انتابته لما تفكر به من احتمال انتقام فرنسا وإنجلترا المتوقع وأين سيؤدي هذا بالثورة التي كانت ما تزال بعد تخطو أولى خطواتها في إدارة شؤون البلاد. وقف يصفق مع المصفيقين ولكن خاف داود على الثورة ومن أجلها، وخشي على كفاحاته الوطنية ومشاركته لعبد الناصر أفندي والشيخ حسنين إياها من أجل مصر أن تضيع هباءً، وربما أدى به ذلك التوتر الداخلي لأن يصفق بحرارة «أقل» أو أن يهتف بصوت «أدنى» من باقي الجماهير من حوله، وإذا به يفاجأ باثنين من رجال الحرس يقفان بالزي العسكري عند جانبيه، اقتربا

منه فوراً عقب انتهاء الخطاب، وتلاصقا بكتفيه، حين همس إحداهما في أذنه أن يتبعهما، فسار مذعنًا دون أن يتردد وتبعهما في صمت، دون أن يتساءل حتى عما كان قد اقترفه من ذنب، لأنه شك، بل أيقن - في قرارة نفسه - بأنه لم يرحب فعلاً بذلك القرار كما كان ينبغي له أن يرحب به وإن كان يتساءل لو كان قد بدر منه فعلاً ما يوحى بعدم الترحيب، وكيف تسنى لهم أن يدربوا مثل هؤلاء الرجال إلى هذا المستوى من الكفاءة، التي تتيح لهم أن يلتقطوا بها أنفه التصرفات الموحية عن أفكار قد تدور بذهن المواطنين. ثم انبته فوراً إلى أنهم قد يدركون الآن ما يدور بفكره فيزداد معه عقابهم إياه، فتوقف فجأة عن التفكير..

في غرفة بمبنى عادي، في واحدة من العمارات المحيطة بميدان المنشية أو ميدان «محمد علي» كما يسمونه، دخل داود أولاً ثم تبعه واحد من الحارسين اللذين أتيا به بينما بقي الآخر خارجاً. غرفة بسيطة الأثاث وكأنها حجرة مكتب محام صغير أو محاسب قانوني في شقة متوسطة الحجم، يغلفها الظلام بشكل عام وعند المكتب جلس ضابط وأمامه أباجورة مشعة بهالة من الضياء - هي مصدر النور الوحيد بالغرفة - تنعكس فوق وجه حاد الملامح مُنكبَّ على دفتر كبير أمامه منشغل عنه بالكتابة، بدا لداود لأول وهلة أنه كان يعرفه أو على الأقل قد تلاقى وإياه من قبل. ألقى إليه بالتحية العسكرية

ثم انصرف الحارس الذي كان قد جاء به. وفعلاً لما كَفَّ الرجل القابع أمامه عن الكتابة ورفع رأسه نحوه تذكَّره على الفور؛ «كامل فياض» صديق جمال عبد الناصر الذي لاقاه بسان استفانو، ذلك الضابط الذي كان قد قدَّمه له قبل الثورة كرئيس الحركة بالإسكندرية والوجه البحري على ما كان يذكر، فابتسم قليلاً مدرِّكاً سهولة مأموريته الآن في إقناع هذا الرجل بحسن نيته وبمحبته واحترامه للرئيس الذي كان هو شخصياً شاهداً عليها عند لقاءهما الأول، حتى وإن كان لم يصفق لقراره بتأميم القناة - فعلاً بالقوة المطلوبة..

وقف داود أمام المكتب منتظراً دعوته له أن يجلس على أحد المقاعد الخشبية المرصوفة من حوله من نوع تلك التي تؤجرها من محلات الفراشة لإحياء فرح، أو عزاء لميت، ذكره منظرها بصديقه الشيخ حسنين، فلاح له طيفه وتساءل عما يكون حاله عليه في تلك اللحظة بالذات. ولما رفع الضابط أخيراً وجهه نحوه وقد ألبسه بمشروع ابتسامة مصطنعة، أشار إليه بأن يجلس قائلاً:

- «اتفضل اقعد يا خواجه داود». ثم ضغط على زرار أمامه ملاً رنينه الغرفة كلها، فانفتح الباب وفوجئ داود بأن الداخل لم يكن إلا العامل الشاب «عبد الحميد مصطفى» الذي كان قد دعاه لحضور خطاب الرئيس جمال، وأما هو فحياً الضابط الجالس تحية عسكرية أيضاً، ثم أوماً بجديته

لداود - صاحب المصنع الذي كان يعمل به - دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة، وبعدها اتخذ المقعد المقابل له وجلس صامتاً وغابت نظراته مشتتة بأنحاء مختلفة بين الضابط والأوراق أمامه وبين جدران الغرفة، ولكنه تعمد ألا تلتقي أبداً بعيني داود. ساد السكون النسبي في الغرفة - إذا ما تغاضينا عن هدير الجماهير الآتي من صوب الميدان - لبرهة من الوقت، قطعها كامل فياض قائلاً بلهجة رسمية، وموجهاً كلماته لعبد الحميد الجالس قبالة كالكلب المخلص حيال سيده، والذي كان ينظر إليه منتظراً أية إشارة أو إيماء منه تدعوه لأن يتحرك من مكانه:

- «إحنا متشكرين قوي يا عبد الحميد، وسيادة المقدم فاروق التابعي هايبقى يتصل بيك بعد يومين علشان يبلغك بقرار الخواجة داود، ودلوقت تقدر انت تتفضل مع السلامة». فهبَّ الشاب من مقعده مؤدياً التحية العسكرية ثانية، ثم استدار منصرفاً دون أن تتلاقى نظراته مع داود أيضاً. وانشغل عنه الضابط ثانية يكتب بعض الكلمات في دفتره وعاد الصمت فارضاً ترقبه وحذره حول المكان، ولكن لما لم يتقبل داود استمراريته الثقيلة قطعه متسائلاً:

- «قرار إيه ده إلي سيادتك قلت عنه لعبد الحميد يا فندم؟». لكن استمر تشاغله عنه لفترة وجيزة ثم رفع كامل فياض رأسه عن دفتره وقال بابتسامة عريضة:

- «قرارك - طبعًا - يا خواجه داود!». وهزَّ رأسه متخابثًا وعاد لدفتره.
شك داود في أن الموضوع لا يتعلق بتصفيقه الفاتر حيال موضوع التأميم،
فعاد يتساءل وقد ملأه الفضول:

- «أبوه يعني بخصوص إيه يا فندم؟». فأجابه على الفور وكأنه يغير سياق
الحديث:

- «إنت مش فاكرفي ولا إيه يا داود؟» قهقهه الرجل بضحكة فجأة عالية
ثم قام من مقعده ودار حول المكتب حتى وصل إلى المقعد الذي كان يشغله
عبد الحميد من قبل وجلس عليه وما يزال يضحك مصوبًا نظراته نحو داود
الذي ارتسمت فوق وجهه ابتسامة بلهاء ملؤها الحيرة عما يثير الضحك في
تلك الكلمات السخيفة التي نطق بها الرجل حتى الآن. ولكنه أجاب رغمًا
عنه:

- «طبعًا فاكرك يا فندم. البكباشي كامل فياض، ولا دلوقت زمانك بقيت
أميرالاي ما شاء الله!»

- «اللواء كامل فياض يا خواجه داود، (أميرالاي) و(بكباشي)، الألقاب
بتاعة زمان دي راحت لحالها خلاص، ولا إيه؟؟»..

شعر داود بأنه يخضع من قِبَل الضابط لتحقيق - غير رسمي طبعًا - إذ غاب عن الغرفة من يدوّن الأقوال بصيغة السين والجيم مثلاً، ولكن ملأ المكان ذلك الشعور بالاستنفار والتعالي والنبرة العدائية من قِبَل المحقق، والشعور بالدونية عند المتهم الذي عادة ما يصاحب التحقيقات الرسمية. أخرج علبة سجائره من جيب السترة ماذا رأسه للأمام ومتسائلاً بنظراته عما إن كان مسموحاً له بأن يدخن، ولكن الرجل قال له بلهجة قاطعة:

- «لأ بلاش، أصلي عندي برد ومش مستحمل دخان السجائر ده». لاحظ داود علبة سجائره الملقاة على ظهر المكتب بجانب منفضة السجائر المملوءة بكعوب منطفئة، فأدرك أن المسألة شخصية، وأنه يسعى لأن يستفز مشاعره ويضيق الخناق من حوله. ولكنه أبى أن يمكنه من ذلك. إنها إذن لعبة مدبرة ولا بد له أن يخوضها بحذق وإلا خسر! تساءل عما كانت قلة حماسه لقرار تأميم القناة يستحق كل ذلك! ولكنه تذكر السؤال الذي كان الرجل قد طرحه من قبل، فوضع علبة السجائر في جيب سترته في هدوء وأجابه عن تساؤله ببشاشة قائلاً:

- «طبعًا يا سيادة اللواء الألقاب بتاعة زمان، وكل حاجة من ريحة زمان، خلاص ولت من زمان! مشيت وراحت لحالها! ما هو عشان كده (زمان) بقى اسمه العهد البائد!! المهم نرجع بقى للنهارده، ما قلتليش بقى

سعادتك عن سبب استدعائي هنا الليلة وعن القرار إليّ هايعرف بيه عبد الحميد مصطفى ده يبقى بخصوص إيه؟»..

- «بخصوصك طبعًا يا خواجه!»

- «تقدر تقول لي (داود)، يا فندم. أنا مش خواجه!»

- «لكن الناس كلها عارفة إنك (الخواجه) داود. مش كده ولا إيه يا (خواجه داود)؟».

أدرك داود مأربه من خلال كلماته الاستفزازية، فأثر الصمت وابتسم. ليس موضوع تأميم القناة، ولكن كامل فياض كان له بالمرصاد، كان يمارس الضغط عليه وعلى أقرانه من اليهود الذين بقوا في البلد حتى يرحلوا عنها. فالمواجهة بين مصر وإسرائيل أصبحت وشيكة، وخاصة بعد صفقة الأسلحة التي حصل عبد الناصر عليها من تشيكوسلوفاكيا، ووجود اليهود على أرض مصر أصبح يهدد الأمن القومي لإمكانية تجنيدهم من قبل إسرائيل، وخاصة بعد فضيحة «لاقون» الشهيرة - أو پنھاس لاقون وزير الدفاع الإسرائيلي - التي كانت قد ملأت الأسماع وتصدرت عناوين الصحف منذ بضعة أيام حين انفجرت بعض المفرقات في مكتب بريد في الثاني من يوليو بالإسكندرية، ثم في الرابع عشر من يوليو في المركز الثقافي الأمريكي بالقاهرة والإسكندرية، وتمّ القبض على «روبرت داسا» اليهودي المصري

بعد أن انفجرت قنبلة بالخطأ في أحد جيوبه، فتبينت السلطات المصرية أن المخابرات الإسرائيلية قد قامت بالعملية بمساعدة يهود مصريين جُندوا خصيصًا لأجل تنفيذها، فاستقال على إثرها وزير الدفاع الإسرائيلي. ولكن على أي حال لم يرد سيادة اللواء فياض أو أحد من القيادات أن يصطبغ ذلك الضغط بأى شبهة من العنف، مراعاة للمظهر العام الذي رأت الثورة أن تبدو عليه، وداود عبد الملك بالذات كان صديقًا للرئيس ولوالده، فكان ينبغي أن يتعامل معه بكل حرص وحذر لئلا تتفاقم الأمور. قال له معاتبًا:

- «إنت زعلت ولا إيه ده أنا باهزر معاك يا راجل!.. استغفرتك أكثر تلك الإجابة وشعر بأن الرجل كان أكثر مهارة في إدارة اللعبة مما كان قد تحسب، فعقب داود وقد بدأ الانفعال يزحف فوق ملامحه:

- «مش هأين عليك تقولها؟ (يا راجل) برضك؟ مش قادر تنطق اسمي (داود) من غير ما تسبقه بـ (خواجة) بتاعتكم دي؟ تقوم تقول لي يا راجل؟. بقى بزمتك يا شيخ ده شكل خواجة؟» وأمسك بوجتيه قابضًا بهما بين أصابعه وأضاف بهدوء مفتعل مصحوب بنبرة سخرية:

- «بص كويس واحكم سيادتك، وأنا راضي باللي تحكم بيه! بقى بدمتك دي سحنة خواجة دي؟» ولكن زاد انفعال داود من هزلية الموقف في عينه من جديد، فضحك الضابط كامل - الذي أصبح (الآن) لواءً بجيش مصر

- بعصبية، إذ كان لا يمكن أن يسمح لذلك الرجل الحشرة أن يفعل أمامه هكذا! - حتى لو كان صديقًا للرئيس - ضحك أيضًا نفس الضحكة العالية الفجة المشوبة برائحة الريف والطين وروث البهائم، ضحكة الحقول المفتوحة المترامية تتراقص الضحكة من فوقها وتبتعد حتى تختفي فلا يرجعها صدى ارتطامها بجدار قائم من حولها..

- «شوف بقى يا داود يا عبد الملك، إنت راجل كبير وفي سن والدي، وأنا بصراحة عاوز أساعدك، ومش هأين عليّ أشوفك متبهذل! لو كنت عاوز تسبب البلد زي قريك (بنيتي باشا) ما سابها، أنا ممكن أساعدك تباع مصنع الدخيلة، والفيلا، والعربية - بسعر كويس جدًا - وأدبر لك جوازات السفر للعيلة كلها - من غير (قمر) طبعًا - علشان تخرج وانت معزز ومكرم وفلوسك في جيبك تعرف تعيش بيهم (ملك) برة مصر!» وعاود قهقهته المستفزة، تملأ الغرفة جلبة رخيصة وهو يعيد على مسامعه بين جلجلات ضحكاته بلكنة متناغمة:

- «بس بشرط من غير قمر!.. واللييلة تسوى إيه من غير قمر!.. يا اللي سبت نجوم الدنيا علشان قمر!»

أدرك داود قواعد اللعبة أخيرًا!

يلوحون له بمعرفته بكل شئونه العامة والخاصة ويغلفونها بلهجة تهديد - بل وبفضيحة!! - إذا ما أصرَّ أن يعارضهم ولم ينصع لرغبتهم في أن يترك البلد! ولكن ما الذي يدفعهم لمثل ذلك الفعل المشين ولماذا الإلحاح عليه أن يرحل؟ لا يدري..

الشيخ حسنين وإخوانه المسلمون أولاً، ثم كامل فياض وضباط الثورة الآن؟. لا يمكن أن يكون ذلك القرار صدر من جمال عبدالناصر شخصياً فهو يعرفه جيداً ولا يمكن أن يقرَّ بذلك. ولا بد له إذن من مواجهته بنفسه ليعرف منه رأيه في ذلك الأمر..

- «طيب تسمحي بمهلة أفكر يا فندم؟»..

- «أسبوع كفاية؟»

- «شهر يا سيادة اللواء!.. شهر. الموضوع مش سهل بالمرة. ده قرار صعب ومحتاج تدابير وهايتوقف عليه مصيري ومصير ولادي»..

- «وقمر؟ قصدي أقول الست أم لطفي. على فكرة حييت أقول لك

تبليغها إن طليقها - وصاحبك - حسنين البصري، تعيش انت!..»

ماذا قال؟ مات؟ الشيخ حسنين مات؟ ولكن كيف؟ ولماذا؟. وكأنه يقرأ

أفكاره، استمر «كامل فياض» في سرده الخالي من أي انفعال وكأنه يحكي له قصة مسلسل شاهده على شاشة التلفزيون:

- «أصله كان يحاول يهرب من السجن، فطلعوا عليه الولاد بتوع الحراسة، موتوه!..» وابتسم بخبث وغمز له، ثم أضاف:

- «البقية ف حياتك انت بقى!!» وقام ومن جديد دار حول المكتب ليجلس خلف المكتب بمواجهته ثم قال:

- «وبلغني كمان إنه اندفن هناك في الصحرا وعلى حساب الحكومة يا عم! إبقى بلغ المدام انت بقى على راحتك على بال ما يوصلها الجواب في البوسطة. خلاص يا خواجه داود قدامك شهر تفكر!». وبسط كفيه فوق صفحة المكتب معلناً له أنه انتهى من كلامه، وبأن المقابلة معه قد انتهت..

«مات؟»

«بهذه السرعة؟»

«الله يرحمك يا شيخ حسنين ويرحم أيامك!»

استأذن داود وانصرف وهو يغالب دمه حتى لا يفرّ أمام الرجل الغريب، وهو يعبث بالخاتم الفضي حول إصبعه في عصبية متسائلاً عما إذا كان قد فقد مفعوله السحري!..

«مات؟؟»

وفوق درجات السلم المظلمة لم يستطع داود أن يكتم مشاعره أكثر فوجد نفسه ينتحب، وقد غمر الدمع صفحة وجهه. بكى الشيخ حسنين الذي مضى عنه ثم لم يلبث أن بكى نفسه وقد عزموا الأمر على أن يرحل هو أيضاً..

تمت المدة التي كان ينبغي لهم أن يقضوها بليمان طرة بعد أن صدرت ضدهم الأحكام بالسجن، وبعد إعدام ليف من قادتهم، عودة وفرغلي وهنداوي، الذين كان يعرفهم شخصيًا، إلى جانب صديقه الشيخ حسنين، بالإضافة للآخرين الذين لم يكن يعرفهم، فبكاهم كلهم ليالي طوالاً شاعراً بالفراغ المخيف الذي تركه رحيلهم عنه. ثم رُوي أن ينقلونهم من سجن «طرة»، إلى سجن «الخارجة» في وسط الصحراء الغربية. وبالرغم من كونه يبعد نحو مائتين وأربعين كيلومتراً عن مدينة أسيوط داخل الصحراء، إلا أنه اعتبر سهل الهروب منه، حيث كان عبارة عن مجموعة من الخيام يحيط بها سور من الأسلاك الشائكة. وعليه فتمّ نقلهم - من جديد - إلى سجن «قنا» الحصين، الشديد الحراسة. هكذا كالقطيع يساقون من مجزرة إلى مجزرة، وحتى يحين موعد الذبح!

«تحيا الثورة!»..

سرح بهذه الأفكار ذهن «محمد البوري» وهو قابع بالزنزانة المكتظة بالنزلاء وقد اكتسى جسمه كله بالعرق اللزج، واتخذ له ركنًا وجلس مقرصًا وعيناه شاخصتان نحو النافذة الوحيدة في العنبر المزدهم. عبر شعاع عينيه قضبانها الحديدية السوداء، نحو السماء الصافية الزرقة من وراء مبنى السجن وجدرانه، التي تبخر عنها - بفعل تلك الحرارة الفظيعة - كل شائبة تشوبها،

وأى تجمع سحاب فرّ هاربًا من قيظها شمالاً نحو مدينته الرائعة والحبيبة التي افتقدوها: الإسكندرية! حيث زوجته زينب وأبناؤه الثلاثة محمد ومصطفى والصغيرة ميّ. وابتسم بالرغم من كل ما كان يحيط به من أسباب تدعوه - بل وتلح عليه - أن يبكي وأن يكتب أو حتى - والعياذ بالله - أن يتحرّ ويستريح!. ومع ذلك فقد ابتسم لما تذكر «محمد» ابنه الأكبر وما حدث له قبل أن يأتوا به إلى هنا. مدّ عنقه وأداره من حوله وألقى نظرة من حوله وكأنه ينتقي من بين المساجين ذلك الرجل الذي سوف يستمتع معه حين يقصّ عليه قصته مع ابنه البكري، ولكنه لم يجد ذاك الصديق المختار بعد أن رحل الشيخ حسنين عنه وتركه وحيدًا ليس له من يشاركه في أفكاره وخواطره. فاكتمى بأن أغمض عينيه سارحًا في ما حدث يوم أن نادى «محمد» ابنه أن يتبعه إلى حجرة الصالون ذات صباح وكان عيد الأضحى على الأبواب، وخروف العيد قد قبع في الشرفة الملتحقة بالحجرة يأكل من برسيمه في هدوء منتظرًا نهايته المحتومة. أتاه الولد طائعًا إلى حيث كان يجلس على الأريكة المذهبة بالغرفة، فأجلسه بجانبه، وربت على كتفه قائلاً له مبتسمًا إنه قد تمتع برؤيا نورانية ليلة الأمس!. اتسعت عينا الصبي مندهشًا فزاده مكملًا أن ملاكًا نورانيًا مجنحًا قد زاره في المنام في شبه حلم ليعلمه برسالة من عند الله - سبحانه وتعالى - طالبًا منه أن يذبح ابنه عندما يستفيق في الصباح، ولذلك

دعاه إلى أن يتحدث معه في حجرة الصالون. اتسعت ابتسامته لما تذكر كيف تراجع ابنه في مجلسه، متسائلاً في براءة عما إن كان الملاك كان قد أعلمه بالضبط عن أي من أبنائه كان قد سأله أن يذبح! فأجابه على الفور ابني البكر طبعاً. فتراجع الصبي أكثر حتى صار ملتصقاً بمسند الأريكة، وسأله إن كان قد نطق باسمه صراحة، أي ذكر اسمه «محمد» أم أنه ربما كان يقصد أن يذبح «مصطفى» لأنه كان دائماً ما يتسبب في المشاكل ويغضب والده! انفلتت ضحكة مبتورة منه وهو يتذكر كيف قفز الولد من فوق الأريكة لما قال له إن الملاك قد قال له أن يذبح «محمد»، فدفع الصغير الباب تاركاً حجرة الصالون، ثم قالت له «زينب» زوجته فيما بعد إنه جرى نحو غرفة النوم وهو يصرخ في وجه أخيه الأصغر أن يقوم على الفور ويتبعه إلى خارج المنزل حيث إن أباهما قد جاءته رؤيا أن يذبحهما! هو أولاً، «ثم لابد وأن يذبحك أنت أيضاً يا مصطفى من بعدي لأنك أساساً ولد عفريت وأفسدك تدليل أمك لك. يبدو أن الرجل قد جُن!». وفعلاً هبَّ الاثنان معاً وفي لمح البصر كانا قد اختفيا إلى خارج المنزل، مُخْتَبِئِينَ بالشوارع المحيطة، بعيداً عن (سكين) أبيهما الذي كان قد أمره ربه أن يذبحهما به!! ولم يُعِدْهُمَا إلى البيت بعد ذلك إلا «الأسطى سالم» الكواء عند رجوعه من تسليم شغل عند شارع الفكهاني حيث كانا واقفين على الرصيف، لقيهما في طريقه وهما يتابعان

مباراة لكرة القدم تجري في وسط الشارع!. ابتسم محمد البوري متفكراً:
أولاد عفاريت!! بالقياس بالملك الصغيرة ميّ، وآه من ميّ! وعيون ميّ!
وشعرها الهائش وهي تجري بخطواتها البريئة المتعثرة من حجرة إلى حجرة
بشقتهم بالحضرة، تملأ المكان بكلماتها المضغومة الغامضة التي لا يفهمها
سوى ابنه محمد. ابتسم وابتسم. ثم قهقهه ضاحكاً فتابعته عيون الإخوة من
حوله متعجبين من ضحكاته وسط ذلك البؤس المحدث بهم، ملاحقين إياه
بالدعوات لأن يحفظه العليّ سبحانه من الجنون!

كان قد غاب كلية عن حاضره. نافضاً عن ذهنه تلك الرائحة العفنة
لهذه الأجساد من حوله التي لم تغتسل أو حتى تقترب من الماء منذ ثلاثة
أيام، وتلك (العفريتات الزرقاء) المبرطشة بدوائر العرق المحاطة بحواف
بيضاء من الملح المجفف، وتلك الوجوه العفنة والرموش وفروات الرؤوس
واللحي المكسوة بالتراب، الذي حلّ فوقهم من وقع أقدامهم تدب فوق
الأرض النضبة الصحراوية صانعة هالة من القذارة من حولهم، سيقوا
خلالها عبر رحلتهم الشاقة وتنقلاتهم بين عربات اللوري وعربات القطار
طيلة الأربع والعشرين ساعة الماضية. وبقدرة الفنان الخلاق بدّل كل ذلك
في مخيلته برمال وأمواج شاطئ سيدي بشر الذي كان يعشقه، بنسمة الهواء
الحاملة لرائحة البحر المنعشة في طياتها، التي تنساب فوق الأمواج الراقصة

لحظة الغروب، وهو واقف هناك وفرشاته في يده يرسم ويرسم ويرسم،
وملاً أنفه وصدره من ذلك الهواء النقي في شهيق ممتد، انتهى فجأة بموجة
حادة من السعال انتابته، مع إحساس بالغثيان جلب الدمع لمقلتيه..

قرر الثورة على ذلك الواقع، بينه وبين نفسه كأقصى ما كان يستطيع من
تغيير ومن دون أن يتعرض لعنف السجانة وبطشهم؛ قرر أن يعاود الرسم!
لو لم يستطع أن يقترب بنفسه من الحلم، فينبغي أن يأتي بالحلم إليه ويجلبه إلى
حيث هو قابع! ولو في «قنا»!!

- «بوسطه!»

تلقت قمر النداء المصاحب لطرق الباب بإجفائة انتزعتها من تقطيع البصلة
في يدها، فمسحت دموعها - من تأثير رائحته اللاذعة - بطرف ذيل قميص
المنزل الذي كانت ترتديه واتجهت نحو باب الشقة تستطلع الخبر. كما نستشعر
أحياناً وجلاً لا ندري كنهه حيال حدث أو لقاء ما، شعرت قمر بشعور خفي
بعدم الراحة تكللها تلك الطرقات التي تبدو عادية للوهلة الأولى. ولكنها
منذ يومين تتمم بينها وبين نفسها «خير! اللهم اجعله خيراً!» كلما طرق الباب
طارق، وكلما تعالت صيحات الأطفال وهم يلعبون في الشارع أمام بيتهم،
وكلما نما إليها صراخ بوق سيارة من ناحية شارع السوق أو صوت عجلاتها

تصفر فوق الطريق، تشهق وتقول: «اللهم اجعله خيراً!». وكم امتلأت ليلة الأمس بالكوابيس المزعجة التي أضجت مضجعتها عشرات المرات، والتي أعزتها لطبق البامية المثقل بالثوم، الذي كانت قد أكلته على العشاء من قبل أن تنام مباشرة، بالرغم من إلحاح أمها المستمر عليها بخصوص أكل البامية قبل النوم، وذلك الصوت الداخلي الذي كرر تحذيره لها وإن لم تُصغ إليه!. لم تكن مستعدة لأن تطرح هذا التساؤل على نفسها بعد، ولكن داود أيضاً لماذا لم تعد تسمع منه؟ منذ أسبوع أو أكثر لم تره أو تلمح ولو ضوءاً ينبعث من شقته حين مرت بها ولعشرات المرات خلال مشاويرها لقضاء حاجيات بيتها في الأيام القليلة الماضية، حتى إنها كادت تُجنُّ!.. ولكن، وبما أنه لم يحدث شيء يؤكد هواجسها خلال اليومين الماضيين، قالت قمر لنفسها ألا تكثرث لمثل تلك الأصوات بداخلها، التي أعزتها للوسواس «الخناس» برأسها، وهي تمدُّ يدها - بعد أن مسحتها في ثوبها - إلى مقبض الباب وهي تلويها ولا تزال تقول مرتاعة:

- «خير! اللهم اجعله خيراً!»

- «صباح الخير، السيدة قمر حسين السكري؟» قالها شاب رفيع طويل القامة ذو ابتسامة لطيفة تضفي آدمية وطلاوة على زيه الرسمي، وطاقيته المدفوعة للوراء بحافتها الرخيصة اللامعة جعلته يبدو أشبه بكمساري الترام أكثر من عسكري قسم الشرطة، وقد حمل حقيبة جلدية مليئة بالأوراق

والخطابات المتراسة عمودياً، برزت جوانبها عندما رفع غطاءها الجلدي المطوي أمامها ليخرج الدفتر العريض المهترئ المليء بالخطوط الطولية والعرضية، ثم أخرج ورقة الكربون السوداء ووضعها بعناية شديدة بين ورقتين بالدفتر..

- «أيوه يا خويا أنا قمر. خير؟» ناولها مظروفاً ممتلئة صفحته بالطوابع والأختام، حتى وكأنهم لما وجدوا أنه لم يعد يخلو منها أى جزء بواجهته بعد، قرروا أخيراً تسليمه إياها..

- «اتفضلي امضي بالإستلام هنا. ولا تحبِّي تبصمي؟» وأشار بإصبعه إلى مربع أسفل الصفحة وعند نهاية سطر قرأت قمر اسمها مقيداً في أوله، فأمسكت هي بقلمه وكتبت اسمها الثلاثي، ثم تناول منها الدفتر وسألها بدوره عن رقم بطاقتها، ولكنها لم تكن تحمل بطاقة شخصية، فدوّن هو ذلك في الدفتر ثم أعاد وضعه في حقيبته وأعاد غطاءها حازماً جانبيه بتأنٍ وربت على الحقيبة مرتين برفق معلناً عن إتمام مهمته، ثم ابتسم متمهلاً ولكنه أدرك أنه لن يحظى منها بأي بقشيش، فاستدار وانطلق يعدو فوق درجات السلم مسرعاً ليلحق بمهمته التالية..

سحبت هي أحد الكراسي الملتفة حول مائدة الطعام في وسط الصالة عند الناحية المقابلة لحيث كانت تجلس وهي تقطع البصلة وتقلّم الخضروات

لإعداد طعام الغداء، وجلست تفض الظرف عن الخطاب وهي تبسمل مرتجفة. وفي صمت وتأنٍ قرأت كل حرف بالخطاب الموجه إليها من وزارة الداخلية، وبإمضاء اللواء الفلاني رئيس مصلحة السجون، ينعى إليها بكل أسف موت طليقها الشيخ حسنين....

«مات؟»

«لا. بل قتل!»

«الشيخ حسنين لا يهرب أبداً!!»

«قتلوه!»

«لا لم يقتله سواي! أنا التي قتلتها. أنا!!»

«أنا من دفع بالخواجة داود لأن يشكوه عند الحكومة. لأنه ضربني!!»

بهذه الخواطر اشتعل ذهن قمر ولم تستطع السيطرة عليها. وفي غمرة الكآبة التي كانت تسبح في لجتها أياماً، لم تتجاسر أن تدفع عنها تهمة القتل واستسلمت لذلك التيار القهري يحملها فوقه إلى مصير تجهله. وبكت، وبكت، وبكت حتى ذبلت عيناها من طول البكاء، بكت الشيخ حسنين أولاً لأنها قتلتها! نعم قتلتها، وهبطت سحابة سوداء وكأنها من السماء فشملتها من قمة رأسها وإلى أخمص قدميها، ولم تستطع أن تغلت من قبضتها، حزن غير

عاديّ امتلك روحها فبكت أيضاً، ووجدت نفسها غير قادرة عن أن تكف عن البكاء. إعصار من البكاء والحزن اجتاح كل مشاعرها، ولكنها بدلاً من أن تستجمع رباطة جأشها، وجدت نفسها فجأة تنزلق بل وتمعن في الهبوط وبسرعة نحو تلك الهوة العميقة التي كانت قد بدأت تنحدر إليها. بدأت تستحضر وجه «أمنية حلمي» صديقة عمرها، وهي تعدو خلفها وتصرخ نحوها أن تقف، أن تلتفت إلى الترام القادم، وتصرخ وتصرخ، بينما تطير أمينة كالمجذوبة نحو نداء غامض يهيب بها ألا تتوقف وألا تنظر ناحية العجلات الحديدية برنينها المدوي وصراخ قمر يدفعها أن تعدو ووجهها الجميل مُلتوٍ للخلف، ملتفت بل ومشدود ومثبت بفعل قوة سحرية كالمغناطيس تجذبه نحوها هي، وتعلو وجهها تلك الابتسامة الغامضة التي ألقته إلى قمر وكأنها تودعها بها، أو كأنها تُعلمها بأن سرهما سيقى خفياً إلى الأبد!..

نعم سرهما الذي طالما أرق مضجعيهما!. فكيف كان لواحدة منهما أن تواجه الحياة الطبيعية المنتظرة منها بعد أن ذابت عشقاً تجاه الأخرى، وبعد كل تلك القبلات والملاسمات والأحضان وارتجافات الحب المحمومة التي اعترتها لسنوات طوالٍ، اختلتا خلالها ببعضهما لساعات وليال طوال. تعاشقتا وتعاهدتا مرات ومرات فيما بينهما أن يبقى حبهما سراً وإن دام للأبد!. شعور رهيب هو مزيج من الخوف من الفضيحة لو تسرب ولو جزء

من سرهما عند الأهل أو الجيرة، ومن عذاب النار الآتي - وهو أقل ما كانتا تتطلعان إليه إزاء غضب الله الواحد القهار - حيال ذلك الفسق والفجور الذي كانتا ترتعان فيه. ومن ناحية أخرى طفقت علاقتهما السرية المتنفس العاطفي الأوحـد المتاح للفتاتين المراهقتين الطافر قلباهما بالحب بكل ما يحمله من نشوة القرب من الحبيب واللهفة للقائه بل والتوتر والقلق لغيابه وجفائه، مع استحالة مبادلة هذه العواطف مع شاب من الجنس الآخر لتزمت حديدي كانت عائلتهما تتمتعان به. ومع ازدياد تقاربهما انقلب استكشاف عواقب اللعب بالنار إلى اكتوائهما بها، فتحولت مشاعرهما إلى حب جارف مجنون عصـف بحياتهما معًا. كانت قمر متأكدة من أن ذاك الحمل الثقيل قد ناء به قلب أمينة الصغير الرقيق، فلم تعد تحتمل الحياة مُحفّية إياه في قلبها ونفسها بعد!! نعم، بقي سرهما محفورًا في قلبيهما ولكنه مع ذلك ظل مخفيًا عن بقية العالم إلى الأبد، وإن لم تستطع قمر، رغم كل تلك السنين التي ما تزال تعدو بها، أن تنسى وجه أمينة المطبوع بتلك البسمة المحبة المودعة، تلك البسمة التي توقف عندها زمنها واستكان.

ولم تستطع قمر أن تمحو الجرم أبدًا! ذلك الوخز الذي شعرت به يومها والذي يبتأها الآن، والذي عاودها مرارًا بطول السنين، بمسئوليتها هي عن موت أمينة، حبيبتهـا، كما تشعر بنفس الوخز لمصرع الشيخ حسنين، زوجها! قتلت أمينة حين أحببتها وسحرتها بعاطفتها المتأججة، وحين صرخت بها أن

تحترس فتلفت لصوتها هي بدلاً من أن تبصر بنفسها الترام القادم فتنجو!
قتلتها!! ثم قتلت زوجها حينما طلبت من عشيقها أن يقتله عنها، فهي قاتلته
أولاً وأخيراً، فما كان من داود أن يخدشه لولاها هي! قتلته!! ولو استمر بها
الحال هكذا فكم سيكون لها من ضحايا أيضاً!! ألم تكن تعتزم أن تقتل الست
إيلين الطيبة الأميرة المستكينة التي طالما عطف عليها وأحبها، باختطاف
زوجها منها، ولطفي ابنها بعد أن ألقت بأبيه في التهلكة ثم انصرفت عنه
أيضاً ساعية من أجل زوج جديد!!

«قاتلة!»

«قاتلة!!»

«القاتل يُقتل ولو بعد حين!!»

ترددت تلك الأصوات تطن برأسها دون توقف، ودون رحمة أو إشفاق

بها..

فجأة هبت قمر من فوق كرسيها دافعة إياه خلفها بمؤخرة ساقها فوقع،
ومضت هي صامته نحو المطبخ، ثم انثنت على ركبتيها تحت حوض الغسيل،
ورفعت الستارة القماش المتلفة حول قاعدته، وهدوء سحب الزجاجة البنية
اللون لحمض الفينيك الذي تستخدمه للتنظافة وقبضت عليها بكل قوتها ثم
وقفت ثانية.

ظلت واقفة للحظات كالمسحورة ثم استدارت خارجة من المطبخ، واتجهت نحو غرفة النوم حيث رقد طفلها لطفي غافياً عند جانب السرير عند ناحية الحائط، فمالت فوقه وقبلته برفق لئلا توقظه. جلست قمر عند طرف السرير لدقائق وقد غشيتها تلك السحابة من العدم فاستسلمت لها، وانتابتها موجة من التلذذ بسطوتها عليها، فلم تحاول أن تبذل أي جهد لتجنبها. لم تكن تفكر في شيء محدد، بل ولم تعد ترى الأشياء من حولها بوضوح وكأن غشاوة ضبابية قد ملأت الغرفة قبالها. ثم رفعت فجأة الزجاجاة إلى فمها وتجرعتها كلها عن آخرها وكأنها زجاجة مياه غازية، ثم بهدوء أحكمت وضع الغطاء بفوهتها من جديد، ثم وضعت الزجاجاة الفارغة فوق الكومودينو بجانبها، وهى ترمقها بنظرة متسائلة. ثم رفعت رجلها وهى تدور لتستلقي فوق السرير بجانب لطفي، وألقت إليه نظرة أخيرة وابتسمت، ثم أغمضت عينيها ونامت..

ترأت لها عمارة عالية اندفعت نحو مدخلها ثم دلفت كالمنصاعة وبدأت تتسلق درجات السلم الرخامية وهى تتأمل فخامتها وتتعجب من تركيبها الحلزونية الصاعدة في وسط المبنى. وفجأة انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة فساد الظلام.. ومن ناحيتها فقد تشبثت قمر بيديها الاثنتين فوق الدرابزين واستمرت في الصعود والظلام ما يزال مُطْبَقاً فلم تبصر معالم أي شيء من حولها. بدأت تشعر بالتعب الممزوج باليأس من نهاية لصعودها حين تراءى

لها وجه سيدة مضاء صفحته - بالكاد - بنور شمعة يتراقص في يدها، فتحت باب شقة في أحد الأدوار التي مرت بها في صعودها، وتقدمت السيدة - التي بدت ملاحظها مألوفة لديها شديدة الشبه بأمها وإن كانت أصغر منها بكثير - ومدت يدها الحاملة الشمعة لتعطيها لقمر وقد علت وجهها ابتسامة وإن لم تتكلم. ولكن ريجاً هبت فأطفأت الشمعة وغاب ضيها المنعكس على وجه المرأة فاخفتت.. كانت تلك الإطالة كافية لتطمئن قمر فاستمرت في الصعوداً وقد زال عنها التعب فجأة حتى صارت تركض فوق الدرج يدفعها فضول طفولي لمعرفة ما سيؤدى إليه هذا السلم الحلزوني. انساب من بعيد صوت غناء وعود الخواجة داود يهمس، وهىء إليها أن التيار الكهربائي قد عاد حيث أضاء مصباح معلق بقمة المبنى رفعت إليه رأسها ولكنها لم تستطع أن تتبين تفاصيله إذ كان ما يزال بعيداً عنها، ولكن انعكاس ضيئه المريح فوق الجدران كان كفيلاً بأن يبعث طمأنينة وسلاماً في قلبها شجعها على المضي فيما كانت بصدده من الصعود نحو ذلك الضوء المعلق بأعلى المبنى. وكلما اقتربت أكثر من قمة المبنى كلما اشتدت حدة دائرة ذلك الضوء المبهر، الذي لم تستطع من فرط بريقه ولمعانه الفريد، أن تتبين معالم بقية الأشياء من حولها. وربما كانت تلك المشاهد المبهمة هي آخر ما قد علق بذاكرتها..





الفصل الثالث عشر

تجمّعت السحب الرمادية من جديد فوق سماء الإسكندرية مُنذرةً برحيل الصيف بأيامه الحارة اللاهبة وأماسيه الطرية المبهجة، وحلول فصل الخريف. ولكن الخريف هذه السنة بالذات له طعم متميز. مزيج متشابك من مرارة الحنظل ومن حلاوة الشهد، كما تتتابع الأيام الحارة والباردة بحسب تجمع السحب وهبوب الرياح الآتية من الشمال.. ومن الشمال جاءت النكبة الجديدة أيضاً..

أسراب من الطائرات البريطانية والفرنسية تحلق فوق سماء منطقة القنال، فيما يتساقط وابل من الجنود المعلقين في كبد السماء بمظلاتهم المهولة، تلفظهم من جوفها طائرات عملاقة تحوم حول مدينة «بورسعيد» عند رأس القنال. بينما تزحف من الشرق الدبابات والجنود الإسرائيلية تنتشر عبر صحراء سيناء، مدعمة بستار من القذائف الجوية توائم تقدمها حتى تنتشر فوق كل أرض مصر شرق قناة السويس. كارثة! لا، بل مهزلة دولية في صورة عمل عسكري بهذا الحجم للرد على خطوة جمال عبد الناصر العنترية لتأميم القناة!. مرارة الحنظل!..

ثم ماذا عن الشهد إذن؟

الشهد جاء من استبسال أهالي مدينة بورسعيد الذين هبوا للدفاع عن بلدتهم بالعصي والطوب وبقلوب ملؤها الحب لبلدهم، وبالشجاعة والبطولة التي لا يردعها إلا الموت! نعم حركة مقاومة شعبية تلقائية بطعم الشهد! لم يكن شهداً صافياً مُصَفًّى حقاً، ولا كان إنجازهم نصراً بأي حال، بل هكذا طالعنا الجرائد والأخبار في كل يوم تشيد بكفاح وعناد أهل بورسعيد الذي ردع عنهم عنوان المعتدين. فليس من الشجاعة بشيء أن يثور الفأر في وجه الأسد وأن يكيل له اللكمات ثم ينتظر رد فعله بكل شجاعة، فيستبسل للذود عن حقه من بعدها. أظهرت الأيام لي أنني كنت محقاً عندما خشيت من قرار تأميم القناة الذي أعلنه جمال بالمنشية، فها هي ذي عاقبته تحرق بالثورة وبمصر. لم يستحق تلك الميتة كل من مات في بورسعيد على أيدي الفرنسيين أو البريطانيين، أو في سيناء على أيدي الإسرائيليين، ولم يؤدّ استبسال من بقي منهم إلى توقف الحرب، بل ولم يُنْهَها سوى تدخل أيزنهاور - الرئيس الأمريكي - شخصياً وأمره لحلفائه بالانسحاب الفوري. وهو لم يفعل ذلك لكونه رجل المبادئ العظيمة، بل لدرء الزحف الشيوعي عن المنطقة والذي كان قد بدأ فعلاً بدليل تهديد «بورجانين» لفرنسا وإنجلترا. ولكن على أي حال، كانت تلك الأزمة بمثابة أول اختبار حقيقي لمدى شعبية الثورة

واستثار جمال عبد الناصر - زعيمها وقائدها - بقلوب الناس ونجحت معركة بورسعيد في التعبير عن ذلك النجاح..

راحت كل تلك الخواطر تجوب في ذهنه في مسيرته، وتنبه هو عندها في أنه لم يتكلم مع أي أحد منذ أربعة أيام. نعم، آخر مرة تذكر أنه لفظ بأي كلمة كان يوم الإثنين الماضي!. وابتسم لذلك الخاطر. ثم خطرت قمر في ذهنه فعاتب نفسه لأنه لم يسأل عنها لأسبوعين، ولا حتى ذهب لشقته بمحرم بك..

«ماذا يمكن أن يدور بذهنها عني الآن؟ رجل ككل الرجال، يأخذ من المرأة ما يريد ثم يلقيها عنه». ولكنه ليس كذلك، ليس ككل الرجال، سيذهب إليها ويشرح لها كل شيء، وحتماً ستفهم بدورها موقفه..

مضى داود عبد الملك يتسكع سائراً على كورنيش الإسكندرية في ذلك الصباح الخريفي الدافئ، أحب فصول السنة إلى قلبه، حين تخلع مدينته عنها لباس «المصيف» وتعود المدينة الساحلية الساحرة الهادئة بعد أن غاب عنها ضجيج المصيفين وجلبتهم. لم يذهب للمصنع منذ أربعة أيام، بعد زيارة «عبد الحميد مصطفى» له في مكتبه يوم الإثنين الماضي. كان قد أتم مقابلة مع رئيس الحسابات أعلمه فيها أن الأرباح قد عادت للارتفاع بعد الكبوة التي مرت بها عند انتقال إدارته من يد الباشا إليه، ولكنه بدأ به وذكائه - مع

مساعدة حفنة من المخلصين له - أدرك أسباب الهبوط في مستوى الإنتاج، وبسرعة تداركها فارتفعت من جديد معدلات الأداء وعائداتها. وإذا بالباب يطرق ومن خلال مواربته أطل وجه عبد الحميد الذي ما إن أدرك أنه وحده حتى دخل على الفور إلى غرفة المكتب وأغلق الباب من ورائه..

قال إنه جاء حاملاً رسالة له من فوق! ولما نظر ساخرًا نحو سقف الحجرة سألته عن ذلك «الفوق» أجابه بتعالٍ وأنفة أنه مرسل من طرف اللواء كامل فياض شخصيًا، وكان ذلك ما توقعه داود بالضبط. سألته عن محتوى الرسالة فأجابه الشاب - بوقاحة هذه المرة - أن سيادة اللواء شخصيًا يريد أن يتنازل نهائيًا عن ملكيته للمصنع لمصلحة اللجنة العمالية. ابتسم داود لصفاقتها - اللواء صاحب الرسالة ومبلغها إياه - متسائلًا بسخرية عما يمكن أن يدعوه لأن يفعل ذلك؟ فما كان من عبد الحميد إلا أن بادره بكل ثقة بأن المصنع ليس ملكًا له على أي حال وإنما ملك للشعب بعد أن أمرت «الثورة المجيدة» بتصفية أموال الإقطاعيين وإعادة أملاكهم للشعب، وحيث إن المصنع كان ملكًا لبنوتي باشا أحد إقطاعيي البلد، فتتول بالتالي ملكيته للثورة وللشعب. أجابه داود وهو يبذل كل الجهد للاحتفاظ بسكنته ورباطة جأشه، بأن بنوتي باشا قد باعه المصنع بعقد بيع موثق، وهو بالتالي مالكة الحقيقي، وبما أنه ليس من الإقطاعيين فلا يحق لهم أن يطالبوا به. اعتقد داود أن إجابته

كانت شافية فربما لم يكن سيادة اللواء الذي أرسله يعرف أن ملكيته للمصنع كانت بموجب عقد موثق، إلا أن عبد الحميد فاجأ بمستوى من الصفاقة لم يكن يتوقعه حين سألته عن مصدر المال الذي تأتي له من خلاله أن يتنازع مصنعا يقدر ثمنه بخمسين ألفاً من الجنيهات! ومن خلال ضحكة فجأة - ذكرته بالرجل الذي كان قد جاء حاملاً رسالته - سألته عن عدد الأفراح وليالي السبوع وأعياد الميلاد التي كان قد أحيائها ليتسنى له أن يجمع المبلغ! أم أن أحداً - لسبب أو لآخر - كان قد همَّ بإقراضه المبلغ بضمان وظيفته مثلاً! أو أن يكون قد اضطر لرهن العود حتى يشتري بثمانه مصنعا بخمسين ألف جنيه! صفاقة وقلة أدب لا حد لها!. ملأت قهقهته الوقحة جنبات الحجرة، فهبَّ داود من كرسيه دون تردد وطرده من مكتبه في الحال، ولكن بعد أن أبلغه برسالة مقابلة لرئيسه، قل لسيادة اللواء أن يتعد عن طريقي ليؤثر السلامة، ويلتفت - ربما - لمضايقة من هو قادر حقاً على مجابته، مهدداً إياه بما كان يمكنه أن يفعل به. ولكن أثارته تلك المقابلة فعلاً، إذ كان صبره على لقاء «جمال» ثانية قد قارب على النفاد. وكانت تلك الكلمات آخر ما كان قد تفوه به ولأربعة أيام التزم خلالها الصمت..

أثناء مسيره بدأ داود يشك في أن هناك من يتبعه. وقع خطوات من خلفه تتناغم في وقعها مع سرعة خطواته، ولم يدر لها بالاً أولاً بل تجاهلها

تماماً ونسيها وسط زخم الأفكار التي كانت تعصف بذهنه، ولكن إصرار الخطوات وملازمتها له بدأ يضايقه، فقرر الإسراع في خطوته أماً في أن يشيئ إسرعه صاحبها ولكن لاحقته إيقاعاتها، ثم فجأة توقف واستدار متحدياً.. وقف أمامه شاب لا يعرفه ولا أوحى إليه ملامحه بأية مشاعر تجاهه، شاب يكاد من جانبه أن يكون بلا ملامح أو انفعال وكأنه شبح أو خيال. وقف الشاب قبالة صامتا لا يلوي على شيء وكأنه قد تلقى أمراً فقط بأن يتبعه، نسوا بعدها أن يطلعوه عما يفعل في حال إن لحق به. بادره داود بالسؤال بعد أن أصرَّ هو على صمته:

- «نعم؟ أى خدمة؟» تماهى إلى ذهنه لحظتها أن تلك كانت أول كلمات ينطق بها منذ أربعة أيام، ولكنه لم يجبه أولاً ثم بعد لحظات، وكأنه تذكر فجأة الرسالة التي كان يحملها، تكلم بصوت أجوف مبحوح وكأنه لصبي على أعتاب المراهقة:

- «الشيخ فودة طالب يشوفك» تذكر داود الاسم على الفور، إنه الرجل الذي أفقد صديقه الشيخ حسنين صوابه فأدى به للسجن ثم الموت، فانتابته قشعريرة إزاء تلك الفكرة، فسأله:

- «وعاين يشوفني ليه؟ وإن مين أصلاً؟». وهنا تجرأ الشاب، وارتفعت نبرة صوته المبحوح وبدا له أنه الآن يخطو فوق أرض مألوفة لديه:

- «مش مهم أنا مين يا خواجه داود، تقدر تعتبرني رسول الشيخ باعته
علشان يبلغك الرسالة، لكن لو تحب أنا ممكن أقول لك أنا ماجد عبد الحميد
أو جابر محمود عطية أو أى إسم تاني مش هاتفرق لأن الرسالة هي الأهم.
أما سؤالك عن الشيخ فودة عايز يشوف حضرتك ليه، فده موضوع أكبر من
شأني أن أعرفه كمجرد مرسال ما بين سيدنا الشيخ وبين حضرتك..»

- «طيب خلاص، ما تمشيش ورايا تاني وخليني أفكر في الموضوع
وهابقى أشوف طريقة أرد بيها على الشيخ فودة»

التقط داود علبة سجائره من جيبه وأشعل سيجارة..

- «تفكر إيه يا خواجه داود، سيدنا الشيخ عايز يقابلك دلوقت، وهو
باعطني أجيب حضرتك وأوصلك لحد عنده. الشيخ فودة ده راجل كله بركة
ومعرفته مكسب مش خسارة. إتكلم انت بس على الله ويللا بينا!..»

- «صباح الخير يا أولاد، أنا اسمي «مسيو ناثن» مدرس الفصل هذه
السنة، وسأكون دائماً بجانبكم كأب لكم تستطيعون اللجوء إليه في أى
وقت. قد تستغربون لغتي، ولكن تلك هي لغتنا العربية التي سنتحدث بها
في حصة اللغة العربية حتى تتعلموا قواعدها الصحيحة، مثلما سنتحدث
باللغة الفرنسية في حصص أخرى لتتعلموها أيضاً. والآن سنبدأ أولى

دروس اللغة العربية بأول حروفها: الألف وهو عبارة عن خط رأسي هكذا»
وأمسك بقطعة الطباشير ورسم ألفاً فوق صفحة السبورة الخضراء. وألقى
الطفل سليمان بنظرة خاطفة نحو صديقه الجديد «يوسف» يستطلع وقع تلك
الكلمات العجيبة عليه، فوجد أنه - مثله - يحاول جاهداً أن يكتم ضحكاته،
فالتفت سريعاً للأمام قبل أن تفلت منه هو ضحكته بالرغم منه، فيستحق
غضب المسيو ناثان العملاق العجوز الذي كان يروح ويحيي أمامه يلوح
بعصا طويلة بيده لا تتلاءم - لطولها وتعوجها ولونها القاتم، وكأنها شومة
بيد فتوة من الفتوات - مع بدلته الصوف الإنجليزي الأنيقة ذات الصديري
الذي تتدلى منه سلسلة ذهبية تنتهي بساعة مخبأة بجيب صغير، يخرجها منه
مرات متتابعة ليستطلع الوقت في حين يتكلم معهم بتلك اللغة الغريبة والتي
تختلف تمامًا عن حديث أمه، أو الأسطى «وليام» السائق، أو عم «عبد»
الطباخ، أو الرئيس «حسن» الجنائني معه. لغة مستحدثة على أذنيه الصغيرتين
وعالم جديد يخطو إليه بأولى خطواته، وملؤه الشوق في أن تنكشف له
أسراره..

- ثلاث كلمات تبدأ بحرف الألف هي أول كلمات نبدأ بها» ثم كتب
وهو ينطق بكل كلمة يكتبها:

«أقرأ» «أفهم» «أعمل»

- «حروف الهجاء هي مفاتيح اللغة، تتيح لكم أن تدخلوا إلى عالمها فتقدروا أن تقرأوها. ولكن أن تقرأ يجب أن يكون مصحوباً بفهم ما تقرأه حتى تستطيع أن تعمل بما قرأت، مفهوم؟ والآن، من منكم يستطيع أن يأتينا بكلمة أخرى تبدأ بحرف الألف؟»

وهكذا أمضى سليمان اليوم الأول له بمدرسة «سان مارك». طفل جميل ورث جمال أمه ونقاء بشرتها، وذكاء أبيه وسرعة بديته، فعَلَتْ وجهه المليحة قسماته ابتسامة لطيفة وهو يطوف بعينه العسليتين الواسعتين في صمت ذلك العالم الجديد الذي دُفع به إليه. لم يبك كما بكى بقية الأطفال عندما تركتهم أمهاتهم عند باب المدرسة الحديدي، بل انتابته حالة ممتعة من الفضول والرغبة في الاستكشاف. جذبه ذلك الكم الهائل من الأطفال الذين ذكرهم ازدحامهم وجلبتهم بشقتهم القديمة بمحرم بك، حين تجمعوا في الفناء الواسع لأول مرة بزيهم الموحد متبعثرين أولاً، ثم عند دقات جرس نحاسي مهول ملاً صدها جنبات الفناء تخلله توجيهات صوت جهوري قادم من خلال مكبرات للصوت، آتٍ من مصدر مجهول، شبَّ على أطراف قدميه الصغيرتين مرات ومرات يحاول تحديد مكان صاحبه دون جدوى، فحسبه أولاً «صوت الله» الذي كان قد كلم به «موسى» عند قمة الجبل بسيناء، كمثل ما كان أبوه قد حكى له عنه، ولما كانت لهذا الصوت سطوة وإمرة نافذة

لتوجيههم كيفما شاء. ثم فوجئ سليمان بتلك الحشود الهائلة من الأطفال وقد بدءوا يتحركوا بتلقائية منفذين لتعليماته بحذافيرها، هؤلاء الغرباء المتباينو الألوان والملامح الذين شكَّ هو في أنهم يتكلمون نفس اللغة، انبهر بكونهم قد انتظموا هكذا، تحت تأثير قوته السحرية، إلى طوابير يقف عند رأسها مدرس كل فصل حاملاً لشارة ملونة، يحمل مثل لونها بيده شارة وزعت على كل طفل في ذات الفصل. وما زال صوته الجهوري يدوي، ثم بدأ يتحدث بلغة غريبة - عرف بعدها أنها الفرنسية - وحتى العربية التي كان يتكلم بها أولاً استعصت عليه أحياناً وقد غابت تفاصيل كلماته وأدغمت مخارجها لما تردد صداها عن مباني المدرسة العملاقة تحيط بالفناء كالأصراحة تنتظر في صمت متى يتسنى لها أن تبتلع كل هؤلاء الأطفال بملاحظهم البريئة إلى جوفها. وازداد اتساع عينيه وبريقهما كما تسمرت البسمة فوق صفحة وجهه، وقد انعكس شعاع شمس الصباح الوردي فوق وجنتيه..

اقتربت الساعة من السابعة والنصف مساءً، وأحاطت بجدران الزنزانة لوحات زيتية تقبع فوق أرضيتها، وترتكب بيأس على حوائطها عيون حزينة لبائعي الفول المدمس، ولأطفال يلعبون، ولرجل قابع على الكورنيش خلف سنارة يغوص طرفها في مياه البحر في انتظار الرزق. وجوه وعيون تطلُّ من

كل ركن تتساءل عن مصيرها، وجلس «محمد البوري» على طرف سريره الحديدي يتأمل تساؤلاتها حائرًا يبحث معها عن إجابات. قام من مجلسه وفَرَدَ قطعة قماش - كانت في الحقيقة إحدى قماشات الرسم التي وفرتها له إدارة السجن - فوق أرضية الزنزانة، وتوجه نحو القبلة وشرع يصلي صلاة المغرب. كان يتوضأ مرة واحدة في اليوم خلال الدقائق القليلة المتاحة لهم لاستعمال دورة المياه الوحيدة بالطابق كله، ثم يحرص طوال اليوم أن يتجنب أن يمسّ أى شيء يمكن أن ينقض وضوءه حتى يستطيع أن يصلي طوال اليوم دون الحاجة لأن يعيد الوضوء. وكانت تلك الممارسة في حد ذاتها تشغل في الواقع مساحة كبيرة من ذهنه فتعيّنه - على غرابتها - على إمضاء الوقت الذي كان يعد أكثر العقوبات إيلاّمًا لروحه في ذلك السجن. الوقت. صخرة من صخور «سيدي بشر» القابعة أمامه وهو يصارعها بطول اليوم لينقلها من عند أول شعاع ينير زنزانته وعند طرف آخر شعاع يتركها، كفاح وقتال مستميت يستغرق كل قطرة حياة، من أجل أن يحرك صخرة الزمن تلك، ورحلة تبدأ عندما يفتح عينيه قبيل الفجر ولا تنتهي حتى «يسقط» نائمًا عند آخر اليوم، ليعاود رحلته من جديد في الغداة. ومع تكرار المشوار وتشابه الأيام وتعاقبها الممل فقدّ الإحساس بالزمن، بل ربما يكون قد أفقد نفسه ذلك الإحساس لثلا يمسّه الجنون!

سمع طرقاً خفيفاً على الباب، الذي انفتح ليطل وجه الشاويش حجازي معلناً:

- «عندك ضيوف يا سي محمد»

ثم تراجع عن مدخل الزنزانة ليفسح الطريق لرجل غريب وأغلق الباب وراءه، مسجون مثله يرتدي (العفريّة) الزرقاء، طويل القامة أصلع الرأس حليق الذقن والشارب، ذو أنف مهول يملأ صفحة وجهه وقد حمل فوقه نظارة سميكة ما كان لأنف أقل شأنًا من قدرة لأن تحملها. دخل تسبقه يده الممدودة للتحية، وكرشه يهتز أمامه وشبه ابتسامة تلوح وهو يقول:

- «مساء الخير يا أستاذ بوري، أنا رشاد فكري، زميلك في (الجناح) إلي جنبك، وحكولي باقي الزملا عن رسوماتك بما إني كاتب وشاعر - زي ما سيادتك يمكن تكون عارف - فجيت لك علشان أتعرف بحضرتك وأتفرج على شغلك». سمع حديثه إليه ولكنه كان ما يزال يترنح في دائرة الاكتئاب المحيطة، فمرت كلماته دونها تأثير. ولما لم يجد أية رغبة في نفسه لأن يعلق على كلماته أو حتى يرد عليه التحية، التزم الصمت، وإن أخذ بيده يصافحه بدوره بحركة لا إرادية، خالية من أية مشاعر. وراح المدعو «رشاد فكري» يجوب حوله وقد عقد ذراعيه فوق صدره وأحنى رأسه متأملاً اللوحات الراقدة بهدوء عند أرضية الزنزانة، يقف عند بعضها ويمسح بأصابعه فوق ذقنه

مهمهما بكلمات مدغمة ثم يستكمل دورانه، هكذا عدة مرات حتى إنه ربما قد تفحص اللوحات أربع أو خمس مرات، وهو ينظر إليه دون أن يحاول حتى أن يقيم للمشهد اعتباراً، ثم أخيراً تكلم المدعو رشاد فكري بصوته الهادئ العميق:

- «حاجة جميلة. الشغل ده لازم تشوفه الناس كلها يا أستاذ بوري»..
وبالرغم من كون الخريف قد وضع أدرجه - رسمياً على الأقل - إلا أن «قنا» كانت ما تزال تسبح في غمار الصيف وقيظه، تشهد بذلك حرارة الجو والرطوبة اللزجة التي تحيط بهما. وبالرغم من ذلك كانت ريحٌ ثلجية قد هبت بداخله من حيث لا يدري أين، أنعشت روحه ونفسه، متزامنة مع وقع كلماته عليه، أفاقته ولو مؤقتاً من غيبوبته الداكنة، ولكنه - مع ذلك - تساءل في ريبة عمّن يكون رشاد فكري هذا، ولماذا يدعوه «بوري» هكذا وليس «محمد البوري» كما يدعوه باقي الخلق؟





الفصل الرابع عشر

سار داود بجوار الشاب الغريب صامتًا. بطرف عينه كان يراقبه وقد انحدرًا من شارع «فؤاد» إلى شارع ضيق متفرع من الطريق الرئيسي. لم يزل يتساءل عما يدفعه لأن يتبع ذلك الغريب نحو مكان مجهول وسط ذلك الصمت المريب، ومن الذي يضمن له سلامته خلال تلك الرحلة الخفية العواقب. ولكنه الفضول لمقابلة الشيخ فودة ومعرفة لماذا طلب هو أن يراه أصلاً. تجمعت السحب من فوقه فأضفت لونا رمادياً داكناً فوق الناس والأشياء من حوله فزادت من توجسه، وعند منتصف الطريق سبقه الشاب بخطوة أو اثنين ثم عرج إلى داخل إحدى الحوانيت المتراسة بطول الطريق صائغاً:

- «السلام عليكم! الأمانة وصلت!!».

تبعه داود إلى داخل المحل، ورجع صدى صوته فارغاً، فجلس الشاب على مقعد خشبي موضوع بجوار الحائط الأخضر المزين بأية مذهبة تتوسطه وقرأ كلماتها «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً». وقف داود إلى جواره وتبين له أنه

محل سمسار، حيث دار حوار بين رجلين حول شقة ثلاث غرف كان أحدهما
يبغي تأجيرها. وإذا بشاب يدخل المحل ويرمي السلام على الموجودين فرد
الجميع بهمهمة، ثم مدَّ يده ليسلم على داود قائلاً بنبرة واثقة:

- «يللا بينا، الشيخ في انتظارك».

فنظر داود باتجاه الشاب الأول الذي أوماً إليه ثم هبَّ فجأة من فوق
كرسيه وقام وترك المكان متجهاً ثانية إلى ناحية شارع فؤاد، في حين تعلقت
نظرات الوافد الجديد بـداود يتفحصه مبتسماً، ثم أعاد كلماته متسائلاً هذه
المرة:

- «يللا بينا؟»

شاب لطيف أقل عمراً من الشاب الأول، وتطلَّ من عينيهِ السوداوين
الواسعتين لمعة ذكاء تميزه عنه، كما كان - على عكس الأول - متكلماً فبادره
بمجرد أن غادرا الدكان قائلاً:

- «صحيح يا خواجه داود إنت يهودي؟»

نظر إليه داود مبتسماً لمباشرته في طرح سؤاله وقال:

- «طيب مش تقول لي الأول إسمك إيه؟»

- «اسمي هادي مصطفى درويش، وطبعًا هاتقول لي - زي كل الناس ما بيقولولي - إنت شكلك كده مش هادي ولا حاجة، بس أهو اسمي بقى والسلام. وعلى العموم، كل الناس بينادوني بـ(ديدو)»

- «وعمرك كام سنة يا ديدو؟»

- «تسعتاشر وحضرتك؟»

- «أنا عندي ييجي اتنين وخمسين وشوية، إحنا باقي لنا كتير على ما نوصل؟» وكانا قد تخطيا ميدان محطة مصر ومرقا إلى شارع ضيق تصطف على جانبيه بيوت قديمة تبوح النقوش بأعلى مداخلها وطبقات الجبس برسمايتها الهندسية المتآكلة عند حوافها، وأشكال الزهور حول نوافذها، بالعظمة التليدة، والرونق الذي كان. ولكنها شاخت الآن، فوقفت ملتصقة الواحدة بالأخرى وكأنها تتساند بعضها على البعض من أجل البقاء في الوضع الرأسي، وقد انفض عن معظمها الطلاء فبدت الحجارة العارية من تحته تشي بعمرها المديد، كما تفضح من ناحية أخرى تلك البنايات المستحدثة، التي بدأت تستبدل تلك التي لم تقو على الصمود، بجدرانها الرقيقة من الطوب الأحمر المتراص بين عواميد الخرسانة، وقد عافاها الجمال، كما غابت عنها الصلادة التي منحتها إياها تلك الحجارة العتيقة..

- «مش خايف يا خواجه داود من مقابلة الشيخ فودة؟» سأله «ديدو» متخابثاً وقد اتسعت عيناه بنظرة باسممة..

- «أنا ما عنديش حاجة أخاف منها، وبعدين هو الشيخ فودة مخيف للدرجة دي؟» أجابه داود ضاحكاً. لم يجبه «ديدو» ولكنه قال:

- «نفسى أعرف مدى علاقتك بالراجل الكبير، الشيخ فودة بيقول إنك راجل واصل لفوق قوي، الكلام ده صحيح؟ صحيح حضرتك قابلت الرئيس بنفسه؟» سأله الشاب بصوت ينضح بالإعجاب والتملق..

- «السر كله في ده» ورفع داود إصبعه مشيراً إلى خاتمه المسحور ثم أضاف:

- «هو ده سرِّي يا ديدو. الخاتم ده هو وش السعد عليّ، ويفتح لي دائماً أبواب السعد قدامي. أنا هاحكيك الحكاية». وبتلقائية شديدة وعفوية لم يدر لها سبباً، بدأ داود يقصُّ عليه قصة الخاتم المسحور الذي كان قد جلب الشهرة والخط من قبله للشيخ سيد درويش البحر، ولجمال عبد الناصر، ثم أخيراً لداود عبد الملك، ولسليمان ابنه من بعده بعد عمر طويل!

وعند آخر الطريق وقفت بناية قديمة متميزة بارتفاع طابقين تحيط بها أشجار البلوط العتيقة، كما تنفر من بين عواميد سورها الحديدي الملتوية أفرع شجيرات الريحان المتغولة والتي يشي حالها بأن يداً بشرية لم تشذ بها

لأعوام طوال. كانت حتماً مسكنًا لعظيم في يوم ما، مدَّ «ديدو» يده ودفع
بالباب الحديدي الذي زحمت مفاصله الصدئة بصير كرية، ودلف هو
أولاً ثم تبعه داود، وأغلق ديدو الباب ثانية وراءهما. وكما توقع تبدت له
آثار الإهمال، فتفاحت أفرع النباتات لتغطي تقريبًا الممر الحجري المموج
والمؤدي إلى المدخل الرئيسي، وقبعت بوسط الحديقة نافورة مرمية جافة
مغطاة بطبقة ترايبية سميكة وقد تعلقت خيوط العنكبوت بأطرافها وتكاد
تغمرها أوراق النباتات الشيطانية النامية من حولها. ونبهت الأصوات التي
أحدثتها درجحة بوابة الحديقة الحديدية أهل البيت، فانفتح باب خشبي
ضخم عند رأس بضع درجات، وأطل وجهٌ من ورائه، ثم يدٌ أشارت لهم
بالدخول. لم يتمكن داود من استعادة سكينته المعهودة وهو يخطو بتردد فوق
الدرجات الرخامية المتمايلة المتآكلة بفعل الزمن، وقد تسارعت دقات قلبه
كالطبل في صدره، ولسان حاله أن يستدير ويعود من حيث جاء، بينما تقوده
قدماه - وفضوله - ليدلف متوجسًا إلى البهو المظلم من وراء الباب. وبينما لم
تتأقلم عيناه بعد عتمة المكان بالمقارنة بضوء الطريق في الخارج، بوغت بأيدٍ
تتفحص ملابسه وجذعه بل ورجليه باحثة عن سلاح مخبئ هنا أو هناك،
بينما تنامي إلى مسمعه تلاوة قرآنية حسبها بأذنه المرهفة أن تكون للشيخ
مصطفى إسماعيل، آتية من مصدر بعيد، ثم صرح صوت غليظ من وراء
ظهره يقول:

- «لا مؤاخذة يا خواجه داود، بس الاحتياط واجب» ثم أعلن الصوت ذاته لآخرين من حوله، لم يتحقق لداود من مكان تواجد أى منهم ولا عددهم لشدة الظلام المحيط:

- «نضيف زي الفل، يا رجالة، دَخِّلوه!»

وفعلاً قاده «ديدو» إلى ممر طويل بعمق المنزل ينتهي عند آخره بحجرة مواربة الباب، ينبعث الضوء من فتحته، دفعه فإذا بأريكة اسطنبولي مغطاة بمفرش أبيض ناصع وكليم من القطن الرخيص مفروش أمامها، وخلت الحجرة من أى قطعة أثاث أخرى في بساطة لا تتناسب مع فخامة المبنى، أو على الأقل ما كان عليه حاله ذات يوم. وكان يتربع فوق الأريكة شيخ يبدو في السبعين من عمره ذو لحية وقورة بيضاء وعينين رماديتين باهتتين، تتدلى من بين أصابعه مسبحة ويرتدي جلباباً أبيض ومن فوقه عباءة من الصوف كما أنه من عادة المسنين أن يستدفئوا ولو في عز الصيف. قابله الشيخ النحيل كالشجرة اليابسة بابتسامة مصطنعة تنضو عن الأسنان القليلة المتبقية وبصوت متهالك قال:

- «أهلاً يا خواجه داود، الحمد لله إلي كتب لي العمر لحد ما اقابلك يا راجل!»

مال ديدو نحو أذن داود منبهاً إياه أن الشيخ فودة ضعيف النظر، وإن كان يسمع بدرجة معقولة، ولكن عليه أن يقترب منه أكثر حتى يتسنى للشيخ أن يستمع إلى كل ما يقوله، فأوماً داود، واتخذ بضع خطوات حتى أصبح يقف في مواجهة الشيخ تماماً..

- «السلام عليكم يا شيخ فودة» فأمال الشيخ المسن رأسه هازئاً يمينه ويسرة ورد منفعلاً:

- «أما والله!. وكمآن بتحيني بتحية الإسلام، يا راجل يا فاجر!!» ثم سعل الشيخ سعلات متتالية من جراء حدة انفعاله.. لو كانت تلك هي مجرد البداية، فكيف يتوقع أن تكون نهاية هذا اللقاء؟ فكر داود في أن يقوم ويرحل، ولكنه خاف! أجل خشي عاقبة غضبة الرجل وأعوانه المتشرين في كل مكان من حوله، كما كان قد أعلمه بخوفه منه من قبل الشيخ حسنين يوم أن تقابلا مع الرئيس جمال أول مرة، فبقي ساكناً. لم يُعلم مخلوقاً عن مقصده، وحيث هو الآن، ولو حدث له مكروه فلن يتخيل أحد أنه هنا ولن يستطيع مخلوق أن يسرع لنجدته. إذن فليتنظر ليرى بنفسه ما سوف تتطرق إليه الأمور، فهو لا يملك الآن سوى الانتظار. لم يدر ما إذا كان عليه أن يجلس بجوار الشيخ أو أن يبقى هكذا واقفاً أمامه فلم يتحرك. تقدم «ديدو» من جانبه فقبل يد الشيخ ثم حياه منصرفاً مما زاد من ارتباك داود ووحدته. مرت

الدقائق ثقيلة والصمت يقتل أى بادرة ود قد تحوم من حولهما، وبقي داود ينظر ناحية الشيخ متفحصاً تجاعيد وجهه العميقة وانتابته حالة من الإشفاق عليه أنسته سوء موقفه للحظات، ثم تحرك الشيخ في مجلسه معتدلاً من قبل أن يبادر بالحديث قائلاً:

- «إنت إيه حكايك بقي يا سي داود؟ قول لي بصراحة كده عاوز منّا إيه بالضبط؟»

- «أنا؟ يا شيخ فودة ما تنساش إنك إنت إيلي طلبت مني نيجي لهنّا علشان نتكلمو معاك، يعني مش أنا إيلي عاوز منكم حاجة لا سمح الله»

- «من غير لف ولا دوران، أنا هانقول الكلمتين إيلي عاوز نقولهم علشان خاطر ربنا». وتنحنح في مكانه ثم أكمل:

- «بقي إنت ضربت صحبية مع الشيخ حسنين وبعدين بعته بالرخيص علشان تراضي الكلاب إيلي اشتروك، واهو مات الله يرحمه. وبعدين لعبت على الست قمر مراته لحد ما انتحرت هي روخره وراحت في ستين داهية بسببك!. وبعدين..» قاطعه على الفور داود بنبرة حادة:

- «إنت بتقول إيه؟ قمر بخير، أنا شفتها، لسة من كام يوم، وكانت زي الفل» فسعل الشيخ من جديد مقاطعاً:

- «لأيا سي داود قمر ماتت من يبجي أسبوع واندفنت كمان وآني حَضَرَت
دفتها بإيديّ دول. جالها خبر الشيخ حسنين من هنا وشربت قزازه الفنيك
من هنا»..

أصابه الدهول!

ما الذي يحدث من حوله وكيف تسير به الأيام إلى ذلك المنحدر الذي لا
نجاة منه. لابد أن في الأمر سرًّا! ولابد له من أن يعرفه. الآن!. هذا الشيخ
الأعمى القابع أمامه ليس بالضعف الذي يبدو عليه، ولكنه سوف يرغمه
على أن يفهم منه مكنون ما يحدث. لابد أن له ضلع فيما يجري من حوله،
فالمصائب لا تتأتى هكذا تلقائيًّا. لابد من أن تكون هناك يد خفية تدير مصائر
هؤلاء الناس، والشيخ فودة - إن لم يكن هو صاحب هذه اليد - فلابد أن
يدله بطريقة أو بأخرى على صاحبها.. ولكن عليه الآن أن يتماسك حتى لو
كلفه ذلك أن يمثل دورًا في تلك المسرحية!. فلماذا إذن هبت كل تلك الرياح
هكذا دون سابق إنذار تجاهه؟ وما هي علاقة عبد الحميد مصطفى وكامل
فياض بالشيخ حسنين وقمر وهذا الشيطان العجوز القابع أمامه لا يكف
عن السعال، لابد أنه يعرف تمامًا كيف يضع الأمور في نصابها فيفهم تلك
الألغاز!! وكأنه بسكين حاد، شق داود بسمه فوق وجهه المكفهر واستحضر
نبرة ضاحكة بادر بها الشيخ قائلاً:

- «أنا هانفضل واقف كده ولا إيه يا شيخ فودة؟»

- «اتفضل اقعد يا سي داود، هو انت عاوز عزومة يعني؟ دانت الود ودك

تشيلني وتيجي تقعد مطرحي هنا!»

- «ليه بس يا شيخ فودة التهمة دي؟ أنا عمر إيدي اتمدت على حاجة

بتاعتك؟»

- «الشيخ حسنين!! ده أول هام. وبعدين الست قمر!! آني مش عايز

نتكلم ونفتح في كلام مالوش لزوم!!»

إذن فهو يعلم بما كان بينه وبينها. ولكن لابد له أن يتأنى فلعله يلقي

إليه بطعم، يريد أن يتلعه فيبوح بسر لا يدري تفاصيله بعد، عليه أن يلتزم

الحذر تجاه ذلك الثعبان!

- «الشيخ حسنين - الله يرحمه - طول عمره كان أخويا وحبيبي ع الحلوة

والمرة، وزى مانت عارف آني إالي طلعت من الحبس، يعني لو كنت نقصد له

الأذية ما كنتش نطلعوه من أصله. والست قمر جت لي تشكي من رجوعه

للسكة البطالة دي من بعد ما رجعناه. يعني هو إالي جابه لنفسه وقطع بينا

الله يسامحه بقى!! أما الست قمر فدي أول مرة - ورحمة أبويا - أسمع بموتها،

الله يرحمها ويحسن إليها. ومش معقول يعني أكون أنا اللي رحت وشربتلها

الهاباب ده عشان نسْمُوها!»

- «شوف يا داود، من غير لف ولا دوران، اليهود من يومهم ما وراهمش إلا الخراب، من يوم ما خنتوا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولغاية النهارده. شوف يا بن الحلال قدامك حل من اتنين؛ يا تنطق بالشهادتين وتعيش في وسطنا مسلم زي أي واحد تاني، يا إما يا بن الحلال تاخذ قرشيناتك وتسيب البلد دي من غير مطرود. إحنا بصراحة مش مرتاحين لوجودك كده وسطنا!. وإن ما كانش، فذنبك على جنبك بقى!!»

تذكر داود على الفور كلمات اللواء كامل فياض وتعجب من تطابقها مع كلمات الشيخ، فازداد يقيناً في وجود سر ما يجمعهما، وأقسم لنفسه أن يكشف مكنونه فيما بعد، عندما يكون في وضع أقوى مما هو عليه الآن..

- «إنتم مين إلي مش مرتاحين لوجودي يا شيخ فودة؟» سأله وهو يعلم أنه لن يجد عنده الجواب الشافي..

- «إحنا المصريين يا خواجه داود!. من أول الإخوان ولحد العسكر. فيه عندك كلام تاني ولا قلت كل اللي عندك؟»

تعهد له بأن يتفكر في الأمر - كما كان قد توعد فياض من قبل - ثم استأذن منصرفاً. وجد ديدو ينتظره خلف الباب، وتنأى إليه صوت القرآن المرتل من جديد، فأسرع به ديدو إلى خارج المنزل وعند السور الحديدي سأله:

- «هاتعمل إيه يا خواجه داود؟» فنظر تجاهه وتأمل عنفوان الشباب والبراءة تطل من عينيه الواسعتين وأجاب:
- «والله مش عارف يا ديدو»..

غربت الشمس وغاصت خلف صفحة مياه البحر الممتدة، وتحت وطأة الإنهاك واضطراب المشاعر اتجه مباشرة للبيت. وبينما كان داود يخلع ثيابه في غرفته، كانت إيلين تلملم قطع الثياب وراءه الواحدة تلو الأخرى وتطويها بعناية لتضعها في الخوان، وقد انصرف هو يتلو عليها تفاصيل لقائه بالشيخ فودة والخيارين اللذين طرحهما عليه. وبقيت إيلين منشغلة بما كانت تفعله ولم تعقب على كلماته، وإن كانت تعبيرات وجهها الحزينة - التي لمحها داود بين كلماته - قد فضحتّها، فلمّا انتهى، بادرها بالسؤال عن رأيها فيما ينبغي له أن يفعل. لم تجبه إيلين، لا لم تنبس بحرف واحد وإن ملأها اليقين بأن ما آلت إليه حياتهم لم تكن إلا سلسلة من المصاعب، ولم يجلب لهم ذلك الخاتم (المسحور) سوى الغم والنكد. ولما غلب داود النعاس وسافر إلى دنيا النوم، تسللت إيلين وبخفة أخذت الخاتم القابع بكل براءة بجوار ساعة اليد فوق الكومودينو، فخبأته في عباها تحت فستانها بصديريتها، وهدوء غادرت الغرفة وأغلقت الباب..

تأثر «محمد البوري» بشدة لحماس الدكتور «رشاد فكري» لروحاته. انبهر بأن ذلك الرجل المثقف الذي حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة كامبردج - كما قال له - قد تنازل وجاء لزيارته وتأمل لوحاته مهماً أولاً ثم معجباً بها. قال له إنه وجد فيها تساؤلات كثيرة، مشوبة بالحزن الدفين الذي مَسَّ قلبه هو شخصياً، كما علق بأنه أمضى حياته - مثله - يبحث عن إجابة واحدة شافية فلم يجد. وعده أن يكلم مأمور السجن بصدها في اليوم التالي وخرج. وفي وحدة الزنزانة القاتلة شك بينه وبين نفسه في سلامة عقل ذلك «الدكتور» العبقرى، الذي رجح أنه يحتاج بدوره لدكتور نفساني ليجيبه عن كل تلك التساؤلات! ورمى ببصره يتأمل لوحاته من حوله باحثاً عن كل تلك التساؤلات التي كان يتكلم عنها فلم يجد أيّاً منها فاتتابته نوبة من الضحك المجنون. قام وصلى العشاء ثم اندفن تحت البطانية الصوف وأسلم جفنيه للنعاس..

وعند الصباح ووسط تجمهر حاشد وجد نفسه وجهاً لوجه أمام العميد رشدي إسكندر مأمور السجن و بجانبه الدكتور رشاد بصلعته اللامعة ونظارته الغليظة المتفحصة، اللذين دارا بين لوحاته لدقائق، أصدر بعدها سيادة المأمور أمره للشاويش حجازي بأن يحمل اللوحات بعناية وينقلها إلى غرفة ملحقة بمكتبة السجن، أمر بأن تكون معرضاً فنياً للوحات «البوري»!

أسقط في يده! معرض للوحاته! هذه الخربشات الحقيرة فوق قطع القماش تترقى فجأة هكذا لتتبوأ تلك المكانة الشاهقة! لابد أن في الأمر التباساً. لا. لابد إنه (ملعوب) يريدون به شراً!! ينبغي له أن يكون حذراً. شكرهم طبعاً ولكنه استوقف الدكتور رشاد حينما بدءوا في الانصراف. تأمل ملامحه فقراً سعادة صافية فوق صفحتها، ولكنه تخطاها متسائلاً:

- «ليه يا دكتور؟ وإيه اللي بيحصل بالضبط؟ بس الأول قول لي إنت تبقى مين بالظبط». فضحك الدكتور رشاد ضحكة طفل مجلجلة ملأت فراغ الزنزانة بعد أن انصرف الجميع..

- «اقعد يا بوري»

- «وليه دايمًا تقول لي يا بوري؟ أنا اسمي محمد!»

- «طيب اقعد يا محمد!. شوف يا سيدي، أنا راجل صعيدي مصري، الدنيا ادتني كثير!. مصر يا محمد كبرتني وعلمتني لما أخذت البكالوريا وبعدين الليسانس وطلعت الثاني على الدفعة، وكان ممكن أكون الأول لو ما كنتش من عيلة متواضعة.. لو ما كانش اسمي رشاد فكري مجاهد، جاز! لكنني طلعت الثاني وده كويس برضه! المهم أكون من التلاته الأوائل علشان أروح كامبريدج. ده كان حلمي وحقيقته، ورجعت لمصر بالدكتوراه! رجعت

يا محمد لقيت الثورة قامت فاستبشرت خير، طلبة الجامعة المصرية الوطنية أولى بالعلم والمعرفة الي اتعلمتهم طبعاً. عينوني فين يا محمد؟ موظف في وزارة المعارف، في الأرشيف بتاع (دار الكتب)، أنا قلت طبعاً المسألة فيها غلطة، ما هو مش معقول البلد تصرف عليّ كل ده، لغاية ما آخذ الدكتوراه، علشان أرجع وأشتغل مجرد موظف في الأرشيف! رحت على طول لأكبر مسئول، أعلى درجة في السلم علشان الموضوع يخلص. لقيته مين يا محمد؟ لقيته ولا حاجة! لقيته «ضابط» يا محمد، آه والله زيّ ما باقول لك كده، ضابط بتلات نجوم، ما معاهوش ليسانس، المسئول عن تعيين المبعوثين لما يرجعوا بشهادات الدكتوراه! قال لي وهو بيضحك - وكأن الحكاية هزار مثلاً - لو مش عاجبك يا دكتور، نرجعك تاني مطرح ما كنت! مارضتش طبعاً، علشان أنا رجعت وشايل جُؤاً قلبي حلم كبير ومش ممكن أفرط فيه، فقررت أحارب الوضع بطريقتي..» التقط رشاد أنفاسه ثم أضاف:

- «ما أنا كنت لازم أحقق حلمي الي مخبيه جوا ضلوعي، وقافل عليه بالجامد، طول سنين الغربة دي! لقيت الحل الوحيد إني أكتب. مقالات وأبحاث ودراسات وكتب، عن الناس، وعن الثورة، وعن التغيير، وعن الديمقراطية، وعن العمل الوطني، فضلت أكتب وأكتب وأكتب ومليت

مصر كتابات، لحد ما اعتقلوني، وشرفت هنا يا محمد يا بوري!! وأديني أهه
قدامك معجب جدًا بفنك الفطري ده، إنت موهوب بصحيح يا محمد!..
فحدجه محمد البوري بنظرة ذات معنى، ثم رفع إصبعيه نحو ذقنه
يتحسسانه متخذًا منظر المفكر، ثم عقب بثقة العارف ببواطن الأمور:
- «مادام مسجون علشان الكتابة، تبقى إنت أكيد على كده بقى - والعياذ
بالله - شيوعي!!»

فقهقه الدكتور رشاد فكري ضاحكًا مائلًا الزنزانة من جديد بتلك
الضحكة الطفولية..



الفصل الخامس عشر

تحايلت البرودة من جديد على ذلك الشعور بالدفء الذي كانت تشيعه ذبول أيام الصيف الراحلة، فتسللت ما بين البشر الذين لم يجدوا مَقَرًّا من أن يتجنبوها بدورهم، واقتصدوا تبعًا تواجدهم في الأزقة والشوارع والميادين، حتى إذا ما حلَّ الشتاء بزعايبه القارسة البرودة، كانت الطرقات قد خلت تمامًا من المتسكعين، فلم يطرقها الناس إلا لقضاء حاجاتهم الضرورية ثم يعودون من بعدها مهرولين إلى دفء منازلهم من جديد. وغلبت الأيام الرمادية العاصفة على الصحوة منها، فزاد ثقلها من كآبة «إيلين» ومن عزلتها في سجنها الفخم. وحتى زياراتها للملجأ ومداعبتها للبنات هناك، الرحلة الوحيدة التي كانت تسمح لها بأن تقترب بنفسها - ولو قليلاً - من الشعور بالبهجة، أجبرها الصقيع على العدول عنها..

وبينما كانت جالسة في صدر غرفة الصالون ذات صباح تقضم بتلذذ قطعة الكعك الذي صنعته بنفسها بغير مناسبة، وكانت قد شرعت مؤخرًا في التفتن في تحضير المأكولات المتعددة - على غير مواسمها المعتادة - بمجرد

أن تخطر على بالها، في سعيها الدءوب لأن تهبط عليها فرحة ما قد تحظى بها من جراء ظهورها المبالغت - مثلاً على مائدة الطعام، دخل عليها داود وقد ندّت ملامح وجهه عن حزن دفين. تفكرت في أنه لابد قد بحث عنها في أرجاء القصر حتى وجدها هاهنا، حيث لم تَعْتَدْ هي - ولا هو - أن يجلسا بين جدران هذه الحجرة ذات الجو الكلاسيكي، فلابد إذن أنه يبتغي أن يفتحها في أمر مهم يشغله. اتخذ مقعداً بجانبها إلا أنه بقي صامتاً. تشاغلت عنه بازدراد قطع الكعك الواحدة تلو الأخرى منتظرة أن يبادرها هو بالحديث بلا جدوى. وفجأة شق جدار الصمت من حولهما جرس الباب يدوي، فسارعت «نرجس» لفتح الباب، من ذا الذي يدق جرس الباب في هذه الساعة المبكرة من النهار؟ تفكرت إيلين، وتماهى لهما صوت «نرجس» يقول:

- «اتفضل يا أستاذ عبد الناصر، الجماعة في الصالون» فانتفضت «إيلين» واقفة تنفض عن فستانها فتات الكعك والسكر المطحون، واستقامت بجسدها الممتلئ مستعدة لاستقبال الضيف الوافد، في حين لوى «داود» عنقه ناحية باب الصالون ليتحقق من حقيقة ما سمعه من أن عبد الناصر أفندي قد جاء بنفسه فعلاً لزيارتهم وهو يتحسس - بحركة لا إرادية - خاتمه الفضي من حول إصبعه، ولكنه لم يجده، رفع يده أمام وجهه ليتحقق من غياب

خاتمه العزيز فتأكد من غيابه، تفكر في أنه ربما يكون قد نسي، في خضم تأثره بكل تلك الأحداث المتلاحقة، أن يضعه كما كانت عاداته حول إصبعه. دخل العجوز إلى الحجرة تقوده نرجس وتبدى أنيقاً في بساطة - كعادته - بالبدلة الزرقاء الكاملة والطربوش الأحمر وقد تعكز على عصاه الأبنوس قائلاً:

- «صباح الخير يا داود، صباح الخير يا مدام إيلين، أنا آسف إنني جيت كده من غير ميعاد، بس والله ده من العشم، وقلت إن ما فيش بين الإخوان مواعيد»..

- «أهلاً أهلاً اتفضل» بادرته إيلين مرحبة بابتسامة عريضة، وإن خفضت عينيهما للأرض وتأخرت مقدار خطوة للخلف خجلة، حيث لم تكن قد تقابلت معه من قبل وإن أدركت طبعاً من يكون هذا الزائر المبجل، ثم أضافت:

- «أروح أنا أعمل الشاي وأملا لكم طبق الكحك، علشان تدوق عمائل إيدياً يا أستاذ عبد الناصر». وانفجرت أسارير داود بمجرد أن دخل صديقه القديم، وتناسى على الفور حكاية الخاتم، وباقي المشاغل التي اهتم بسببها، فقام على الفور وأخذه بالحضن من قبل حتى أن يدع زوجته «إيلين» تنتهي من إلقاء كلماتها المرحبة إلى مسامع ضيفهما..

- «إنت فينك يا راجل من زمان؟ على العموم ماكتش هانتختر وقت أحسن من كده علشان تجيني..» بادره داود بلهجة صادقة. خلع عبد الناصر عنه الطربوش، فأخذه عنه داود ووضعه بجوار عصاه التي علقها على قطعة الموييليا الأنيقة بجانب مدخل الحجرة المصنوعة في إيطاليا خصيصاً لحمل الطرابيش وتعليق المظلات والعصي والذي منه. وبينما هو متشاغل بذلك كان عبد الناصر أفندي يمدُّ شفتيه ويمطهما وكأنه يلوك بكلمات صامته قبل أن يشرع فعلاً في أن يتحدث بها، ومضت دقائق قبل أن يعقب على كلمات داود قائلاً:

- «فعلاً يا داود ما كانش فيه وقت أهم من كده، وعلشان كده أن جيتلك النهارده». بالطبع توجس داود قلقاً عند سماعه تلك الكلمات، ولكنه دعاه للجلوس أولاً ثم سأله بدوره:

- «خير يا عبد الناصر أفندي، وَغَوْشْتَنِي». تنحنح الآخر متحرّجاً مما كان يزمع أن يقوله وأجاب:

- «مش عارف يا خويا أبتي منين، بس الحق مش عليك يا داود أفندي، الحق على العصابة دي إالي أخذت الأرض وشردوا أصحابها بحجة إنهم قال إيه (شعب الله المختار) طيب وباقي الناس؟ إيه؟ ربنا كان خلقهم غلط؟ وماختارهمش ليه همّ كمان؟ حاجة غريبة بصحيح!». مقدمة لا توحى إلا

بمصيبة قادمة، كما تعلو الأمواج وتتلبد السماء بالغيوم أولاً فيعلم أهل الإسكندرية بأن «النوة» قادمة بعدها لا محالة. ورغم توجسه علق داود قائلاً:

- «الظلم لما يحصل في أي حنة في الدنيا لازم بيحب من وراه الخراب. بس العالم مش ممكن هيسكت ع الظلم ده يا عبد الناصر أفندي، وأنا أكثر واحد إنضريت بسببه، خسرت ولادي الإتين، سابوني وجريو على (أرض الميعاد) بسلا متهم!»

- «مانا عارف يا داود، إنت هاتقول لي، بس المشكلة دلوقت إن فيه حالة حرب بينا وبينهم، وهم ابتدوا فعلاً وجم واحتلوا سينا ويا أكبر دولتين من دول (العالم) إالي انت بتقول إنه مش هيسكت على الظلم! الحقيقة يا داود إن العالم عاوز يسكت، واحنا لوحدنا إالي عايزين نتكلم ونقول لأ للظلم ده»

- «والله باين كلامك صحيح يا عبد الناصر يا خويا، يعني نخلص من الإنجليز يطلعونا الـ.... » وسكت داود إذ لم يستطع أن يكمل الكلمة، فعقب العجوز قائلاً:

- «الـ إيه يا داود؟ كمّل يا خويا علشان تريخني وتقصر المشوار عليّ، أقول لك أنا، نخلص من الإنجليز يطلعونا اليهود، مش كان قصدك تقول كده

برضه؟ طب أنا هاسألك سؤال: تقدر إنت النهارده تعمل ويَّاي الحاجات إالي كنا بنعملها في أيام الشقاوة وتروح تفجّر قنبلة ولا صباح ديناميت في معسكر لليهود، زي ما كنا بنفجّر معسكرات الإنجليز؟ طبعاً لا، ما هو يمكن يكون قاعد جواه ولد من ولادك، ما تأخذنيش!!» أخذ داود من ذلك الطرح المبالغت، ولكنه استجمع شجاعته وقال على الفور:

- «كلام ده إيه يا عبد الناصر أفندي؟ (أول هام) إحنا كنا بنحارب الإنجليز إالي كانوا محتلين بلدنا وأرضنا، لكن إسرائيل مش محتلة أرضنا عشان نحاربها. (تاني هام) لو إسرائيل ما كانتش خرجت من (سينا) بأمر من إيزينهاور كنا هانروح إيدي في إيدك يا عبد الناصر أفندي ونحاربهم، ولو إننا - بيني وبينك - عجزنا خلاص على الموضوع ده! ولا إيه يا راجل يا عجوز؟». وضحك داود محاولاً تخفيف حدة النقاش، فاستجاب له عبد الناصر وبادله ضحكاً بضحك، وفي تلك الأثناء دخلت «إيلين» ترافقها «نرجس» حاملتين صينية الشاي وطبق الكعك..

دارت الكلمات الخاوية والضحكات الطنانة فيما بينهم وهم يرشفون الشاي ويقضمون قطع الحلوى، وإن بدت في عيون عبدالناصر أفندي كلمات يعنّ له أن ييوح بها، إلا أن وجود إيلين وسطهم قد حال دون أن يستفيض، وآثر داود بدوره أن ينتظر حتى تحين الفرصة المناسبة ليستكمل

حديثه. ولكن لم يستكن ذهن داود على الإطلاق، فقد تلقفته صور لقائه مع الشيخ فودة ومن قبله مع عبد الحميد مصطفى، فتشاغل بها متسائلاً عما كانت زيارة عبدالناصر له اليوم هى حلقة جديدة في تلك السلسلة الكئيبة من الأحداث التي لاحقته في الأيام الأخيرة. وكما كان قد توقع، فبمجرد أن تركت إيلين حجرة الصالون، تملل العجوز في مجلسه وواجه داود من جديد قائلاً:

- «في الحقيقة يا داود يا خويا، أنا عندي كلمتين لازم أقولهم لك. «جمال» ابني اتصل بيّ إمبارح بالليل بخصوص موضوعك يا داود»
- «موضوعي؟ موضوع إيه؟»

- «مانا جايلك في الكلام أهه. ما هو أصل اللواء فياض كان كلم الرئيس بخصوص المصنع والقصر إالي إحنا قاعدين فيه ده دلوقتي. بيقولوا إن دي حاجات المليونير اليهودي بنيوتي باشا ولازم تروح للجنة التصفيات ولا مش عارف اسمها إيه! وكمان حكاية الشيخ فودة وزيارتك ليه دي، إنت مش عارف إنه من زعماء الإخوان يا داود ولا إيه يا راجل؟؟»

- «بقى رئيس الجمهورية كلمك بخصوص علشانى؟ ده أنا أبقي راجل مهم جدًّا على كده وأنا إالي كنت مش واخد بالي!!»

- «يا داود يا خويا الموضوع إن جمال بيعبك ومش عاوز لك مشاكل، وعارف غلاوتك عندي، فطلب مني أقول لك الكلمتين دول علشان نحل الموضوع ده بطريقة ودية»..

- «يا عبد الناصر أفندي المصنع والقصر ده، بتوعي أنا، بموجب عقود بيع موثقة في الشهر العقاري، مش مجرد كلام!» فابتسم عبدالناصر ومدَّ يده ليربت بها بحنان أصيل على كتف صديقه الجالس بجانبه، ثم عقب قائلاً:

- «يا داود يا حبيبي العقود دي ممكن يطعنوا في صحتها بمنتهى السهولة لأنك ما كانش عندك ما يثبت امتلاكك لقيمتها وقت البيع والشراء، وبعدين دي الحكومة يا داود، عاوز تحارب الحكومة؟». أسقط في يده عند سماعه هذا الكلام، فتأمل صديقه الجالس أمامه شاكاً في صدق نيته. أيمن أن يتآمروا عليه كلهم فيسلبوه هكذا كل ممتلكاته في غمضة عين، بينما يقف هو مكتوف الأيدي؟ لا. لا يمكن أبداً، وسوف يحارب، وحتى النفس الأخير!

- «يعني المطلوب إيه دلوقت؟» قالها داود وكأنه يستسلم لمصيره في حين كان ذهنه متوقفاً يبحث عن مخرج من تلك الورطة التي أقحم بها..

- «أنا رأيي يا داود إن الحل الوحيد قدامنا هو التفاوض!»

تجمع الأطفال الثلاثة فوق سطح القصر يوم الجمعة - يوم عطلتهم - يلعبون ويمرحون. كان سليمان قد وضع على كتفيه ملاءة سرير عقد طرفيها أمام

عنقه، وفوق رأسه تاجًا من الورق المذهب من بقايا حفلة رأس السنة الماضية، وصار يروح ويجيء بطول السطح وعرضه جازًا وراءه طرف الملاءة الآخر، في حين يعطي أوامره لرعيته «ليلي» و«منى» اللتين كانتا تنفذان أوامره بكل طاعة وامتثال. بل وكانتا تعدان له الطعام «الملكي» في صورة أوراق ملونة قد أعدتها له في شكل كرات صغيرة مرصوفة على باطن غطاء علبة شيكولاتة صفيح فارغة..

قال لهما - كما تعلّم من المسيو ناثنان في المدرسة - إن الملك لابد أن يكون حكميًا قبل أن يكون قويًا، يجب أن يحب شعبه أكثر من أن يخيفهم. ثم هبّ واقفًا فوق كرسي قديم وضعوه في وسط السطح ولقبوه بكرسي العرش، ونظر من حوله نحو البحر ماذًا ذراعه أمامه معلنًا أن مملكته الشاسعة الممتدة أمامه هي أقوى مملكة على وجه الأرض، وأن كل سكانها هم رعاياه وينبغي لهم أن يطيعوه كل الطاعة، وفي المقابل كان عليه أن يسبل عليهم حكمته وحبه لهم. أما «ليلي» و«منى» فنظرتا إليه ضاحكتين، ثم أعلنتا فجأة أن اللعبة قد انتهت، وأنهم سوف يلعبون الآن (مدرسة) حيث تصيران مدرستين لما دّتي الحساب واللغة الإنجليزية، بينما يكون هو تلميذهما، فأذعن بدوره صاغرًا، ونزل من فوق الكرسي، وخلع تاجه الورقي، وافترش الملاءة، وتحول في غمضة عين من ملك متوّج إلى تلميذ في مدرسة!..

بعد صلاة الفجر توجه محمد البوري ليوظ الدكتور رشاد ربيبه الجديد في سجن قنا. اعتادا أن يسرقا الساعات الأولى من اليوم يتبادلان خلالها الأحاديث والذكريات قبل أن يستيقظ باقي السجناء، والأهم، قبل أن تستيقظ شمس الصعيد الحارقة الالهية. بالرغم من استنكاره لطريقة تفكيره حيال الإيمان وممارسات العبادة، إلا أن انفتاح عقله على مناقشة أى شيء وكل شيء جعلت من محاوراتها كنزاً من المتعة الذهنية لم يعهدها مع أيّ من أصدقائه من قبل. سألته يوماً أن يصلي معه، ولكنه أجاب بأنه لا يصلي! هكذا، وكأنه يقرُّ بأنه لا يأكل الباذنجان مثلاً!. وفي مناسبة أخرى سألته لو كان مسلماً بالأساس، فضحك ملء قلبه، وكأنه استمع إلى طرفة نادرة، ومع ذلك لم يعقب! وإن اعترف له في يوم آخر بأن أبويه كانا مسلمين يمارسان طقوس الإسلام بحذافيرها كباقي المسلمين المصريين.

بادره في ذلك الصباح قائلاً بنبرة ملؤها السخرية:

- «إزاي بس يا دكتور تقدر تشوف الفجر ده، والشمس طالعة بتتولد، والسما بتتلون كده قدام عينيك، من غير ما تفكر إن فيه خالق جبار ورا الحكاية دي كلها يعني؟»..

- «ومين بس إيلي قال إن ما فيش خالق؟ لأ يمكن فيه، ويمكن ما فيش، أنا بس باقول إني ما باملكش دليل على إنه فيه وكمان ماعنديش ما يثبت إن مافيش! ده كل إيلي باقوله. ماعندكش إنت دليل؟»

- «ماهو قدام عينيك! عاوز أكثر من كده دليل؟» وأشار نحو شعاع الشمس المتسلل بحياء عند الأفق الممتد..

- «ده يا حبيبي دليل على دوران الأرض حول نفسها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة، وحوالين الشمس برضه، مرة كل سنة، والكلام ده عرفناه من زمان، زمان قوي!. يعني لو رحت معبد أبو سمبل النهارده هاتلاقى أجدادك بنوه من ثلاث آلاف سنة، بحيث شعاع الشمس يدخل من فتحة بتطل على الحجرة الملكية، مرة واحدة في السنة ينور تمثال الملك رمسيس في يوم عيد ميلاده! والكلام ده عمره أطول من عمر ربنا بتاعك، بيجي ألف وخمسميت سنة!» فانتفض محمد البوري غاضباً وهم بأن يتركه ويرحل، لولا أن أستبقاه رشاد فكري قائلاً:

- «خلاص ما ترعلش، حقك عليّ! اقعد بس واهدا كده، وخلينا نتكلم عن لوحاتك! إنت عارف كام واحدة اتباعت للزوار وأهل المساجين لحد دلوقت؟ أربعة!!» فرد بنبرة ملؤها الفخر والرضى الأصيلين:

- «هذا من فضل ربي!!». فعقب رشاد فكري بسرعة مباغتة منتهزاً تلك الفرصة السانحة التي لاحت:

- «لأ. قول هذا من فضل عقلي، وانت الصادق!!».

وهكذا كان كلاهما يتحين الفرصة تلو الأخرى لتوجيه لكزاته الخفية الموجهة تجاه أفكار الطرف الآخر وعقيدته، تحرك المناقشات الساخرة بينهما، في حدود اللياقة والأدب، وإن توقفا دوماً عند الحد الذي يعتبره الآخر تعدياً على ما اتفقا عليه ضمناً من أنه يقبع في منطقة المحرمات..

بحث عنه في كل مكان!..

فوق الكومودينو، وخلفه، وتحتة. تحت السرير وفي الدولاب. في جيوب السترات كلها والسرراويل. حاول أن يتذكر آخر مرة تحسسه حول إصبعه، كانت يوم أن أخذه «ديدو» للشيخ فودة. أيقنوا قد سحبوه من إصبعه في الظلام وهم يفتشونه حين شعر بتلك الأيدي تصعد وتهبط فوق جسده؟ أيقن ذلك الرجل ذو الصوت الغليظ قد اغتصب منه خاتمه المسحور خلسة، مستتراً تحت جُنج الرهبة والظلام اللذين كانا يكتنفانه؟ إنه لا يتذكر الآن أن يكون قد رأى الخاتم بعدها. لابد أن يكونوا قد سرقوه! لقد أخبر الشيخ حسنين - رحمه الله - عن خاتمه المسحور يوم اشتراه، ولابد أنه قد أخبر الشيخ فودة بعدها عنه، كما تحدث عنه باستفاضة أمام «ديدو»، لابد أن تكون أيديهم القذرة قد امتدت إليه، فسرقوه طمعاً في قوته المسحورة!!

ومع ذلك استدعى إيلين يومها متسائلاً عما لو كانت قد رأته، فأنكرت. شعرت لحظتها بخوذة في قلبها، كانت تلك أول مرة تكذب على داود، بل ربما كانت أول مرة تكذب على الإطلاق! ولكنها أنكرت أنها تعرف مكانه، ولن تبوح له به مهما يكن، إذ تملك منها الاعتقاد بشئ ذلك الخاتم اللعين!! ثم انتظر حتى رجع الأبناء من المدرسة وسألهم، إلا أنهم لم يكونوا يعلمون من أمر ذلك الخاتم شيئاً، وإن كان يأمل لو أن أحدهم - وخاصة سليمان - قد أخذه ليلعب به لعبة «الملك والرعية» كما كان أحياناً يختلس من دولابه طربوشاً أو عباءة أو حذاءً لامعاً ليلعب مع أخته!

في نفس اليوم اتصل داود تليفونياً بالأستاذ «سينوت قرياقوس» المحامي وحدد موعداً لملاقاته بمكتبه بعد يومين لمناقشة موضوع القصر والمصنع. وفي مكتبه أخبره المحامي الشهير بأنه بعث سكرتيه الخصوصي للإتيان بنسخة من العقد الموثق بالشهر العقاري، وبعد بحث جهيد اعتذر له الموظف المسئول - وهو يتصبب عرقاً - بأن الدوسيه الذى كان يحمل عقده إلى جانب اثنين وثلاثين عقداً آخرين، قد اختفى!..

ثم تلقى داود مكالمة تليفونية بعد أيام قليلة من عبد الناصر أفندي يستأذنه في أن يأتي لزيارته أيضاً، ولكن بصحبة اللواء فياض هذه المرة، مما دعاه لأن يتصل به مسبقاً. لم يجد داود بُدّاً من أن يوافق مذعناً، فقد ارتفعت

من حوله أسوار عالية لا يقوى على أن يحطمها من ناحية، ولا يقدر أن يمدَّ
بصره من فوقها لينظر ما تخبئه له الأيام من ورائها.. افتقد بشدة - لحظتها
- خاتمه المسحور، وانتابه وقتها شعور دفين بأن اختفائه المفاجئ كان نذرًا
لأوقات عصبية تنتظره..



وقف داود متسمراً أمام زرقة مياه البحر بأواجه الثائرة، وأحاطت
به الرياح الباردة وقد التصقت ذراعه بجذعه المرتجف التصاقاً. لم يستطع
أن يغالب شعوره بأن حبلاً قوية تلتف حول جسده تقيده، وبأن أطرافها
المشدودة بكل عنفوان كالأوتار حول عنق آلة العود، من حوله، كانت بأيدي
الشيخ فودة والرجل ذي الصوت الغليظ من ناحية واللواء فياض وتابعه
عبد الحميد مصطفى من الناحية الأخرى، يتجاذبه كل من الفريقين إلى
جهتين تبدوان متعاكستين، وإن أدتا في النهاية إلى نفس الغرض، أن يختنق،
ويموت، أو أن يرحل. كادت شدة الريح أن تنزع عنه طربوشه، فتملص من
تلك الرباطات ومدَّ يده لأعلى وسنده..



الفصل السادس عشر

نوء الغطاس..

اليوم التاسع عشر من يناير، عام ١٩٥٨..

موجة باردة جديدة عصفت بالإسكندرية، كما تعصف بها النوات التي تأتيها متزامنة عند كل شتاء، إلا أنها كانت أشد قسوة هذا العام من أي وقت مضى. ارتفعت الأمواج المهولة حتى طال بعضها رصيف وأسفلت الكورنيش، وهبت الريح تزجر هادرة وأظلمت الدنيا وطارت لافتات الطريق في الهواء، وتحطمت النوافذ الزجاجية بل وانخلعت الأبواب من متاريسها. وتساقطت الأمطار الغزيرة لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ دون انقطاع، بينما قبع الناس في منازلهم ينتظرون. عند المساء انتابت داود رعشة، وشعر أولاً بأن جسمه قد تثلج، ثم غشيته حمى شديدة طرحته بالفراش، غطت إيلين صدره بأوراق الجرائد تحت البيجامة، وتجرع شيخ البابونج المغلي والشاي الممزوج بعصير الليمون وحبات الأسبرو على مدار الساعة، ولم يكف عن السعال والرشح طوال الليل..

في تلك الليلة، وكان جسده طرياً مبللاً من طيلة الرقاد والعرق ومن تأثير الأسبرو، غفا داود. لم يكن نومًا بالمعنى العادي الذي يأتي عند آخر اليوم بفعل التعب، أو لحلول الظلام، أو حتى استسلامًا للسأم، ولكنه كان نوم المرض، ذلك النوم المرادف للإغماء، الذي لا تشعر بعد أن تفيق منه بالراحة أو الاكتفاء بل قد يغلبك الإحساس بكونك أشدَّ تعبًا من بعده عما كنت من قبل. وفي وسط تلك الغفوة العالقة بموضع ما بين النوم والصحوة، رأى داود حلمًا غريبًا، تذكر تفاصيله كاملة عند إفاقة وحكاها كلها لسليمان ابنه إذ كان موجودًا معه في طياته، ثم رآه جالسًا قبالة عند طرف السرير حين أفاق..

في الحلم كان «ملكًا» متوجًا، جالسًا فوق كرسي العرش وسط بهو كبير مملوء عن آخره بالرعية. والغريب أنه - ذلك الملك - كان يبدو مختلف الملامح عنه، وإن كان موقفًا تمامًا بأنه هو هو. وانسابت موسيقى بإيقاعات راقصة كتلك الموسيقى التصويرية المصنوعة باستوديوهات هوليوود لأفلام مثل «علاء الدين» و«لص بغداد»، وفعلاً - وكما في تلك الأفلام - قامت راقصات شقراوات وسمراوات تتمايلن على أنغام العود والدفوف بصحن البهو في غلالات حريرية هفهافة، وهَمَّ الملك بالغناء وسط أصوات الاستحسان المنطلقة من شتى الأرجاء من حوله. وسط ذلك الجو البهيج تسلل إلى البهو

رجل مخيف ملتفح بعباءة طويلة سوداء غطت جسمه كله وحتى وجهه،
ما عدا عينيه البارقتين، تقدم مستغلاً الجلبة المبهجة من حوله وهو يغني،
وهجم عليه في غفلة من الحراس وانتزع من يده الخاتم - الذي بدا في الحلم
أكبر وأكثر رونقاً ولمعاناً - ثم في لحظة كان قد اختفى. صرخ عندها في وجه
الحراس أن يوقفوا اللص قبل أن يهرب ولكنهم لم يفلحوا، إذ في لحظة كان قد
اختفى.. وساد هرج بالبهو وتوقفت الموسيقى والرقص، فهبَّ شاب أنيق
يخطر في حلة مذهبة من بين مجموعة من الشبان كانوا يتسامرون في ركن من
الأركان، أدرك داود - في الحلم - أنه لم يكن سوى سليمان ابنه، بالرغم من أنه
لم يشبه سليمان في الواقع. رفع الأخير سيفه وسط الحاضرين وأعلن بصوت
جهوري أنه سوف يذهب لبحث عن خاتم أبيه وأقسم أمام الجميع ألا يعود
إلا به. انتابته حالة من الحزن لفقدان الخاتم وللخوف من ضياع ابنه إلى الأبد
في رحلته للإتيان به. وفي المشهد التالي من الحلم رأى سليمان يبارز مجموعة
من الرجال الأشداء فوق ربوة رملية وسط صحراء شاسعة وانتصر عليهم
الواحد تلو الآخر فكانوا يتساقطون تباعاً من فوق الربوة متدحرجين فوق
الرمال الناعمة - تماماً كما في الأفلام. ثم بعدها أبصر سليمان جاثياً في حضرته
في حلة بهية وقد مدَّ له يده بالخاتم بعد أن قصَّ عليه قصة البحث المضنية
التي أدت به في نهاية الأمر إلى أن تقابل مع صياد شاب كان قد استوقفه لما

وجده في الطريق يسير باكيًا، إذ كان قد أمضى الليل بطوله بعرض البحر ولم يسعفه الرزق إلا بتلك السمكة الوحيدة التي لن يكفي ثمنها ليسد رمق أسرته الكبيرة، فاشتراها منه سليمان مقابل مبلغ كبير من المال، شفقة بحاله ومشاركة منه لإشباع أولاده، ولما شقَّ باطن السمكة بسيفه إذا به يجد الخاتم في جوفها!. ابتهج داود من جديد، فوقف في وسط البهو وأعلن أمام كل الحاضرين أنه يهدي الخاتم المسحور وكرسي العرش لابنه الذي استحق أن يكون له خلفاً..



لم تتحمل إيلين ثقل الذنب أكثر من ذلك، عذبتها تأنيبات الضمير فهرب النوم من لياليها، ولم تقدر أن تحتوي مشاعرها فقررت أن تتكلم! نعم، فلا بد لها أن تبوح بسرها قبل أن يقتلها القلق بشأنه. كيف سمحت لنفسها بأن تكذب على زوجها هكذا وتجلب على أيامه تلك الحسرة واليأس من بعد اكتشاف ضياع الخاتم؟ بل ومن ذا الذي أكلها هي لأن توقن الفرق ما بين الصواب والخطأ، بين الخير والشر، وبين الحق والباطل؟ بل وما الذي دعاها أن تظن أن خاتمًا يمكن أن يجلب السعادة أو الشقاء، إلى درجة أن تحبئه متعمدة عن زوجها وحبيبها، وتكسر قلبه، وتكذب عليه كل تلك الفترة لمجرد أنها اعتقدت أنه خاتم مرصود يحمل الشؤم في طياته، فكان

سبباً لتعاستهم. فكّرت فيمنُ يمكنه أن يساعدها في ورطتها هذه، فتبدى لها «أبونا ميخائيل» الشخص الأمثل لتحدث إليه في مثل تلك الظروف، فهو رجل الله الذي لا بد وأن تجد عنده الإجابة عن تساؤلاتها والحل لورطتها التي أوقعت نفسها بها..

عند الفجر ذهبت لمقابلته قبل أن يبدأ صلاة القداس، وبعد لقائه في صحن الكنيسة، والحديث المستفيض معه، نصحتها القس بألا تعترف لداود بالحقيقة الآن على الأقل، لئلا يغضب منها فربما يكون غضبه سبباً في خراب البيت، ولكنه أصرَّ على أنها لا بد وأن تعيد إليه الخاتم، بطريقة غير مباشرة، كأن تعلمه مثلاً بأنها - أو أحد الأبناء - قد وجده بمكان ما، أو شيء من ذلك القبيل. ولما عقت بأنها كانت تؤمن بأنها شعرت بأن قوة شيطانية كانت تنبعث من ذلك الخاتم، هدّأ القس من نفسها قائلاً بأن الشيطان هو روح لا يمكنه أن يسكن خاتماً، حماداً لا حياة فيه، فلا يجب أن تخشى من ذلك على الإطلاق، كما أن روح الله القدوس، فوق ذلك، يحميها هي وأسرته ويظللهم ضد قوة الشياطين على الدوام. لكنه طلب منها أن تبقى وتصلي القداس معهم ثم تتناول من جسد الرب ودمه، أكبر حماية لها قبال تلك الأفكار الشريرة. استجابت إيلين - بالطبع - لمشورته دون تردد، وشعرت فعلاً ببعض السلام بعد التناول، ولكنها دأبت خلال رحلة العودة تفكر في أحسن طريقة تعيد بها الخاتم لداود دون أن تثير شكوكه كما نصحتها القسيس..

عند عودتها، وجدت داود نائماً بالدور العلوي، إذ كان ما يزال يعاني من نوبة البرد التي أسلمته للفراش، وكانت ليلى ومنى تلعبان بعرائسهما، بينما قبع سليمان على الأريكة يتصفح إحدى مجلات الأطفال الفرنسية المصورة التي كان قد استعارها من مكتبة المدرسة. فلما أبصرها الصبي هبَّ فرحاً للقياءها، وفي غمار الفرحة كان يتراقص من حولها بينما كان يقصُّ عليها تفاصيل الحلم التي سمعها قبل قليل من أبيه. ابتسمت إيلين ولم تعقب، وإن سرحت بأفكارها نحو السمكة والخاتم، فتفكرت في أن تتباع سمكة من السوق وتخبئ الخاتم بداخلها ثم تعلن أنها وجدت الخاتم بجوفها، ولكنها طرحت هذه الفكرة عنها فوراً إذ أدركت أن داود لا بد وأن يكتشف اللعبة - لسذاجتها - ويثور عندها حين يدرك أنها هي التي أخفت الخاتم عنه فلا يسامحها أبداً على خديعتها إياه..



تعافى داود بعد أيام قلائل وفي الوقت المناسب ليستقبل ضيوفه القادمين لزيارته. في تمام الساعة مساء دق جرس الباب وأعلنت نرجس عن قدوم عبد الناصر أفندي بصحبة «واحد ضابط» لزيارتهم. استقبلهم داود بحجرة المكتب التي كانت تحوي مكتباً فخماً وأرففاً مكتظة بالكتب، بالإضافة لأريكة وثلاثة مقاعد من الجلد النبيذي الإيطالي الفاخر، الطقم الذي كان نادراً ما

يجلس فوقه أحد من أهل البيت، والبيانو الذي كان داود قد استمع لموسيقاه حين جاء لمقابلة «بنيتي باشا» لأول مرة بصحبة «قمر» - رحمها الله - والذي لم يمس مخلوق مفاتيحه منذ انتقالا للسكنى بالقصر. تبادل واللواء «كامل فياض» نظرات حذرة في حين كانوا يحتسون القهوة التي أسرع نرجس بإحضارها، بينما آثرت «إيلين» أن تبقى وحيدة بحجرتها في الدور العلوي. استمر الصمت عالقا من حولهم حتى بادر كامل فياض داود بالسؤال عن صحته متأدبا، ثم انطلق يتحدث عن شدة النوبة وقسوتها ذلك العام، حتى أغلق بوجاز الميناء لثلاثة أيام. ولما تبين للجميع أن تلك الكلمات المائعة قد اختنقت من شدة التوتر المخيم على المكان، مدّ اللواء فياض يده إلى جيب سترته العسكرية المنشأة وأخرج ورقة مطوية بعناية. أعطاها لداود صامتا بينما فضها الأخير وتبين له أنها كانت تحوي رسالة بخط الرئيس جمال موجهة لسيادة اللواء..

وضع داود نظارته وشرع يقرأ محتواها بينما تابع - من فوق النظارة - نظرات كامل فياض الفاحصة تدور حول المكان، مستغلا انشغاله بقراءة الخطاب، وكأنه سمسار عقارات جاء ليضمن المكان قبل أن يشرع في تقديم عرضه، فابتسم داود بينه وبين نفسه، مؤكدا انطباعه الأول الذي كان قد كوّنه عند لقاء المنشية عن هذا الرجل، بأنه شخص فج، وقح، وتعوزه اللياقة..

واستمر داود في القراءة المتأنية، نعم هذا هو خط الرئيس جمال، نفس الخط الذي كتب به يومًا عنوان أبيه فوق أقصوصة صغيرة دفع إليه بها يوم زاره بمكتبه بمنشئة البكري. وكان هذا هو نص الرسالة:

عزيزى كامل:

هذه الكلمات أكتبها إليك بخصوص صديق عزيز ورجل وطني ساهم بجهد كبير في العمل الثوري لتحرير مصر من الاستعمار الإنجليزي الذي دام لأكثر من سبعين عامًا. والذي أطلب منك أن تتيح له أن يقرأ بنفسه هذه الكلمات.

وأظن يا كامل أنك تعرفه شخصيًا حيث تقابلنا سويًا وإياه ذات ليلة بالإسكندرية، إنه الأستاذ داود عبد الملك.

وحرصًا من مجلس قيادة الثورة على إحياء مبدأ العدالة الاجتماعية في توزيع أموال الإقطاعيين وكبار الملاك في شتى أنحاء الجمهورية على بقية أفراد الشعب، فلقد تعين على الجميع الخضوع وتنفيذ ما ينص عليه هذا القانون من دون استثناءات من شأنها أن تعلى قيم المحسوبية التي طالما عانى منها شعبنا. وبما أن ممتلكات بنيوتى باشا، الثرى السكندري المعروف الذي رحل عن مصر قبل سنوات، تقع تحت طائلة القانون السابق ذكره، فلقد تعين على

الجميع تطبيقه، وخصوصاً أنى لا أشك مطلقاً في وطنية وإخلاص داود عبد الملك.

ولكن هناك مسألة المبايعة التي تمت بينه وبين بنيوتى باشا فأرجو منك مراعاة هذه الظروف الاستثنائية بالنسبة لداود، وبالمقابل فأطلب منك - طلب شخصي - اعتباره مالكاً شرعياً للمصنع والفيللا وبالتالي فاسترجاع تلك الممتلكات ينبغي أن تكون عن طريق شرائنا لتلك الممتلكات منه في مقابل عائد مادي مناسب بحيث لا يتضرر هو أو أسرته، حيث تعتبر تلك الممتلكات الآن مصدر الدخل الوحيد لديهم. أرجو منك سرعة التنفيذ مع الأخذ في الاعتبار - من جديد - وضع الأستاذ داود عبد الملك كصديق شخصي وواحد من أهل الثقة المناضلين معنا من أجل استقلال مصر. وأخيراً تقبل مني كل الشكر وبلغ سلامي وتحياتي لداود حين تقابله وتعرض عليه خطابي هذا.

رئيس الجمهورية

جمال عبد الناصر

رفع رأسه من فوق الورقة ثم طواها صامتاً وأعادها إلى اللواء فياض بإيحاء مقتضبة، الذي وضعها بدوره من جديد في جيب سترته. وهنا شرع عبد الناصر أفندي يتكلم لأول مرة منذ مجيئه، محاولاً أن يخفف من حدة الصمت الحذر الذي اكتنفهم. كعادته كان رجلاً رقيق المشاعر، حسّاساً، بالإضافة للإعزاز الشخصي والروح الطيبة التي كان يكنها لداود، فشعر بمقدار تأثره ولا شك من وقع زيارتهم عليه، وتبعات ذلك الخطاب الذي كان قد قرأه في الطريق قبل أن يصلوا. تحسس بيده اللقافة التي كان يحملها معه اللواء فياض عند حضورهما لاسترضاء داود والتي كان قد وضعها على المنضدة أمامهما، وفضها بتأنٍّ وأخرج زجاجة نبيذ «چناكليس» ثم نادى داود قائلاً:

- «أؤمر لنا بتلات كاسات يا داود يا خويا علشان نتدفي شوية في الليلة الباردة دي». فنظر إليه داود بلفتة ملؤها الحب مستجيباً لطلبه، وقام متجهماً نحو المطبخ..

انتهز كامل فياض فرصة غياب داود فهبَّ واقفاً يدور بأرجاء الغرفة عاقداً يديه خلفه، متأملاً اللوحات على الحوائط والتماثيل والتحف المتناثرة هنا وهناك فوق أرفف المكتبة، ثم علق بصوت خفيض وكأن أفكاره قد هربت منه على شكل كلمات:

- «فلوس الناس الغلابة دي كلها لازم ترجع لهم، والقصر ده هايصبح في يوم وليلة مدرسة يتعلموا فيها ولادهم» ثم استدار بحركة مسرحية مواجهًا عبد الناصر أفندي قائلاً وهو يشير بيده إلى إحدى اللوحات الزيتية:

- «اللوحة دي لوحدها ممكن تمنها يأكل عيلة كاملة لمدة سنة يا أستاذ عبد الناصر، ولا البيانو...». ابتسم عبد الناصر أفندي غير مصدق لكلمة واحدة قالها، فقد أدرك - مع تراكمات الأيام - ضعف النفس الذي وقع فيه معظم هؤلاء الضباط الشبان وحقيقة ما سوف تتول إليه تلك الممتلكات، ولكنه قاطعه بلطف وعلق بحنانٍ أبويٍّ على كلماته قائلاً:

- «طيب بس بالهداوة شوية يا كامل يا بني علشان خاطر داود ما يزعلش»

حينما عاد داود حاملاً الصينية والكؤوس الفارغة كانت سحابة من الهم قد عادت تكلل ملامحه. مدَّ صديقه العجوز بزجاجة النبيذ إليه وقال مازحاً:

- «هبوا املئوا كاس المنى، قبل أن يملأ كاس العُمر كف القدر!»

- «كاس منى إيه وكاس عُمر إيه إيلي بتتكلم عنهم؟ وبيقوا مين (منى) و(عُمر) دول يا أستاذ ناصر؟» تساءل كامل فياض متحيراً..

- «ده أصله كلام سرّ بيني وبين داود..!» أجابه العجوز متخابثاً فابتسم داود أخيراً، وشرع عندها يصب النبيذ في الكئوس، ثم انتابته نوبة من الضحك سرت عدواها لتشملهم جميعاً..

انقضت نصف المدة التي حُكم بها عليه، وأدرك محمد البوري أن الفضل الأكبر لسرعة مرور الأيام كان يعود للدكتور رشاد، الذي كان قد ملأ بحضوره الجذاب ومناقشاته الثرية - والمستفزة في أغلب الأحيان - وبنشاطه وهمته غير المحدودة - معظم أوقاته، حتى إنه كان أحياناً لا يجد الوقت الكافي لإنجاز ما كان مزماً أن يقضيه، تعلم أن يقرأ كثيراً، أدب وتاريخ وفلسفة وفن، كل شيء في مكتبة السجن التي نفحها الدكتور رشاد بكتبه الشخصية، بالإضافة للرسم الذي استغرق ساعاته وأيامه. عشرات من اللوحات التشكيلية، بيع منها حوالي نصفها فأدرّت على إدارة السجن دخلاً لا بأس به، ولكن الأهم كان بسبب ذبوع صيته حتى أن جاءهم مندوب «جريدة الجمهورية» مع مصور الجريدة ذات يوم، وأدلى محمد البوري بحديث صحفي ونشر ذلك الحديث ملحقاً به صورته وسط اللوحات، بعنوان:

«من السلفية إلى التعبيرية»

«الفن التشكيلي يحرر أحد النزلاء بسجن قنا»

فشعر يومها بأنه صار مميزًا، وتلقى معاملة فريدة من إدارة السجن وكأنه بات بين ليلة وضحاها من أشهر الفنانين التشكيليين في مصر. ولم يزل يحتفظ بنسخة الجريدة وسط طيات ملابسه، يراجعها عند كل مساء، ويتباهى بها أمام النزلاء المستجدين. ولكنه مع ذلك كان متوجسًا من تلك الفترة القليلة المتبقية إذ كان قد حان موعد خروج الدكتور رشاد فكري بعد أقل من أسبوع، وأدرك بينه وبين نفسه كم سيفتقده وإن أبى على نفسه أن يصارحه بتلك المشاعر إكبارًا من ناحية، وخوفًا من ناحية أخرى - متسائلًا على الأقل إلى الآن - من أن تكون أفكاره الشيوعية تلك قد تسللت إلى عقله وقلبه - والعياذ بالله! كان يهرب إلى الموضوع والصلاة كلما وافته مثل تلك الأفكار..

ليلة خروجه للعالم من جديد، أتاه الدكتور رشاد لزيارته مودعًا، فرحب به بل وتلقاه بين أحضانه باكيًا رغمًا منه إذ قد فاضت به المشاعر ولم يفلح في أن يطمسها. قال له الدكتور رشاد إنه بات مقتنعًا أن القدر قد جمع بينهما في هذا المكان لسبب، وليس بمحض الصدفة، وأن عليهما أن يفكرا بجدية متمحصين في كنه ذلك اللقاء ومعناه. أجابه أن الذي جمعهما هو الله سبحانه وتعالى وليس القدر، فضحكا معًا. قال إنه يؤمن بأن طريق صداقتهما لم يزل في أوله، وأن العمل البناء الذي بدأه معًا لا بد له أن يكتمل بعد خروجه من

المعتقل، فلمصر حق على أبنائها، وقد لزم عليهما كأبناء أن يوفياه. فأجابه بأنه سعيد أنه صار «يؤمن» بشيء! فضحكا ثانية. ثم قال له بأن الثورة الحقيقية لا تقوم بالقوانين فحسب، إذ إن قوتها الحقيقية تكمن في الشعب المنتج الدافع لعجلاتها، والشعب الجاهل لا ينتج، لذا فإن مسؤوليتهما تكمن في تعليم الشعب وتنويره بما يحمله ذلك من عناء وجهد خارق. كلمات عميقة تركت في نفسه أكبر الأثر، كان يتفوه بها بثقة وإيمان يقيني فحفظها محمد البوري في نفسه وأقسم أن يضعها نصب عينيه هدفاً يعينه على قضاء المدة الباقية له من دون الدكتور رشاد فكري، وتعهداً على اللقاء بالإسكندرية، بمجرد أن يطلق سراحه. ولكنه - وبمضي الأيام المتعاقبة - وجد الكلمات هذه تنفلت تباعاً وتهرب من ذاكرته حتى غابت كلية عنه، بل وانمحت تلك العلاقة الوثيقة التي كانت قد ارتبطت بها يوماً بشخصية الدكتور رشاد فكري، الذي احتفظ مع ذلك بمكانة عالية في ذهنه مع مرور الأيام..

وعده اللواء كامل فياض بمكافأة إن هو ساعده على اقتفاء أثر الشيخ فودة في بيته العتيق. لم تُغْرِه المكافأة، وإنما الاستنفار من جبروته وتسلطه على مصائر العباد هو ما دفع داود عبد الملك ذات فجر إلى أن يقود حملة لمداومة

الشيخ وأعوانه في عُقر داره. وفعلاً جلس إلى جانب سيادة اللواء بالمقعد الخلفي لسيارته وكان يعطي تعليماته المتتالية لسائق العربة التي كانت تتقدم الموكب الصامت المحمّل بالجند المسلحين يطوف في شوارع المدينة النائمة..

عبر الموكب شارع فؤاد ثم مالت السيارتان إلى طريق جانبي ماراً بمكتب سمسار العقارات، الذي كان مغلقاً بالطبع في تلك الساعة من الفجر، فتأكد داود من أنهم سلكوا الطريق الصحيح على أيّ حال. ثم عرجوا عند أول الشارع المتفرع حيث البيوت القديمة، وأشار لكامل فياض نحو الفيلا القابعة عند آخره المحاطة بهالة من ضباب الفجر والتي أضفت عليها غموضاً فوق ذلك الذي أوحى به تكاثف الأشجار العتيقة المحيطة بها. أمر اللواء بالموكب أن يتوقف، وبإشارة من يده ارتجل الجند بخفة واصطفوا على جانبي الطريق، وفي خلال دقائق كان الركب يتقدم بخطوات بطيئة، حذرة، نحو السور الحديدي المتغلغل بأفرع وأوراق النباتات المتسلقة. تبدّى قفل صدئ يحيط بسلسلة حديدية تعانق ضلفتي الباب الخارجي، فأشار اللواء لأحد العساكر الذي تقدم وبسلاح حاد كسر القفل، وبمتمهى الهدوء سحب السلسال وفتح الباب الذي شرع يزجر كما فعل يوم أن جاء داود ليتقابل مع الشيخ فودة، فدعا - بينه وبين نفسه - ألا يكون الشاب «ديدو» بعينه الواسعتين وروحه المرححة موجوداً بالمنزل الآن..

شقَّ الجند طريقهم بسرعة وخفة فوق الممر المؤدِّي للباب الرئيسي، ممهدين الطريق لسيادة اللواء وداود والضابط الآخر الذين كانوا يتبعونهم، فارتقوا درجات السلم، وبكفوفهم القوية وكعوب البنادق دَوَّى طرق الباب المتتابع كقرع طبول الحرب، ولكنَّ لما لم يفتح أحدٌ، كسره الجند بأكتافهم، واقتحم الجميع البيت وبسرعة تفرقوا بجنباته وملاً سكون المكان وقع أحذيتهم العسكرية التي طافت بهم في جلبة بكل أرجائه، ليكتشفوا خلال دقائق قليلة أنه كان خاليًا من أي مخلوق..



الفصل السابع عشر

انتزع دفء الربيع وأريحته زمام الصدارة من جديد، من قبضة برد الشتاء الفولاذية وسطوتها القاسية التي لا ترحم. وملأت ومضات الحب الكهربائية نسيمات الهواء، فارتجفت بشحنة حب كل مخلوق مَسَّتْهُ، واشتعلت براعم الأزهار بألوانها الأخاذة، وطاردت الطيور بعضها البعض ترفرف عشقاً نحو أغصانها المخفية عن الأعين، وخرج أهل الإسكندرية مرة أخرى من بياتهم الشتوي يملئون الشوارع والطرق، في غير مواعيد العمل، وإلى غير طرق المدارس والأسواق، يتشممون نسيمات الهواء النقية المحملة برائحة البحر المتجددة، بعد طول أيام العواصف والأمطار الغاضبة المتلاحقة، وتمسهم تلك الومضات المخفية، فيهيئوا بحثاً، كُلُّ عن وليفه.

وفي وسط ذلك الجو البهيج تدحرجت فوق أسفلت الشوارع المغسولة عجلات العربات الكارو يجرها حمار منكس الرأس، متجهة بإصرار قدرى إلى حي محرم بك، محملة بثقل منقولات عائلة داود عبد الملك بعد أن تركوا قصر بنيوتي باشا عنوة، عائدین إلى حيث كانوا قد بدءوا الرحلة، إلى الشقة

التي كان قد ورثها عن أبيه المرحوم عيسى أفندي عبد الملك. الأصل!.. حيث عاش داود «بدور» ثم «صوفي» ثم «إيلين» وحتى «قمر»، رحم الله الراحلات منهن وشَدَّ من أزر الباقيات. وعلى ذكر الباقيات طاف ذهنه بصوفي، زوجته التركية الهاربة مع ابنته «مارجو»، متسائلاً عما يكون قد صار عليه حالهما اليوم في جنات هذه الدنيا المجنونة..

وفي صمت هامس بأزيز المحرك قادت الموكب الحزين السيارة الباكار السوداء يقودها الأسطى وليام وجلس داود واجماً بجانبه يتأمل في هذه الأشياء، بينما انحشرت إيلين والأبناء الثلاثة بالمقعد الخلفي وقد بدأت السعادة تزحف نحو وجهها لأول مرة منذ سنوات، أما ليل وسليمان ومنى فقد انشغلوا بالعراك حول من يجلس بجوار شبايك السيارة، فلم تكن تشغل فكرة الانتقال إلى محرم بك ذهن أى منهم. تفكر «داود» في شأن تلك الدنيا العجيبة التي تأخذك على غرة في طيات أجنتها فترفعك حيناً نحو السماء، ثم تعود وتخسف بقدرك إلى أسفل السافلين وأنت منساق من قفاك لا حول لك ولا قوة ولا شأن لك في أن تعدل مسارها ولو لشبر واحد، بل وعليك أن تتقبل كل هذا بسعة صدر وإلا عاب الناس عليك كونك متمرداً أو وصفوك بالعاق الذي لا يتحمل مقادير الأيام. وتساءل متى يعود ويجد ذلك الخاتم الملعون من جديد..

دخل الموكب الواجم إلى الشارع الضيق واستقبله الجيران وأهل الحي بحذر ممزوج بشبه تَشَفٍّ أولاً لفشل مشروع الانتقال من وسط الكادحين المغمورين إلى عالم الأثرياء الميسورين.. ولكنهم، وبمجرد أن انفتحت أبواب السيارة السوداء وأطلت وجوههم المتلفطة منها، تسارعوا نحوهم بالأحضان والقبلات بفعل ذلك «الربيع» وما يصنع بالقلوب المرهفة، مرحبين بعودتهم من جديد وسط أهلهم وناسهم، فانساب دموع الفرح من عيني إيلين، بينما بقي داود ساهماً يهزُّ رأسه بحركة تلقائية عفوية كالملاكم المهزوم فور انتهاء المعركة وقد تورَّمت عيناه وتعامت من فرط اللكمات، ثم تلففته السلامات والأحضان من أناس غرباء ممسوحة معالم وجوههم من ذاكرته خلف ستار الدمع الذي اغرورقت عيناه به. في حين انطلق الأطفال إلى جنبات الشارع وأهله يتفحصونهم بعيونهم البريئة وقد انمحت كل ذكرياتهم عن البيت والشارع والحي كله، بفعل تلك السنوات القليلة التي قضوها بعيداً في قصر بنيوتي باشا..

احتضن داود العود واختلى به في غرفته وأغلق الباب خلفه. جلس إلى حافة السرير ثم بدأت أنامله تداعب الأوتار وانطلق يغني بصوت خفيض موشحاً حزيناً من مؤلفات داود حسني. ثم نادى على الأسطى وليام إلى الغرفة وقال له باقتضاب إنه عزم أن يهديه السيارة الباكار ليحوّلها إلى سيارة

أجرة يسترزق هو ونرجس زوجته من دخلها، ثم طلب منه بعدها بنبرة قاطعة أن يخرج، إذ ابتغى أن يختلي بنفسه لينام قليلاً. ولكنه لم ينم. بقي في سريره مسطحاً بكامل ملابسه وقد تعلقت عيناه بسقف الحجرة بينما غاب ذهنه يسترجع محطات رحلته، ولم تفلح تلك الومضات الكهربائية أن تمسّ قلبه المنكسر..

واعتكف داود من يومها بالغرفة، لا يتركها إلا ليذهب للحمام ثم يعود للغرفة يقرأ ويعزف العود، وحتى الطعام والسجائر كانوا يأتون بهما إليه في عزلته. ثم استفاق يوماً على صوت نابع من داخله، من أعماق أعماق قلبه، يلحّ عليه أن يأتي بورقة وقلم، صوت مُلح قهري لم يجد بُدّاً من أن يستجيب له، ثم بدأ لاحقاً يملئ عليه كلمات وكلمات، وهو يكتب ويكتب صفحات، ثم يقرأها فإذا بها قصائد من الشعر الصوفي الزاهد يتعجب منها!. طلب من إيلين أن تبتاع إياه دفترًا أزرق اللون، بلون بحر الإسكندرية، جمع بورقاته كل قصائده، وصارت الكلمات تحيّئه بعدها في طفرات متتابعة تحتاجه في كل ساعات الليل والنهار، تدفعه إلى أن يستجيب إليها مرغماً لنداءاتها، فيجلس إلى نفسه يكتبها. ثم انتابته يوماً رغبة ملحة إلى أن يغني أشعاره، فلحنها خلال الشهور التالية وغناها في عزلته، ولكنه أبداً لم يُغنّها على مسمع من مخلوق وأشعاره لم يُطلع أحداً عليها..

أما إيلين فكأنها قد مستها عصا مسحورة مثل تلك التي تلهب الأغصان
اليابسة عند أواخر أيام الشتاء، فإذا بالربيع يمحضها بدفته فتتبرعم
الأغصان حبلى بزهرها وثمارها اليافعة، بالحياة!. انتزعت منها عودتها إلى
محرم بك كآبتها وانطواءها، فعادت تبتسم كثيراً في البداية، ثم بدأت تضحك
لدعابات الأبناء، ثم ولأول مرة منذ سنوات طوال - صارت تغني، نعم!
فحين رجعت إيلين لمحرم بك ووجدت الكل من حولها يغني. نعم غنت
معهم فرحة بالثورة التي لونت الحي والجيران بصبغة مبهجة لم تدركها حين
كانت قد اعتكفت بداخل سجنها الفخم!. عاد إليها صوتها الطروب المليح،
فاسترجعت من فيض الذاكرة أغاني الست ثومة والأستاذ عبد الوهاب
المدفونة في دهاليزها المخفية، وزادتها بأغانٍ جدّت عليها لهؤلاء ولطربين
جدد ظهوروا على الساحة يتغنون بأناشيد جديدة ملأت الدنيا، مادحة في
الثورة الشعبية، وبمعان أخرى غامضة الدلالة بالنسبة إليها، وتعبيرات
ثقيلة تتغنى بها مع بقية الناس كالاشتراكية، والمسئولية، والعضوية باللجنة
الأساسية، كلمات مبهمه لا تفهم لها فحوى! ولكن أسرّتها ألحانها، وبالذات
المدائح في زعيمها البطل «ناصر» الشهير بأبو خالد وإخوانه نواره البلد!.

فرحت إيلين به، لأنها أحبت والده «عبد الناصر أفندي» صديق «داود»
زوجها من جهة، ولحسن علاقاته برئيس الكنيسة البابا «الأنبا كيرلس

السادس». أحبته وتطلعت إلى أيام حلوة ما تزال تنتظرهم بمحرم بك. وفي تأكيد صامت ذهبت إلى فرع البنك الأهلي ووضعت كل المبلغ الذي دفعته لجنة المصادرة لهم في مقابل البيت والمصنع، سبعة آلاف جنيه، كفيلة بأن يتعيشوا من ريعها مستورين وأن يستمر الأبناء في مدارسهم الخاصة وحتى ينتهوا من تعليمهم الثانوي، وما عليها إلا أن تقتصد قليلاً في مصاريف البيت واحتياجاته، وهي قادرة على تدبير ذلك..

يدور الزمن دوراته المتعاقبة بالدكتور رشاد فكري ومن دونه، يدور. وتمضي الأيام والليالي متشابهة وكأنها لا تمضي، وكأن دوران الزمن قد توقف به في سجنه بقنا.. ويتساءل محمد البوري عما ألم بالزمن ومتى يجيء الفرج، فلا يجد إجابة. تسلل الملل بأعطافه من جديد فنضبت المشاعر. توقف عن الرسم وعن الكلام وعن الحياة، ولم يعد يتحسب مرور الأيام فلم يعرها انتباهه كما كان يفعل قبلاً. ظن أن المدة قد قاربت على الانتهاء، ولكن بعد أن شمر عن ساعديه ترقباً ليوم خروجه أدرك أن تتابع الأيام إنما يزيد المسافة التي تفصله عن اللحظة المرتقبة، فيئس من جدوى التطلع نحوها. وبدأت قدماء تغوصان في الأرض من تحته، وكأنه واقف فوق تبة من الرمال المتحركة، بل وكانت كل محاولاته للفرار من كآبة الواقع والنجاة منها إنما تزيد من انغماسه

أكثر فأكثر في أحضان الرمال، ورويدًا غاب جسده وروحه كليًا واختفيا تحتها. حتى الصلاة فقدت تأثيرها الأول في أن تجعله أكثر اطمئنانًا نحو يومه أو غده، بل وزادت محاولاته في التبحر في أمور الدين من سطوة تفكيره فيما بعد الموت، مما عظم من شعوره اليأس تجاه الحياة. فكر يومًا في الانتحار، ولكنه سرعان ما تراجع مستغفرًا بسبب الخوف من العذاب الأبدي الذي كان بانتظاره لو فعلها. وتبدى له الأمل سرابًا يختفي عنه كلما شرع هو في أن يحاول أن يقترب.

ولم تكن كلها تهيؤات أو أوهامًا من ناحيته، فقد امتدت مدة سجنه فعلاً لأطول مما كان قد صدر الحكم به، بأمر من وزارة الداخلية بشأن السجناء من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين..

وبدأت زوجته زينب، وأبناؤه محمد ومصطفى ومي يزورونه في أحلامه إذا نام، وخلال يقظته حين يمضي يومه جالسًا فوق السرير الحديدي وقد أسند ظهره للحائط البارد يتجنب برطوبته لسعة الشمس الحارقة بالحوش، حيث يقضي بقية السجناء والسجانة أيامهم، يتسامرون أو يتسلون بلعب كرة القدم. تماهى إليه في إحدى تأملاته مذاق الحرية الذي كان قد افتقده بشدة، وتساءل فعلاً ذات يوم إن كان كفاحه المثابر هذا، وبطول كل هذه السنوات، من أجل تمكين رواد حركة الإخوان المسلمين من الوصول إلى كرسي الحكم، يستحق فعلاً أن يضحى من أجله كل تلك التضحية.

انتبه فجأة ذات صباح إلى تسلل شعيرات بيضاء إلى فروة رأسه فانتابته
موجة من الفزع. العمر تتسرب أيامه من بين أصابعه، والحياة تمضي من
حوله وهو لا يدري عن مرورها شيئاً. انسابت الدموع الساخنة - أخيراً -
على خديه وهو يتأمل في أن «مي» لن تتعرف عليه يوم يعود إلى بيته بالحضرة،
هذا إن عاد!

وأنشب اليأس أظافره الحادة في لحمه فانغرست، فلم يستطع أن ينزعها
عنه رغم كل المحاولات..



صارت «ليلي» أنسة جميلة، بل رائعة الجمال في الواقع، مما جعلها محط أنظار
الشباب والرجال الزائغي العيون والقلوب، فذكرت الكهول من أهل محرم
بك بالمرحومة «قمر» أجمل الجميلات، وخشوا أن تلقى ليلي الجميلة نفس
المصير. كانوا يشملونها بعطف وحنان بل واحتواء وعيون رقيقة يحمونها بها
عند دخولها وخروجها من البيت، لئلا يعترض طريقها ذئب من الذئاب،
فلعله يفتك بها. ولكن تقف النوايا الحسنة دوماً عاجزة أمام بطش يد الأقدار،
فقد وقع المحذور بالرغم من كل محاولاتهم. لقد تبعها في طريقها للمدرسة
يوماً، المهندس «ماجد البارودي»، الشاب الوسيم المعروف في الحي كله
بمغامراته النسائية وعصيان الفشل أمامه في الاستحواذ على قلب كل امرأة

قرر يوماً ما أن يغازل مشاعرها ويسقطها بمهارة في مصيدته. وكانت «ليلي» صيداً سهلاً ومُغرياً بالنسبة له، فهي طالبة بالثانوي، فيما كان هو في سنة البكالوريوس بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية، صحيح أن كانت تلك ثاني محاولة له بعد رسوبه السنة الماضية، ولكن لم يحرك ذلك من حجم ثقته بقدراته، بل اعتبر أنه قد ازداد خبرة بشئون الحياة، والناس، وخصوصاً النساء منهم! أما الدافع الأهم لديه - بعد جماها الفتان - فلكونها يهودية! نعم، ففي عرفه، ولمعرفته الوثيقة بعالم النساء، كانت اليهوديات صيداً ثميناً لا يستهان به، فهن جميلات مرحات ومتحركات، ودوماً متشبهات بالأوربيات، وإن كان العثور على واحدة منهن في تلك الأيام قد صار عسيراً بعد أن رحل عن الإسكندرية معظم اليهود وخصوصاً بعد العدوان الثلاثي على مصر. لذا فما إن علم بعودة عائلة الخواجة داود إلى محرم بك، ومعهم الابنة الشابة اليافعة، حتى شرع يتدارس خطواتها ويرسم بأناء ومهارة خطته للإيقاع بفريسته.

واستجابت ليلي بأسرع مما كان يتوقع، فقد انبهرت بوسامته، كما خارت كل السياجات التي كانت قد أقامتها من حولها لما لمحته يتبعها في ذلك الصباح بوسامته ونضجه المتوج بشارب ذهبي منسق يخط منتصف وجهه، فما إن تتم محيياً بـ «صباح الخير يا آنسة ليلي» حتى ابتسمت إليه متصنعة الخجل، وإن بوغت هو بروعة جمال عينيها العسليتين حين التفتت إليه،

فسرت في جسده رجفة حتى خارت رُكبته من تحته فكاد أن يسقط، لولا أنه تدارك الأمر فوراً، وبصعوبة اتخذ بضع خطوات قصيرة أتاحت له أن يتمالك نفسه، معاتباً ذاته بشدة إزاء تلك الكبوة المشينة في تاريخ صولاته ومغامراته النسائية الحافل. ولكنه بشر! وكان جهاها وتجاوبها المفاجئ بمثابة الصدمة لديه، فلقد اعتاد المراوغة والبرود العنيد المفتعل كرد الفعل الأول لدى نساء وفتيات لا عدد لهن، حتى وإن كُنَّ عند نصف جهاها، فما بالك ما كان يتوقع من صدد من فتاة على ذلك القدر من الفتنة. وتنامت علاقة قوية بدأت بإعجاب شديد متبادل، وبسرعة تحول الإعجاب إلى حب جارٍ بوغت بقدومه صاحب الغزوات، وفاجأ مجيئه عديمة الحنكة، فأشهد ليا ليهما معاً، وأسعد أيامهما بلقاءات مسروقة من ساعات النهار، بجوار المدرسة أو على الكورنيش أو عند ميدان المحطة، لدقائق معدودة، خوفاً من أن تلمحهما عيون أحد من الجيران أو سليمان أو أي من أصدقائه..

ومع ذلك، فقد حملت النسائم الرقيقة، وأجنحة الطيور المحلقة القادمة من ناحية البحر، خبر العلاقة البريئة بين طياتها فتلقفته إيلين هلعة، ولم تتوان في أن تُعلم تفاصيلها لداود المعتزل في حجرته فور وصولها إليها؛ لأن مسائل الشرف تلك لا يصح التكتُم عليها، ولا الصبر على مواجهتها، بالرغم من مظاهر البراءة التي كانت تحيط بها، ولكنهم يعيشون بحي محرم بك وليسوا

في «جليم» أو «سان استفانو»، بالإضافة لحساسية موقفها كزوجة أب للصبية ليلى، مما جعل تصرفها في الأمر بمفردها غير مستحب، بل ومنتقداً، وخاصة إذا لم يَحُلْ في عيون ليلى أو داود فيما بعد. وبالرغم من اندهاش داود عند سماعه بالخبر وكأنه قد بوغت بنضج الصبية المفاجئ حتى صارت امرأة صغيرة بين ليلة وضحاها كما تبدى له، إلا إنه لم يدر لوهلة كيف يتصرف في ذلك الأمر، فآثر أن يترك لحكمة زوجته الأمر برمته لتفصل فيه كما يحلو لها! ومع ذلك سُوِّيت المشكلة بأسرع مما تَوَقَّع أيُّ منهما على أي حال، فلقد ظهر فجأة «نبيل يوسف قطاني»، حفيد المليونير المعروف وابن عمة المرحوم والده، في عقر دارهم، ليعلم داود بأنه وعائلته كانوا راحلين إلى أوروبا في غضون أيام، وأن والده قد أرسله خصيصاً ليسأله لو شاءوا أن يصطحبوا معهم الأنسة ليلى، اليهودية الأخيرة الباقية من أبناء داود، قبل أن يتحوَّل هو للمسيحية عند زواجه من إيلين. وبالرغم من معارضة ليلى بل وانهارها عند سماعها بالخبر، إلا إنه رُؤي أن رحيلها عن مصر ربما كان الأفضل بالنسبة لها، فأرغمت على السفر لأوروبا، وخاصة بعد ازدياد اللهجة العدائية بين مصر وإسرائيل في تلك الأيام، وخوف داود وإيلين عليها إزاء ازدياد نفور المصريين بشكل عام من اليهود، تحت وطأة الهجمة الإعلامية الهائلة التي تبنتها الدولة حينذاك، وكانت بالطبع فرصة للحيلولة دون نمو تلك العاطفة

الوليدة ودون مجابتهها مباشرة. وكان سفر ليلي وابتعادها عن الإسكندرية صدمة كبيرة بالنسبة لماجد البارودي أدت به لأن يرسب - من جديد - في امتحان البكالوريوس، إلا أنه تخطى المحنة وحصل على البكالوريوس في العام التالي قبل أن يُفصل من الكلية. وتغير بسبب تلك العلاقة العاطفية بليلى - وبالرغم من قصرها - مسار حياته فأنهى من بعدها مطارداته النسائية وفاءً لها، متفرغاً لحب أفلاطوني ما يزال يكنه لمعشوقته «ليلى داود عبد الملك» التي وثق بأن الأيام سوف تجمع فيما بينهما من جديد مهما كانا قد تباعدا..



أمّا سليمان فقد تبدلت حياته تمامًا منذ عودته لمحرم بك.. وقد يسهل الحكم على تأثير تلك العودة على أبيه وأمه، أو حتى على أخته ليلي، لأنهم كانوا قد أمضوا فترة طويلة - نسبيًا على الأقل - بمحرم بك، من قبل أن ينتقلوا لقصر بنيوتي باشا، وبالتالي فإن تأثير الرجوع للسكنى بالحى الشعبي عليهم، كان متوقعًا لأنهم اختبروا شعورهم بالتغير مرتين متتاليتين، فكانت المرة الثانية بمثابة إعادة الأمور لنصابها بالنسبة إليهم. أما بالنسبة لسليمان، فكان التغير الوحيد الذي وعاه - ومعه في نفس التجربة أخته الصغيرة منى - هو نتيجة تلك النقلة الأخيرة، من المعيشة الرغدة بالقصر محاطًا بمرجس وعم عبده الطباخ والأسطى وليام سائق السيارة السوداء الفارهة التي كان يستقلها كل يوم - بصحبته - إلى المدرسة، ثم ينتظر إطلالها بسواها اللامع

الفخم عند الظهرية لتصبحه من جديد إلى البيت. وكان ذلك هو أول تغيير حقيقي ألم به، فقد صار عليه منذ رجوعهم إلى محرم بك، أن يسير للمدرسة كل صباح وإلى البيت عند الظهرية، منفردًا في طرق وأحياء جديدة عليه بالمرّة. أما عن الدراسة فقد مرت سنواتها مسرعة به، واستمر يخطو بثقة فوق درجاتها المتوالية بثقة الطالب المتفوق الذي تكلل إنجازاته بشهادة تفوق عند نهاية كل عام..

ولكنه، وبالعكس المتوقع، شعر بنوع جديد من السعادة لم يألفه من قبل، تلك السعادة المصاحبة للحرية. نعم، الحرية تضفي السعادة حتى على قلب صبي يخطو بفضول عبر أول السنة السادسة عشرة من عمره، وحتى لو لم يشعر قبلها بأن هناك ما ينقصه أو ما يقيدّه، إلا أن الوقت الذي أصبح يقضيه منفردًا بين البيت والمدرسة كل يوم، دون رقابة وصي يشير إليه بما ينبغي له أن يفعل - كما حدث له طوال حياته - أضفى على حياته مذاقًا مبهّرًا، حتى لو كان ذلك لمجرد مقدرته في أن يغيّر من مساره فيسير لمدة أطول في شارع السوق أو سكة الحلواني أو شارع فؤاد مثلاً دون الحاجة لأن يستشير أحدًا، أو أن يقف عند عودته أمام نافذة أحد المحلات ليتأمل قميصًا برتقاليًا أو صورة خضراء للاعبين نادي «الاتحاد السكندري»، أو يعرج إلى داخل محل فطاطري لابتاع قطعة (هريسة) بالقشدة في طريقه للبيت يوم الخميس مثلاً، وكل ذلك يمكنه أن يفعله - أو لا يفعله لو أراد - دون الحاجة إلى أن

يرجع في قراره لأحد؛ الحرية! ما أجملها!! وصاحب شعوره بالحرية - بالطبع - انطلاقات غير محدودة لخياله تخيل خلالها نفسه يوماً لاعب كرة شهيراً، ويوماً نجماً سينمائياً، أو طبيباً ناجحاً، حسبما تهديه أفكاره في هذا اليوم أو ذاك. حرية!!

واعتادت عيناه كل تفاصيل الطرق المختلفة التي بات يسلكها خلال مسيرته اليومية، من حفراتها لبالوعات المتناثرة بجوار الأرصفة هنا وهناك، والمباني الحجرية الشاهقة وخصوصاً بشارع فؤاد، والجيران وأصحاب الحوانيت وبوابي العمارات، وحتى الكلاب والقطط التي كانت تنبري مسرعة من أمامه عند مدخل بيت، أو منور، أو عند عطفة يمر بها، انتابه شعور يقيني بأنه يعرفهم كلهم وأنهم صاروا يعرفونه، وأنه بوسعه حتى أن يتخاطب معهم فيمنعهم من أن يؤذوه بحكم سيطرته على عقولهم الصغيرة. وفوق ذلك فقد اكتسبت رجلاه قوة وتكورت عضلاته فصار شاباً يافعاً، وارثاً ملاحظة أمه ونحولة أبيه، وإن فاقه طولاً وعرضاً وما يزال بعد في السادسة عشرة..

وبالإضافة لمسيرته اليومية، اضطلع سليمان بمشاوير التسوق يومياً لصفته المذكرة في العائلة، فاكسب خلالها «حكمة الشوارع» متعلماً الكثير من المهارات في معاملة الباعة وانتقاء الخضروات والفاكهة بل ومفاصلة الأسعار، خبرات لم يكن ليحتك بها حتى ولو كان قد أمضى العمر كله

متقوِّعًا في قصر بنيوتي باشا محاطًا بجيش صغير من الخدم. وبالتدريج اكتسب ثقة بعض رفقاءه في الحي فسمحوا له بأن يشاركهم في لهوهم بل وفي بعض مباريات كرة القدم التي كانت تجري ما بين الجيران، ولكن لم يرتفع مستوى تلك العلاقات إلى مستوى الصداقة مع أي منهم، وبقي «يوسف» صديقه الوحيد..





الفصل الثامن عشر

سبع سنوات كاملة أمضاها داود في عزلته، لا يعرف مما يجري من أحداث في العالم من حوله سوى ما يصل إلى أذنيه عبر الراديو. وكان لا يكثرث بما كان يحدث في معظم الأحيان، ولكن مع إرهاصات صيف العام السابع، جاءت رسائل مجنونة وإشارات جهنمية، وكأنها واردة من عالم خرافي لا يمتّ للواقع بصلة. وبالرغم من كونها أصواتاً بشرية حقيقية تصل إلى أذنيه، فقد كانت تحمل في طياتها معاني لا معقولة، وتمنى لو أنها لم تكن أعراض مرض عقلي أو نفسي - على الأقل بالنسبة له - ولكنه أدرك مع مرور الوقت أنها كانت بالفعل رسائل مجنونة تسربت فجأة عبر كل أجهزة الراديو في نفس التوقيت بكل أنحاء المدينة. تتابعت في شكل هستيري هو مزيج من الأغاني الحماسية والموسيقى الحماسية ونشرات إخبارية موجزة في صورة بيانات عسكرية تتوافد في تعاقب مدهش، تتحدث بنبرة جادة وبصوت رخيم عن انتصارات مهولة كانت القوات المسلحة المصرية تحققها، بسرعة خيالية، وبحسم منفرد، إزاء العدو الاسرائيلي، ولكن تعاقبها الخيالي هذا لم

تنطل مبالغاته على أحد، وخاصة بعد الساعات الأولى من انطلاقها. وكأن أيدي خفية قد طافت بشتى أنحاء البلد، فلقد تحركت في كل مكان مؤشرات الراديو بعيداً عن موجة «صوت العرب» ومحطات الإذاعة المصرية، ملتصين حقيقة ما كان يحدث عبر «صوت لندن» و«راديو إسرائيل». وكالنار المشتعلة في أحد الحقول انتشر الحريق وبسرعة جبارة، حتى احترقت البلدة كلها خلال دقائق معدودة، وتبخرت نفوس المصريين جميعاً، وتحولت قلوبهم في غمضة عين إلى حفنات من الرماد الأسود. فلقد انتشرت فجأة الأخبار في كل مكان، الخرافية والحقيقية، المجنونة والعاقلة، معاً في كل حارة وكل شارع وكل بيت، وذُرفت الدموع ولطمت الخدود في كل بلكونة وانطلقت الصرخات من كل شباك، وهرعت حشود الناس إلى الشوارع يهيمون باكين بلا وجهة محددة..

وفجأة في غمار الصمت الذي اختار أن يحتذيه، صرخ داود في صومعته:

«ليه كده بس يا جمال؟»

لماذا ترك الزعيم الأمور تتطور إلى هذا الحد؟ لماذا؟. ثم بعصية وضع قميصاً وسروالاً وألقى بچاكييت حول جذعه، ثم أحكم الطربوش فوق رأسه بتلقائية، وخرج من البيت - لأول مرة منذ سبعة سنوات - متجهًا مباشرة نحو البحر..

عند قبو المنزل ناداه الأسطى حافظ الكواء:

- «الخواجة داود! مش معقول! إنت لسه عايش! كنت فين يا خويا طول
السنين غايب؟» وعند التقاء الطريق بشارع السوق علق أحد الشبان الواقفين
على الناصية:

- «الخواجة داود رجع يا جدعان!!» وعقب كهل من الجالسين بالمقهى
يحرق غضبه بنيران النارجيلة:

- «طبعًا لازم يرجع، آمال إيه؟. العجل لما يقع تكثر سكاكينه!!» وتلت
تلك الكلمات همهمات من رجال من حوله، تعبيرات حادة غاضبة مبتورة لم
يتبين داود لها معنى..

شعر داود بنظرات الناس، الذين اكتظ بهم الطريق من حوله، كالنيران
الحارقة تلهب قفاه وتثقب جسده من كل صوب، وكأنه مسئول عما جرى.
أما هو فقد استمر في مسيرته لا يبالي بها، فهو قد عقد العزم على أن يصل إلى
البحر رغم كل شيء. كم تغيرت يا شوارع الإسكندرية! وكأنه غاب عنها
دهرًا وليس بضع سنوات. ما كل هذا الازدحام؟ من أين جاء كل هؤلاء
البشر؟ وتذكر هو حلمًا كان قد رآه في الليلة الماضية وكان قد نسي تفاصيله
أولاً وإن عادت كلها إليه الآن. كان ما يزال طفلًا صغيرًا يسير في نفس
الطريق ممسكًا بيد أمه وقد أخذته ليمشي معها، وابتاعت له بعض الآيس

كريم، وكان يرفع رأسه ناحيتها بعد كل لعقة متألاً جمال وجهها الأخاذ وأناقته، في حين تنظر إليه بابتسامة مطمئنة وهما يرفلان في جنبات الشوارع الخالية تماماً من كل مخلوق. وفجأة اختفت عنه أمه بينما بقي هو وحيداً، يبكي في وسط الطريق المهجور، وذاب باقي الآيس كريم في يده. واستيقظ وهو يمسح دمعاً حقيقياً انساب فوق خديه، وشعور حقيقي يلازمه بوسخ عالق بيده التي مسحها بتلقائية فوق صدر جلبابه وهو يزال ما بين النوم والصحو..

أتاه صوت غريب مختلط بأصوات الطريق:

- «يا خواجه داود». فتعمد تلافيه إذ كان يكره لقب «خواجه» هذا..

أدرك أن قدميه لم تعودا بنفس القوة التي كانتا عليها قبل أن يعتكف، وانتابه شعور مؤكد بأن هناك من يتبعه، مما جعله يشد من خطواته بقدر المستطاع، يشق طريقه بصعوبة في خضم الأجساد المتلاحمة. ولكن لم تستجب للإرادة وحدها مقدرة ساقيه على السير مسرعاً، وبالرغم من هذا فقد أبى عليه عناده أن يستسلم. بجهد قطع ميدان المحطة، المكتظ عن آخره بأناس خرجت إلى الطريق تستطلع بتوجس ما حدث بالبلد، يتدافعون في كل اتجاه وبات من الواضح أنهم لا يقصدون وجهة معينة. والخطوات وراءه ما زالت تتبعه، ولكنه لم يحاول أن يتلفت خلفه وكأنه يدخر كل جهده حتى يصل إلى هدفه المنشود. بقدر ما كان اشتياقه لرؤية البحر يدفعه للتقدم، بقدر ما كان الوهن

الذي ألم به بعد طيلة عزلته كالأثقال المكبلة لخطواته، تعوقها عن بلوغ شاطئ البحر الذي اشتاقت قدماه لعناق رماله الساخنة ومداعبة أمواجه المتتابعة. جاءه النداء مجدداً:

- «يا خواجه داود» ومرة أخرى تجنبه..

وتعالت دقات قلبه حتى بلغ صوتها أذنيه، وتسارعت أنفاسه كلما همَّ بأن يسرع - ولو قليلاً تحسباً لوقوع الخطوات الآتية من الخلف تتبعان أثره بلا هوادة وتلك النداءات تلاحقه. بالإضافة لذلك الحزن الذي كان ما يزال يعتصره منذ الظهيرة من بعد أن سمع ما سمع. وابتدأت الدموع تتكور عند أركان عيونه ثم تنساب فوق خديه متدحرجة، يلحقها هو بظهر كمّه فيمسحها، بينما هو سائر في طريقه لا يقف ولا يلتفت، حتى لا ينبه متعقبه إلى أنه قد أيقن من دبات خطواته المتلاحقة أنه كان يتبعه. تذكر يوم لقائه الوحيد بالشيخ فودة، وخطوات الشاب الصارم التي كانت تلاحقه يومها أيضاً، وتساءل مرتعداً من أن تكون تلك هي نفس خطوات الشاب التي تتبعه الآن مُضمراً إيذائه في شخصه اليوم بالذات، كيهودي، انتقاماً مما فعله الإسرائيليون اليوم. أو ربما ثأراً للشيخ حسنين الذي اتهمه في موته الشيخ فودة عند لقائه به، أو حتى لانتحار قمر كما لوَّح به الشيخ يومها أيضاً. وناداه الصوت الغريب بنبرة جادة، منذرة:

- «يا خواجه داود!»..

أسرع من وقع خطواته لبضع دقائق، ملتمسًا طاقة دفيئة مستمدة من ذلك الإحساس الجامح بالخوف الذي كان قد اعتراه، ما يزال يدعوه «خواجة»، أجنبي عنهم، ولو كان لقبًا يطلق مجازًا من قبل، فكيف يكون الحال الآن؟ ماذا سيفعلون به اليوم بعد أن حدث ما حدث؟ ليس أقل من أن يفترسوه افتراءً، ليس أقل من أن يلتهموه حيًّا وأن يلوكوا لحمه العجوز بأسنانهم. وهَمَّ بأن يخطو متسارعًا لكن حرارة الجو ورطوبته وازدحام الطريق بالبشر بدت وكأنها ساتر قائم يحاول هو أن يخترقه ليمرَّ من خلاله دون طائل، فتبيَّن أنَّ المهمة مستحيلة، ولكنه رفع عينيه أمامه، فلمح من بعيد شريط الأفق المشتعل بوهج الشمس يلوح من فوق سور الكورنيش الحجري، وكان يرفع جسده على أطراف قدميه عند نهاية كل خطوة ليعلو بنظراته فوق الرؤوس لعله يلمح مبتدأ مياه البحر الممتدة تحت خط الأفق دون جدوى. كان عليه أن يواصل الاقتراب من طريق الكورنيش حتى يقدر أن يُبصر زرقة البحر، وإن كان التعب قد أدركه فعلاً..

- «يا خواجة داود». ولكنه لم يرد. ولم يلتفت..

وتسارعت أنفاسه أكثر، وتصاعدت ضربات قلبه أكثر فأكثر، ولكنه ناء بكل حمل واستمر في مسيرته مدرِّكًا ألا مناص إلا الوصول إلى شاطئ البحر. ووثبت إلى ذهنه تلك اللحظة التي كان يتتبع فيها - بصعوبة أيضًا - خطوات

الشيخ حسنين النافرة، يوم قاده لنفس المكان تقريباً ليصرعه بذبح علاقتها الممتدة، بل وليحثه على الرحيل عن بلده، بكل صفاقة! وبين أنفاسه المتلاحقة تتم مع ذلك داعياً له بالرحمة!. تبلل وجهه وجسمه بالعرق، فرفع عنه الطربوش وأخرج من جيبه منديلاً أخذ يجفف به رأسه وجبهته، ثم وضعه مجدداً وهو ما يزال يلهث، وإن لم يمنعه ذلك من أن يمضي في المسير..

- «يا خواجه داود!». استحال النداء إلى صراخ، ومع ذلك ذاب وسط

باقي الأصوات..

بدأ الألم يعتصر ساقيه كعقدة مربوطة بإحكام، أو كأسطوانتي معصرة تطبقان بلحمه وتفتتان عظامه العتيقة، فتبدى له أن يقف ولو لدقيقة، إلا أن الخوف من صاحب تلك الخطوات التي ما تزال تلاحقه من ناحية، والاشتياق لبلوغ غايته بأسرع وقت ممكن حثاه على أن يستمر. ثم بدأ الألم يتصاعد من ساقيه إلى فخذه، وحتى لحق بمعدته شعور بالغثيان مقترناً بألم يعتصره عصرًا ليرغمه على التوقف فيلتقط بعضاً من أنفاسه المتلاحقة، ولكن إحساسه باقتراب الخطوات من ورائه لم يُطلق له أي مجال للاختيار، فتابع مسيره مرغماً، وإن اضطر إلى أن يبطئ من إيقاع خطواته المستميتة ولو قليلاً إذ صار مستحيلاً على العجوز أن يكمل بنفس القوة التي كان قد بدأ بها. وتذكر في لحظة خاطفة وكأنها وميض من البرق لمع أمامه فجأة، خاتمه

المسحور، ذاك الذي لو لم يكن اختفى عنه في تلك الظروف الغامضة، ما كان ليحدث له أيُّ من هذه المصائب التي حلت به منذ اختفى وإلى الآن. بل وخطر له لحظتها أيضًا أنه لو لم يكن قد استرده من جمال يوم زاره بمنشية البكري لربما حال بقاءه معه للآن دون أن يحصل ما حصل بالبلد اليوم!

- «يا خواجة!. يا خواجة!»..

لم يرد أن يستجيب للنداء أو يلتفت خوفًا من إدراك هوية متابعه. تفكر بأنه لو كان يريد القضاء عليه لكان قد فعل، ولكنه أبدًا لن يطعنه غدراً، لن يؤذيه لو لم يلتفت إليه ويواجهه، بل هو حتماً يريد أن يراه ويتعرف عليه أولاً، أن يبصره وهو يدفع بسكينه إلى قلبه، ليشهد بعينه شبح الموت وهو ينقض عليه وينزع عنه روحه تحت ناظريه..

وصل أخيراً إلى الكورنيش! ولكن سيلاً من السيارات أرغمه على التوقف! أخيراً اختلطت بأنفه رائحة الرمال الساخنة ومياه البحر المالحة المتبخرة الممزوجة بعوادم السيارات المارقة! وتحينَّ هو الفرصة السانحة ليلتقط أنفاسه المتلاحقة غير عابئ - بل غير قادر أن يعبأ - بصاحب الخطوات وشعر فعلاً بوجوده وراءه مباشرة وكأن أنفاسه تلامس مؤخرة رأسه، وإن انشغل عنه بذلك الألم المميت الذي بات كالجلب القابع فوق صدره يمنعه حتى من أن يملأ رئتيه من هواء البحر الذي اقترب منه أخيراً حتى صار على

بعد خطوات قليلة. نعم هي خطوات قليلة وإن بدت أبعد عنه من قرص الشمس المستعر في عنان السماء، بسبب ذلك الوهن المؤلم الذي اجتاح كيانه! توقّف سيل السيارات عند الإشارة، فانتهاز الفرصة واستجمع ما تبقى لديه من جهد قليل وهمّ بأن يعبر الكورنيش فاستحال الألم إلى وحش مهول افترسه افتراساً..

ولكنه جرّ قدميه تحت وطأة الجسد المتهاوي بالرغم من كل شيء. وتخضبت ملابسه بأنهار من العرق وملأت مياهاها الناضحة صدره وقلبه، ولكنه مضى فيما كان عليه، مصمماً على أن يصل للشاطئ بأي ثمن. ولم يعبأ بالخطوات التي باتت الآن وكأنها متلاصقة بخطواته، ومع ذلك فلم يعر صاحبها ولو التفاتة! وفوجئ داود بغمامة تنزل أمام عينيه دون سبب، أفقدته رؤيته فصارت الأشياء أمامه تبدو وكأنها أشباح ترفل متراقصة لا يتبين معالمها، وازدادت آلامه تعتصر روحه منه، ولكن قدميه لا تزالان ترحفان به حتى عبر الطريق، وفقد إحساسه بالمطاردة فاستراح. وهبطت عليه فجأة صورة أبيه في شبابه النضر، يصطحبه لأول مرة إلى شاطئ البحر، وكما فعل يومها، لم تكد قدماه تنغرس في رمال الشاطئ حتى انكب راکعاً، وبتعجل ولهفة صبي في الخامسة خلع عنه حذاءه وجواربه وثنى طرفي سرواله، وتحامل على نفسه وانتصب ومضى نحو الأمواج المتهداية يصاحبه وجه أبيه

المتبسم. تلامست قدماء ببرودة المياه فشعر بقشعريرة تغمره، ولكن خفت قبضة الألم عن جسده قليلاً. أتاه وجه إيلين الجميل الهادئ محتضناً ابتسامة سليمان ومنى والطفل الراحل مكاري، وطافت صور ليلي وفؤاد وموسى وبدور أمهم، وصوفي ومارجو الرضيعة..

ولكنه ارتأى عند طرف الأمواج رغوًا مزبدًا، انبثقت من قلب ثورته الفائرة «قمر». بجسدها المثير الملتف بغلالة ملتصقة بكل ثناياه، نظرت إليه ضاحكة ضحكة خليعة، سمعها بأذنيه، ومدت ذراعها نحوه فشرع فعلاً محاولاً أن يقترب منها، أن يلمسها، ولكن لم تقوَ قدماء الهزيلتان أن تتحمّلاه أكثر من ذلك، فخر داود ساجياً فوق رمال الشاطئ باستكانة، تداعب جسده أمواج البحر المتعاقبة، وشرع يتغنّى لنفسه بأشعاره مدممًا، في حين أحس داخله براحة تنتشر في انبساطة مترامية لم يعهد مثلها من قبل..



الفصل التاسع عشر

حينما وصلت إلى المستشفى (الفرنساوي) سيارة الإسعاف كان داود عبد الملك قد فارق الحياة. ثم جاء مَنْ يستدعي سليمان من البيت ليتعرّف على أبيه، وكان قد أمضى اليوم كله بين جدرانهِ حيث كانت قد أغلقت المدارس أبوابها من بعد نشوب الحرب. أبصره سليمان ساكناً وقد تجمدت ملامحه آخذة تعبيراً مريحاً بوجه عام. وبرغم الحيلة التي كان قد تعهد أن يلتزم بها قبل أن يصل، لم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء، خجلاً من نفسه أولاً إذ كان ينتحب وسط هؤلاء الأغراب، ولكن كل محاولاته بالكفّ عنه كانت إنما تزيد من توتره فيبكي أكثر فأكثر، حتى قرر - أخيراً - أن يترك نفسه على سجيّتها. انسحب الأغراب بدورهم إلى خارج الغرفة الخالية إلا من جسد أبيه المسجى فوق السرير الأبيض المعدني ذي العجلات الأربع. اندهش حين أدرك الآن وسط دموعه أن أباه قد رحل عنه إلى الأبد، من قبل أن يتكلم معه عن أشياء كثيرة كان يود لو كان قد أتاح له الزمن فرصة ليسأله عنها أو يتحدث إليه ويشاركه إياها.. وتمنى لحظتها لو تَسَنَّى له أن يقتنص

من العمر ولو دقائق قليلة معه، ولكن هيهات أن يعود به الزمن ولو للحظة، فأمال رأسه فوق صدر أبيه الجامد وغاب في دهاليز حزنه الغامضة المعالم بالنسبة إليه من جديد. لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أن كل هذا الحزن كان يكمن بداخله، بل والأدهى أنه لم يكن يدرك أنه يُكَنُّ لأبيه بالذات كل ذلك القدر من المشاعر، فعلاقتها - باستثناء فترات متفرقة - لم تكن بمثل ذلك العمق الذي حسبه يكفل كل تلك الدموع التي أراقها. وقد كان دوماً يعزي ذلك لفارق السن الكبير الذي كان يفصلهما، ولكن تبدَّى له خطأ تفكيره اليوم بعد فوات الأوان للأسف! وتتابع وتتابعت ومضات في ذاكرته وكأنها صور فوتوغرافية تتتابع أمام عينيه لمواقف جمعتها بطول السنين، وهُيَّءَ له أنه كان مجرد متفرج وكأنه لا شأن له بها، ولكنه تدارك متفكراً بأن مجرد الحزن الذي يعتريه الآن إنما هو دليل على عمق العلاقة التي امتدت بينهما، دون أن يدرك هو مقدار عمقها، لكنه مع مرور الوقت كان قد بات موقناً أن أباه كان مدركاً لذلك على الدوام، مما أكد له لحظتها أنه كان رجلاً عظيماً على أي حال. وسرت طمأنينة إلى قلبه عندها، أعادت إليه رباطة جأشه فتوقف عن البكاء..

وَلَوَلْتُ إيلين وانكمشت من جديد في عزلتها الحزينة مسترجعة ذكرياتها مع الموت والفراق التي كانت قد لازمتها مع رحيل طفلها «مكاري». ولكن

مسئوليتها هذه المرة تجاه «سليمان» و«منى» انتزعتها سريعاً مما كانت عليه. تحيرت هي أولاً فيما لو كان ينبغي لها أن تبحث عن الحاخام اليهودي الوحيد الباقي في القاهرة بحسب ما سمعت، ولكنها نَحَّتْ الخاطر بعيداً، وصَلَّوْا على جثمانه في حُضْن الكنيسة، ومع ذلك فقد أشارت للكهان إلى رغبته الدائمة في أن يدفن بمقابر اليهود بجوار أبيه وأمه، فكان له ما أراد. وفي اليوم الثالث لموته دخلت إيلين غرفته واقشعرتْ لثقل سكونها. أبصرت آلة العود الحزينة الرابضة فوق الكومودينو وكأنها تشكو إليها وحدثها لأول مرة. تناولتها إيلين واحتضنتها برفق مارةً بأناملها تمسح غلالة ترابية رقيقة كانت قد تجاسرت عليها بعد غياب داود، وتشممت أنفها رائحته المنبعثة من خشب الآلة العتيق فأثت في صمت رغماً عنها ولكنها عادت وتماسكت. ثم بدأت تعبث بالأدراج بين أوراقه فوجدت مجموعة من الأوراق المتناثرة، مختلفة الأشكال والأحجام خَطَّ فوق سطورها أفكاره ومذكراته، مؤرخة بأوقات كتابتها، تتخللها بعض كلمات الأغاني المشهورة، ثم عثرت على الدفتر الأزرق التي كانت قد ابتاعته إياه عند عودتهم لمحرم بك. جلست إيلين عند حافة السرير وفتحت الدفتر متأملة بفضول محتوياته، وتبينت أن الأوراق باتت ممتلئة عن آخرها بالأشعار، وفي سكون المكان المطبق بدأت تقرأ قصائد داود كالمسحورة. ومن تلك الليلة التي قضتها بطولها ساهرة،

وحتى يوم وفاتها لم تنقطع إيلين عن قراءتها خلال مختلف ساعات النهار والليل..

تذكرت إيلين بحسرة الخاتم الفضي الذي كانت قد خبأته عن داود طيلة تلك السنوات، وتناهت إليها رغبته التي كان قد أعلمها بها مرات ومرات في أن يورثه لابنه سليمان من بعده. نعم سليمان، وليس فؤاد أو موسى، حتى من قبل أن يرحل عن مصر، وهم أبناءه أيضًا بل والأكبر والأولى بوراثته. ولكنه اختار سليمان ابنها هي. وتكفيرًا عما ارتكبه بحق داود كل تلك السنوات، همت إيلين إلى الصوان القديم حيث تكدست ملابس المرحوم مكاري قبل أن تلحق بها ملحقات زوجها، ومدت يدها المرتعشة تعرف طريقها بين أكوام متكدسة وأطبقت أصابعها فوقه ثم نادت بصوت متردد:

- «سليمان!. يا سليمان!»

تساءلت إذا ما كانت تفعل الصواب، ولكن انغماسها في الشعور بالذنب تجاه زوجها حدا بها إلى أن تستمر فيما كانت تضمه. ناولته الخاتم الفضي، ثم قصّت عليه حكاية الخاتم، كل الحكاية!. وأبدت له أسفها الشديد وندمها على ما اقترفته تجاه أبيه، حتى بعد أن نصحتها القسّ ميخائيل بأن تعيد الخاتم إليه. ولكنها خافت! نعم ضعفت وخافت، سيطر خوفها من أن يكتشف داود فعلتها، فيعنفها عليها، على حقه هو في أن يستعيد خاتمه، مدى الحياة!

وبينما كانت تقصُّ على ابنها قصتها، امتلأت إحساسًا بالدناءة والأنانية، وتساءلت كيف تسنى لها أن تُستغرق بمثل هذه القسوة تجاه زوجها بطول كل تلك السنوات؟ بل وكيف لم تفكر أن تعيده إليه ولو بدافع الشفقة نظرًا لما آلت إليه حالته من الاستكانة والعزلة بل والاكتئاب وخاصة أنه قد آمن بأن كل تلك الملمات التي حدثت بهم كانت بسبب ضياع الخاتم منه، وهو لا يدري بأن ذلك الخاتم عينه كان قابلاً طوال الوقت بجواره، على بعد أمتار منه. لم تحاول وهي تقصُّ عليه كل هذا أن تقلل من قيمة الهدية التي أهداها والده الراحل إليه، ولكن مجرد اجترار قصتها بصدق تفصيلاتها هكذا أمام ابنها، كان له تأثير مريح على نفسها غسلها من بعض الشعور بالذنب. أما الشاب الصغير فقد انبهر بالقصة كما يليق بابن السادسة عشرة أن يشعر، وما إن انتهت أمه من سردها حتى وضع الخاتم بينصره الأيمن، وانتابه لحظتها شعور غريب بالقوة، لم يجد له تفسيرًا سوى أنه كان من تأثير ذلك الخاتم المسحور!!

بطول السنين شعر سليمان بقوة مفعول ذلك الخاتم تشمله.. ولكن لم يأت مفعوله غامراً فياضاً كما ارتآه أبوه من قبل، في صورة طفرات ساحقة في حياته غيّرت من مسارها، ولكنها عند الابن جاءت كالرذاذ المستمر، وليس كالسيل المنهمر وإن كان متقطعاً كما كان اختبار أبيه مع الخاتم المسحور، وفي

النهاية تساوى حظهما من مفعوله بحياتهما. فبينما شعر داود بأن قوة سحرية قد أدت به للقاءاته بجمال أو ببنوتي باشا وهبوط الثروة فوق رأسه، أحسَّ سليمان - على الجانب الآخر - بجدول جارٍ منساب من الحكمة والحذق في التعامل مع الناس من حوله، كل الناس وخصوصًا مع الجنس اللطيف منهم، فلم تستعص عليه فتاة أو امرأة أعجبته! حتى «نجاة» فاتنة الحى التي ذاب في جمالها الجميع والتي استعصى حتى على «ماجد البارودي» الفوز برضاها، وقعت في شباكه! فصار أسطورة بين رفقاءه، بل وخاف الجميع من جبروته وتحاشوا حتى التقرب إليه خوفًا على أخواتهم البنات منه. تذكر يومًا وكان قد انحرف يمينًا إلى شارعهم في طريقه إلى البيت أن مرَّ بالمقهى على الناصية وكان يجلس بها صبي كواء يدعى «نملة» واسمه الحقيقي كان «مسعود» ولكن شاع عنه ذاك اللقب إذ كان ضئيل الحجم منمنمًا، الذي مال على أذن «حودة» العجلاتي رفيقه بالبحس لس حين أبصره قادمًا، فسمعه يهمس له:

- «.. يجعل كلامنا خفيف عليهم! (سليمان) ده خطير يا بني! ممكن تلقاه في يوم يعدي من فوق بيتكم كده يهرسك إنت وعيلتك، حرّص منه على أخواتك البنات والنبي!». فابتسم نحوهما ولكنه لم ينبس..

ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة صولاته وجولاته طوال سنوات الدراسة وحتى تخرجه من كلية الآداب، قسم الفلسفة، بتقدير جيد،

بالرغم من انشغاله معظم الوقت بمغامراته النسائية. وأعد فشله الوحيد رفض عائلة «مريم دوس» ارتباطه بها حين فاتحتهم الفتاة برغبتها في أن يتقدم لخطبتها، بسبب الفارق الاجتماعي الكبير الذي كان يفصل بين عائلة «دوس» الثرية، وعائلته المتواضعة - على أحسن تقدير. وبالرغم من ولهاها الشديد به، واستمرار علاقتهما في السر لعامين كاملين من بعدها، بالرغم من معارضة أهلها، إلا أن تهاونها تجاه موقف أهلها منه وتخليها عن التشبث به حتى النهاية، كان قد ترك أثراً عميقاً عليه، لم يقدر أن يتغلب عليه بطول السنين. إلا أنه على كل حال قد أعد تعلقها الشديد به من الهبات التي حباه بها الخاتم المسحور، أما هو فاعتبر علاقته بها نوعاً من التحدي، كأنه اختبار لمفعول الخاتم المسحور حيال قوانين المجتمع الصارمة، ولكن الدافع الحقيقي وراء ملاحقته لها كان حبه لذاته أكثر من حبه لها على أي حال..

وتمرُّ الأيام الرتيبة المتشابهة، وتتجمع في جعبة الزمن سئمة فارغة لا تحمل في ذاكرتها ما يميزها، فلا تعلق أي من تفصيلاتها بذاكرة «محمد البوري» القابع في سجن قنا ينتظر بصبر - بعد أن صار لا يمتلك سواه - أن يأتي يوم الفرج..
ولم يأت..

انتظره عند كل إشراقة شمس، وليلة مولد كل هلال، وعند قدوم الشتاء
بصقيعه وسيوله المنهمرة، وعند هلول كل صيف بسعير نهاره وجفاف
رياحه، ولكنه لم يأت..

حتى..

حتى مات الطاغية. أخيرًا!

نعم. أخيرًا سقط، بعد أن أودى بأجل سنوات عمره مع باقي الإخوان،
ما بين جدران السجون، وأسقطهم إلى أسفل السافلين. أقزامًا صاروا خلف
تلك الأسوار العالية، ورمال هذه الصحراء المترامية من حولها تحجبهم
عن أي أثر لحياة، ومساحة شاسعة من النسيان تفصلهم عن أهلهم، وعن
الناس، وعن البلد. ثم - أخيرًا - مات، بعد أن أضاع مع سنين وجوده كل
شيء! خَرَبَ البلد بوجوده، ومعه هؤلاء الملاحدة الشيوعيين من الضباط
إخوانه، الذين ابتعدوا بالناس عن العبادة وحكم الله وشريعته، ملتصقين
بأمثال خروشوف وماو تسي تونج وتيتو وكاسترو، فسقط البلد بأهله في
بالوعة الهزيمة والخراب. لم يستطع أن يغفر له ما فعل أبدًا، وظلت سحابة
الكراهية تلك تحلق فوق ذكراه، أو أي شيء يحياها من قريب كان أو من
بعيد..

وفي النصف الأول من عقده السادس، وبينما كان قد فقد الأمل في الخروج، أمر الرئيس الجديد محمد أنور السادات - أطال الله في عمره - والذي تلا المأفونة ذكره، بالإفراج عنهم. تلقى الأمر أولاً بفرح بالطبع، وإن انتابته رجفة من أن يكون الوقت قد فات له ليتلاقى من جديد مع عجالات الزمن التي دارت طويلاً من دونه، ولكنه اقتنع بأن التجربة على صعوبتها تستحق الخوض خلالها دون شك، فقرر أن يثب في لجتها وليكن ما يكون، فماذا يتبقى له أن يخسر بعد كل ما خسر. وتمتم عند بوابة السجن الخارجية قائلاً:

- «حسبي الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»

حين وصل إلى محطة «مصر» بالإسكندرية بكى. لم يستطع أن يحتمل كل تلك المشاعر ويبقيها متوقعة بداخله بعد، ففاضت في هيئة دموع تنزلق على صفحة وجهه المجعدة، وقد ابتسم في سذاجة مربية وهو يتلفت إلى كل من حوله محتضناً إياهم بعيونه بعد أن كان قد غاب عنهم ثمانية عشر عاماً. كان يجب أن يترك القطار في محطة «الحضرة» ولكنه لم يدرك معالمها ففاته أن يدركها قبل أن تتحرك عجالاته، أو لعل القطار لم يقف بها من الأصل، لا يدري، وإن كان الآن قد وصل به إلى المحطة الأخيرة فنزل. ولما خرج إلى الميدان الشاسع فوجئ بالزحام الذي ملأه عن آخره. كم هائل من الباعة الجائلين والمتسولين وباعة ورق اليانصيب، وتعالص صيحات هنا وهناك، وغطت طبقة من

الطين الأرض فلم يتمكن من أن يميز البلاط من الأسفلت، وافترشت النسوة باعة الخضروات الميدان بسلالهن القذرة، لا بد أن أمرًا جلدًا قد وقع، لا بد أن يعرف كنهه قبل فوات الأوان، حتى إنه بفضول طفل هارب من بيت أبويه لزحام المدينة توقف، ونظر إلى المشهد من حوله متعجبًا، ثم مدَّ يده وربت على كتف أحد الباعة المارق بصينية عريضة محملة بالسमित والجبن والبيض المسلوق، مشدودة بحزام إلى رقبته متسائلًا:

- «هو فيه إيه؟»

- «فيه إيه يعني إيه يا حاج؟ روح. الله يسهل لك»

ونادى بآخر جالس فوق قالين من الطوب وقد امتدت أمامه كرتونة تحمل مجموعة من أمشاط الشعر والسكاكين والملاعق والمناديل الورقية، مستفسرًا:

- «إيه الحكاية يا بني؟ الناس دي كلها بتعمل إيه هنا؟» فنظر إليه باستغراب ولكنه لم يرد، فسأله بعد أن تأكد من أنه في صمته لن يزيد:

- «طب لو سمحت يا ابني أروح الحضرة ازاى؟»

- «خد الترام الي رايح النزهة وانزل في الحضرة، ولا تكونش عاوز حق

التذكرة؟. روح يا بويا واتكل على الله وخلينا نشوف شغلنا بقى»

لقد حسبه متسولاً فصرفه عنه!. أو ربما ظنه مختلاً؟ أسقط في يده مدرّكاً
أن مظهره لا بد وأن يثير الاشمئزاز حتى في عيون ذلك الصعلوك فقرّر ألا
يتكلم مع أحد حتى يصل بسلام إلى بيته..

حمل لفافة ملابسه المعقودة فوق كتفه ومضى بخطى حذرة نحو الترام
المتجه للنزهة لينزل في الحضرّة كما أوصاه الرجل. لم يدرِ كم سعر التذكرة
هذه الأيام، وخجل أن يسأل الكمساري فأعطاه ورقة بعشرة قروش هي كل
ما كان يملك بعد أن كان قد اشترى تذكرة القطار من قنا إلى الإسكندرية،
وتردد فيما لو كان سيعطيه الباقي فحول نظره إلى اتجاه آخر، نحو صبية جميلة
جالسة بجوار أمها وقد عقدت يديها الصغيرتين حول ذراعها ومالت برأسها
نحوها قليلاً، تفكر في أنها ربما تشبه «مي» ابنته، ولكزته يد الكمساري فأعادته
إلى قروشه المتبقية من ثمن التذكرة. وعند محطة «كابو» حمل جعبته ومرق بين
الأجساد المترصّة ونزل. وقف متسمراً على الرصيف ورنات الترام الراحل
تودعه، وتلفت حوله متسائلاً بينه وبين نفسه - عن الطريق إلى بيته، فأدرك
كم تغيرت كل الأشياء من حوله حتى إنه لم يُعْذِ يدرى كيف يعود إلى منزله.
وفكر في أن يسأل واحداً من الناس المكتظ بهم رصيف المحطة من حوله،
ولكن تجربة محطة مصر أجبرته على العدول عن الخوض في تلك المخاطرة
من جديد. لا بد أن شكله قد بات غريباً عندما استمرت وقفته الصامتة

هكذا على رصيف المحطة، فبدأ المارة من حوله يرمقونه بنظرات مرتابة، وبدأ الأطفال يطوفون من حوله بصمت أولاً، ثم حين بدأت أيديهم وأصابعهم وضحكاتهم الشقية تمتد نحوه مستكشفة ما إذا كان عاقلاً كالباقيين أو مجنوناً من المجاذيب هبط إليهم من الترام لغرض تسليتهم وإمتاعهم، تبين له ريبة الجميع في أمره، فرفع جعبته فوق كتفه من جديد، ومشى..

ماذا حدث؟ كيف تغيرت كل المعالم هكذا، ومن هم هؤلاء البشر الذين يملئون الشوارع من حوله ولا يعرف أيّاً منهم ولا يعرفونه. عَبَّرَ شارع «الحضرة» بمعجزة بعد أن كادت سيارة مارقة أن تسحقه. اختفت علامات الطريق التي استرشد بها دوماً، ولم يجد أيّاً من المحلات التي كان قد اعتاد أن يبصرها، فلم يلمح الأسطى كامل التريزي، أو عم عبده البقال، أو مخزن الحاج الدمهوري للمانيفاتورة حيث اجتمع بالإخوة بعد خروج الشيخ حسنين من المعتقل. أين ذهب كل هؤلاء ومن أين جاءوا بكل البدلاء ليملئوا الشوارع والطرقات هكذا. لا بد أن يكون هناك سر ما ولا بد له أن يعرفه، فلا يمكن أن تفسر سنوات غيابه تلك كل ذلك التغير، فشدد من خطاه مسرعاً نحو البيت. عَبَّرَ بجانب السور العالي المحيط بمدرسة الصم والبكم، فذكره وحمد الله أنه ما يزال قائماً هناك وإلا ما كان ليدرك اقترابه من منزله. ثم انحدر عند أول عطفة متأملاً المنازل القديمة على الجانبين،

وهاله كم القاذورات المتكومة عند أسفل كل منها وقد تصاعدت منها روائح مقبحة، ولكنه تجاوزها مدرّكاً قبو منزلهم العتيق، فَخَطَّأً بداخله هارباً من ذلك الشعور بالاغتراب الذي اجتاحه، وارتقى درجات السلم المتآكلة إلى الدور الثاني لأمحاً الكتابات المدهونة بلون أحمر فوق سطح الحائط الكالـح بجانبه:

«الاتحاد: ٢ - الأهلي: صفر»

«هانحارب»

وقف برهة أمام الباب ليلتقط بعضاً من أنفاسه، وليعدّ نفسه للقاء أسرته مسترجعاً تفاصيل ملامح كل منهم ومحاولاً أن يتخيل ما يمكن أن تكون الأيام قد فعلت بها. وبرقة طرق بأصبعه على الزجاج من بين القضبان الحديدية التي كست النصف العلوي لباب الشقة..





الفصل العشرون

مهما تصاعد ومهما بلغ الأسى، فلا بد مع مرور الوقت أن تذوب الأحزان ثم تتلاشى في أنهار النسيان السيّارة، وخاصة حين تحملها إليها وتلقي بها خطى الإنسان المستسلمة لمسيرة الحياة ولقدراتها. وبالرغم من طول باعها مع الأحزان ومع فراق الأحبة، فلقد استسلمت «إيلين» أخيراً لقدرها، وألقت عنها بثقل أحمالها فتباعدت عنها أحزانها على رحيل زوجها بأسرع مما توقعت، حتى شكت في أن تحول مشاعرها هكذا قد يعبر في نظر البعض عن عدم وفائها لذكرى زوجها الراحل. ففي أقل من ستة أشهر كانت قد تخلّصت من كل كآبة وعزلة كانت ما تزال عالقة بأيامها، وكانت تعتقد أن الزوجة المخلصة إنما لا بد أن تكتسي حياتها بتلك المشاعر الحزينة المنكسرة وحتى يوم لقائها بروح زوجها، أو على الأقل لسنين ممتدة من بعد رحيله عنها، وليس لسته أشهر!. ولكن وبالرغم من عمق محبتها لداود إلا أنها وجدت نفسها توجه مشاعرها تجاه ذكراه إلى مجرى آخر جديد حتى عليها هي، جانحة نحو الاعتناء بأبنائه كأفضل ما تستطيع، إجلالاً لذكراه، بدلاً من البكاء والحزن،

وكأنها تحمل على عاتقها أن تستمر وصايته على أبنائه من بعد رحيله، عن طريقها هي، ومن خلالها، فلا يشعر أيها نقص لغيابه..

بل وكانت قد شعرت أن داود لم يمت ويتركها، حيث بقي دائماً طيفه يحوم حولها وتعينها ذكره على مواصلة الطريق، وتفهمت أنه دائماً ما كان يقودها بطريقته الخاصة إلى ذلك السبيل، حين ترك لها ثمن المصنع والقصر تحت تصرفها من قبل، وحين أوصى بأن يتول الخاتم المسحور - في نظره - إلى ابنها سليمان دوناً عن بقية أبنائه، وشعرت بعد رحيله بوجوده السرمدي في وسطهم حين قرأت أشعاره التي أخذت بلبها منذ قرأتها في الليلة الأولى فبينت من خلالها أفكاره ووصاياه وعصارة قلبه وروحه..

استمرت في عطائها المتدفق الذي استغربه الجميع، وحتى هي نفسها تعجبت من طاقتها المتدفقة تلك، حتى تخرّج «سليمان» من كلية الآداب ومن بعده «منى» من كلية التجارة بجامعة الإسكندرية. ولحسن تدبيرها فلقد استطاعت أن توفر لمنى مستلزمات عرسها وتجهيز شقة مناسبة لها حين تقدم لخطبتها زميلها بالكلية «نادر عبد المسيح»، والذي انتقل بها إلى القاهرة بعد زواجهما ليبدأ مشوارهما في الحياة معاً، دون مساعدة من أبيه الذي كان مديراً لأحد أفرع بنك الإسكندرية. انكسر قلبها أولاً لفراق ابنتها بالطبع، ولكن التحول الذي كان قد طرأ عليها منذ رجوعهم إلى محرم بك كان قد أكسبها صلابة صعب على تغيرات الأيام أن تغير من قوتها..

وفىما عدا قليلاً من (السُّكري) الذي كان ثمناً لزيادة وزنها المفرط والذي نصحتها بأن تنقصه الدكتور «رياض شكري» الطبيب الوسيم الذي تمتته لابتنتها من قبل أن ترتبط بـ«نادر»، إلا أن شيخوختها كانت مريحة نسبياً. فقد قسمت وقتها بين صلوات القداس المنتظمة واجتماعات درس الكتاب المقدس يومين في الأسبوع بالكنيسة، وبين زيارتها للملجأ العذراء مرة في الشهر، واكتفت بزيارة ابنتها «منى» بالقاهرة خلال الأعياد والمناسبات بمعدل مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ولكنها لم تكن تشعر براحة لوجودها في بيت «نادر» وحضرته مع أنه كان دائماً ما يعاملها - والشهادة لله - أحسن معاملة، إلا أنها لم تغلب على إحساسها بأنه كان قد اختطف ابنتها من بين أحضانها ومن الإسكندرية كلها ونزح بها بعيداً عن عينيها إلى القاهرة. وفيما عدا ذلك فقد اكتفت بالاستماع إلى الراديو أثناء النهار، وقراءة الكتب الدينية وأشعار داود بالليل. أما سليمان فكان يعيش معها كنزلاء الفنادق، فلا تراه إلا نادراً لحظة قدومه أو خروجه، وإن كان نادراً ما يقضي وقتاً معها، فيتيح لها أن تتحدث إليه عما يجري بالدنيا من حولها. ولكنها مع ذلك كانت راضية كل الرضى بمسيرة حياتها المطمئنة المنعزلة عن العالم ومشاغله المتعددة..

وفي شهر أبريل من عام ١٩٦٨ كان قد حدث أمر جليل غير من رتبة حياتها وأدخل إليها بهجةً وترقياً كانت الأيام العادية قد طمستها منذ زمن

طويل . فلقد أعلنت الكنيسة بمحرم بك عن قيامها برحلة إلى القاهرة لزيارة كنيسة العذراء بالزيتون هناك حيث اندلعت أخبار مؤكدة بظهورات معجزية للسيدة العذراء مريم فوق قبابها، شهدها أول من شاهدها عمال بسطاء كانوا ساهرين بموقف للحافلات بجوار الكنيسة هناك، فوجئوا بخيال لامرأة تمشي فوق سطح مبنى الكنيسة من حول قبابها فأسرعوا بإبلاغ الحارس، وسرعان ما جاء القسيس وجمع من الناس وانبهر الجميع بالضياء المنبعثة من جسم المرأة التي تبين للقسس أنها السيدة العذراء، واعتقدوا هم أنها امرأة تحاول الانتحار، وفجأة اختفت المرأة بضياءها. انتشر الخبر بسرعة مذهلة بعد أن تكررت الظهورات التي أبصرها المئات ثم الآلاف من سكان المنطقة ومن النازحين من الأحياء المجاورة أولاً، ثم من شتى الأنحاء فيما بعد، حتى إن «منى» ابنتها كانت قد ذهبت بصحبة زوجها ذات ليلة وشهدتها بنفسها وأبلغتها تليفونياً في اليوم التالي. وبعد إلحاح وافق «سليمان» أن يصحبها إلى هناك مع باقي شعب الكنيسة، وفي الحافلة التي أقلتهما كان قلبها يكاد يركض قبلها ليشهد نور السيدة العذراء هناك..

في وسط شارع «طوممان باي» الممتد تجمعت الآلاف وقد افترشوا الأسفلت والأكلمة والجرائد أحياناً، أو جلسوا بمقاعد الشاطئ التي جلبوها معهم، أو وقفوا الليل بطوله متسمرين شاخصين برهبة واشتياق

نحو القباب الصامته، تحيط بدائرهم المجتمعة الحافلات المصطفة بالموقف حيث رآها العاملون بها لأول مرة. وفي الواحدة والنصف صباحاً تبدى نور وضّاء فوق القبة القبلية وسط صياح الجموع بقي لدقائق ثم اختفى، ثم نحو الثانية صباحاً ظهرت السيدة العذراء فوق القبة بنور أثري لم تشهد لمثله بهاء، وتصاعدت الهتافات كهدير نابع من آلاف المجتمعين وانتشرت في المكان رائحة البخور والورود بسرعة فائقة، ثم بعد حوالي عشرين دقيقة غاب النور واختفت السيدة العذراء وانقطعت روائح الأطياب، وكأن أحداً قد ضغط زرّاً كهربياً فانقشعت، ثم ضغطه مجدداً فغابت. وامتلاً الميدان بعدها بهتاف وصراخ هنا وهناك تشي بمعجزات وقعت، أو بغبطة سماوية طاغية سرت، أو بحسرة من أناس كانوا موجودين طوال الوقت وإن لم يبصروا شيئاً مما شهده الباقون. ولدهشتها، علمت إيلين أن الكثيرين ممن شهدوا الظهورات وأدركوا تلك المعجزات كانوا من المسلمين الذين توافدوا إلى المكان بعد أن بدأت الجرائد تكتب عن المعجزة. أما عنها هي فلقد حظيت بفرحة وسلام لم يسبق لها أن اختبرت من قبل، وفوق ذلك فقد حبتّها العذراء مريم بمعجزة الشفاء من مرض السُّكري كما أعلمها الدكتور رياض فيما بعد..

أما «سليمان» فلقد امتلأت أيامه بمغامراته العاطفية، وبعمله الجديد كمدرس للفلسفة لطلاب القسم الأدبي بمدرسة «سان مارك» التي كان قد تخرج منها، ولكن في مكان خفي، متوارٍ من الأحداث التي امتلأت بها حياته، كان فكره دائماً مشغولاً بفكرة المعجزات، وإذا ما كانت تتعارض مع نظريات العلم والمنطق. كان لرؤيته لنور العذراء فوق قبة الكنيسة بالزيتون السبب الأكبر في طرح مثل هذه التساؤلات أول الأمر. فلقد كان قبلها لفظ «معجزة» إنما يستعيره ليستخدمه مجازاً، كأن يتفكر يوماً في أنها كانت «معجزة» مثلاً أن يصل إلى الجامعة في الميعاد قبل أن يغلق الدكتور «سعد مذكور» الباب، ويبدأ في تقرير الطلبة المتأخرين عن موعد بدء محاضراته، وكأنه لا يعيش في نفس البلد التي يحيون بها، ويدرك أزمات المواصلات، والمرور، التي تحيط بتفصيلات كل أيامهم. أو أنها «معجزة» أن يفوز هو بقلب «نجاة» دوناً عن أي ممن حولها من الشباب، بل وحتى المهندس المرموق والشاب الوسيم «ماجد البارودي». ولكن «المعجزة» التي ارتآها بكنيسة العذراء كانت مختلفة، فقد كانت المعجزات من النوع الأول تخضع كلية لقوانين العلم والطبيعة المعروفة وما كان استخدامه للفظ المعجزة عند حدوثها إلا على سبيل المبالغة، ولكن ظهور العذراء فوق قبة الكنيسة ورؤيتها لها من قبل الآلاف من المسيحيين والمسلمين معاً، يوماً بعد يوم بحي

الزيتون وبمشاهدته هو شخصيًا لها بشارع طومان باي، لم يكن ليخضع لميزان الطبيعة ولا العلم، وإن لم يناهضهم في الوقت ذاته أو يتعارض معهم، وإنما يقع في إطار «خارج» مفاهيم العلم والمنطق وقواعدهما. فقوانين الطبيعة تحتم ألا تتدخل في تطبيقاتها قوى أخرى مؤثرة، حتى لو كانت فوق الطبيعية كما درس في قسم الفلسفة بالكلية، فمثلاً قانون الجاذبية لم يبطل حين امتدت يده بالأمس والتقطت كرة كانت في طريقها إلى السقوط إلى الشارع بعد أن وقعت من طفل كان يلعب بالبللونة، حين كان سائرًا تحت البيت، ولكن تدخل يده منعت الجاذبية - الخاضعة للقوانين الطبيعية - من أن تسقط الكرة إلى سطح الأرض، كما كانت قد سمحت يد الله - فوق الطبيعية - ليلتها، وأمام عيون الآلاف من البشر، بأن تتحدى قوانين الطبيعة التي كانت تحتم بسريران الظلام فوق القباب إذ لم تكن هناك شمس لتضيئها مثلاً، وتدفع بالمعجزة لأن تحدث، بل وكان الدليل على حدوثها إجماع الغالبية المجتمعة على وقائعها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأسباب حضورهم إلى ذلك المكان بالذات، فقد كان هو مثلاً أحد الذين حضروا خصيصاً لتفنيد ذلك الحدث «غير العلمي» من الأساس!. وما إن تشارك سليمان بهذه الجدالات الفلسفية مع أساتذته في الكلية وصديق دراسته «يوسف طاهر» وبالرغم من غرابة الفكرة إلا أنه فوجئ باستحسانها في عيونهم حتى إنه اقترح عليهم

أن يتقابلوا دورياً للمناقشة، مناقشة مواضيع عامة وخاصة، وأفكار فلسفية وفكرية، على أن تكون اجتماعاتهم لمناقشتها، بجوار أي أفكار أخرى قد تَجَدُّ مستقبلاً، في إطار «جماعة الفكر الحر» التي أرساها. استحسنوا الفكرة، بل وتبرع أحد الأساتذة بقسم الفلسفة بشقة بالدور الأول بعمارة شاهقة بالإبراهيمية كان أبوه يتخذها مكتباً للمحاماة له قبل وفاته، لتكون مقراً لاجتماعاتهم. وكان الدور الأرضي عبارة عن مقهى يرتاده الشباب حتى مطلع الفجر، اشتراه صاحبه من رجل يوناني كان يديره كحانة تستقبل مريديها حتى مطلع الفجر! ولكن ما لم يعرفه «سليمان» أبداً هو أن صاحب تلك الحانة كان «الخواجة أنطونيلي»..



انفتح الباب ووقفت شابة جميلة سمراء البشرة فارعة الطول تسد فتحتة متحلية بابتسامة عريضة، فيما وقف «محمد البوري» وقد عقدت المفاجأة لسانه حين أدرك أنها ربما تكون رحلة عودته قد انتهت أخيراً وأن تكون هذه الشابة اليافة الواقعة أمامه هي ابنته «مي». وتعجبت هي من ذلك العجوز الذي طرق بابهم ثم بقي صامتاً هكذا أمامها فتساءلت فيما لو كان أدرك أنه أخطأ العنوان، وازداد الموقف تعقيداً في عينيها حين بدأ العجوز الغريب ذاك يذرف الدمع صامتاً. ومع ذلك فلقد مرت دقائق لم تَقَوْ خلاها أن تصرفه

وتغلق الباب، بل بقيت هي الأخرى متجمدة أمامه منتظرة أن يبادئها هو بالحديث، بينما اندحرت عن وجهها تلك البسمة. ثم تكلم العجوز أخيراً متلعثاً:

- «إنتِ ميمي؟».

دقت رنات نبرات صوته في مكان عميق من قلبها وعقلها، لم تتبين موضعها من نفسها أولاً ولكنها أدركت رغم كل شيء ألفتها لديها بل وحميميتها، وبالذات فإن لقب «ميمي» كان مقتصرًا على الدائرة الضيقة جدًا من معارفها، فاستثار نداؤها به من قبل ذلك الغريب فضولها، مما دعاها إلى أن تستجمع شجاعتها وتجيّب في ثقة:

- «أيوه أنا ميمي. مين حضرتك؟»

- «أنا أبوكي يا بنتي» قالها بصوت متهدج، ثم اندفع نحوها فاتحاً ذراعيه ليحتويها إلى حضنه بينما بقيت هي متجمدة في مكانها من هول المفاجأة. ثم رفع ذراعيه عنها ودار حولها بينما بقيت هي متسمرة وقد وضعت راحتها أمام فمها غير مصدقة، ودخل «محمد البوري» الشقة متسائلاً:

- «فين زينب؟ فين محمد ومصطفى؟ يا زينب! يا حاجة زينب!»

بدأ يصيح بصوت ملؤه الفرح وهو يجوب أنحاء الشقة البسيطة الأثاث المتراص بداخلها بنفس الأماكن التي تركها عليه منذ ثمانية عشر عاماً، وإن

اكتست جدرانها الآن بطبقة جديدة من الجير الفستقي . جاءت زينب مهرولة من الداخل وهي لا تصدق أنها سمعت صوت رجلها يملأ البيت من جديد، تسبقها فرحتها الغامرة حتى إنها دخلت إلى الصلاة، وقد بسطت يدها أمام أنفها وقد غطى كفها أعلى فتحة فمها ولسانها المتراقص بداخله، مزغردة زغردة متصلة وصلت بها إلى أن وقفت بين يديه ..

- «ألف حمد الله ع السلامة يا خويا. نوّرت بيتك، ألف حمد الله على سلامتك». وأشياء أخرى مماثلة تفوهت بها أحياناً، وتفكرت بها أحياناً أخرى وإن لم تتح لها الفرحة التي اجتاحتها الفرصة لأن تنطق بها. هاله منظرها وفوجئ بما فعل الزمن بها، ولكنه تعمد أن يحتفظ بمشاعره لنفسه. وفجعت هي أيضاً، مندهشة من كل تلك الشيخوخة والوهن التي رجع مكللاً بهما، مثلما حدث له تماماً، وإن تجنبت بدورها التعليق لئلا تחדش مشاعره ..

- «أمال فين الولاد؟ قصدي أقول الرجالة، ولاد إيه بقى بعد ما شفتك يا ميمي!» تساءل محمد ناظرًا نحو ابنته «مي»، التي ابتسمت لأول مرة بينما كان يُهمُّ بأن يعتلي مكانه المفضل على الأريكة المكون ظهرها للحائط أسفل النافذة المطلّة على منور البيت وقد قبعت صينية محملة بقلتين من الفخار عند أحد جانبيها، تماماً كما تركها منذ ثمانية عشر عاماً، فنظر حوله متفحصاً بأرجاء المكان وحمد ربه أن ما يزال هناك شيء واحد لم يتغير بعد في هذه الدنيا

الجديدة. انكسرت رأس زينب فوق صدرها قليلاً وإن أبقت عينيها مثبتة نحو عينيهِ وهي تقول بحسرة:

- «(الإسّيس) طفش على أمريكا، يا بو محمد، بس (مصطفى) بخير، شغال في مصنع (باتا) وزمانه قرب يرجع ع الغدا..» قالتها وصمتت، مديرة وجهها للناحية البعيدة لئلا يلمح الدمع الذي كان قد بدأ يترقرق في مقلتيها. لاحظ هو ذلك فتساءل مغيراً اتجاه الحديث:

- «أمريكا مرة واحدة! يا مرسى يا بو العباس! إنما إيه حكاية (الإسّيس) دي؟» تساءل مقهقهماً. فلقد جرى العرف أن يدعى الشخص الخبيث بلقب «القسيس» بلغة الإسكندرية أولاد البلد، كناية عن جبنه ومكره بطريقة ساخرة. ونجح فعلاً في إضفاء جو مرح فردت زينب مدركة أن زوجها غاب عن بيته كل تلك السنوات:

- «أصل يا سي (محمد) الست (أم جابر) صاحبة البيت كانت واقفة في يوم ع السلم بتتفرج على (عزّة) ما بين (جابر) ابنها وأخوه (حسين) وبين ولاد الأسطى (حسونة)، وكان - بعيد عنك - الدم للركب. في مجيئة ابنك (محمد) إلی طلع السلم لابیهِ ولا عليه حاضن كتبه يا حبة عيني، وعداً من وسطهم كده ولا كأن فيه حاجة خالص، ما هو مالوش في العراك والكلام ده يا خويا. فالست أم جابر زعقت في عياها وقالت حاسب يا وله إنت وهو

لحسن الدم يوسخ قميص الإيسيس.. ومن يومها طلع الإسم ده عليه»..
تفكر في الأمر وابتسم إذ أمضى ثماني عشرة سنة في السجن لانتهاه
لجماعة الإخوان المسلمين، ثم يخرج بعدها ليشهد أن ابنه الأكبر قد هاجر إلى
«أمريكا»، بعد أن صيرته «الست أم جابر» قسيئًا!..



الفصل الحادي والعشرون

كمثل جراب الحاوي المليء بالأعاجيب، يُخرج منه تبعاً ثعباناً أرقط فيسيطر على حركاته المتمايلة بمزماره، أو حمامة ودیعة يطلقها راقصة مرفقة عالياً في الهواء، أو مناديل ملونة بألوان الحياة، أو وطواطاً أسود مذعوراً ممزوجة ملامحه بسحنة الموت يخفق بجناحيه، بينما يعرج متخبطاً فوق رؤوس المشاهدين، هكذا أيضاً الأيام تأتينا متأنية مسترسلة، تتبسم إلينا متخابثة بينما تقبض من جرابها وتلقي في وجوهنا بغرائب ومصائب أحياناً، ومنح وجبايات في أحيان أخرى. فبينما كان سليمان يرفل في سنوات دراسته مطمئناً إلى مسيرتها الهادئة، متنقلاً كالفراشة بين زهرة وأخرى، كانت البلد تغلي من حوله متقدة بنار القهر والإحباط الذي لازم الهزيمة والانكسار والاحتلال الذي أطاح بالجانب الشرقي لقناة السويس وحتى الحدود المصرية الإسرائيلية، بالإضافة إلى تحبط السلطة بين ربط الأحزمة، والصبر، و«عام الحسم» الذي انتظروه ولم يأت أبداً، مهما قيل إنه على الأبواب، حتى بدا وكأنه السراب الذي لن يناله التائه في الصحراء المقفرة، فيخفقه كلما أسرع مندفعاً نحوه..

وحدث ذات عصر في أواخر الصيف وكان قد استيقظ لتوه من قيلولته، وبينما كان يحتسي الشاي في البلكونة جالساً فوق نفس المقعد الذي اعتاد أبوه أن يجلس عليه، وبينما يتفكر فيما سيفعل بنفسه في تلك الأمسية، إذا بالباب يطرق، وتجيئه أمه لتعلمه بحضور شاب طلب مقابلته فأجلسته بحجرة الضيوف منتظراً له. بسرعة غيرَ بيجامته بقميص وبنطلون وأسرع خارجاً يشملمه الفضول حول مَنْ يكون ذاك الضيف. أدار مقبض الباب ودخل فإذا بالمهندس «ماجد البارودي» الشاب الوسيم يجلس مستكيناً بوجهه الأحمر وشاربه الذهبي، وابتسم إليه حين دخل إلى الغرفة، فمدَّ يده إليه مصافحاً ومرحباً بقدومه، وإن انشغل فكره محاولاً استنباط ما تحمله تلك الزيارة من أسباب..

- «تشرب شاي؟» سأله بحميمية، فابتسم ماجد البارودي وحنى رأسه قليلاً ثم أجابه متلعثماً:

- «ما فيش مانع، يعني لو ما فيش تعب، ياريت!» وابتسم ثانية وعدل مجلسه بالكروسي المذهب ذي المقعد المنبعج غير المريح. انصرف سليمان لوهلة طالباً من أمه أن تُعدَّ الشاي ولما عاد بدا على الشاب الوسيم الذي تقدم بمجلسه إلى حافة المقعد، الاستعداد للدخول في الموضوع. لم يستطع هو أن يخمن السر وراء زيارته، حتى بادره ماجد قائلاً:

- «في الحقيقة يا سليمان - تسمح لي أقول سليمان كده من دون ألقاب؟»
أوماً إليه سليمان، واستمر يهز رأسه لأعلى وأسفل مشجعاً إياه طوال الحديث،
فأكمل:

- «في الواقع أنا مش عارف أبدأ إزاي. أنا أصلي متوتر جدًّا في الحقيقة.
أنا مكسوف جدًّا إني جاي كده من غير ميعاد، بس الموضوع مهم، قصدي
يعني مهم بالنسبة لي. مش عاوز أطول عليك يا سليمان، إنت أكيد عارف
إني دلوقت ضابط في سلاح المهندسين، يعني أصل أنا دخلت الجيش بعد
البكالوريوس، من كام شهر بس، وجندوني برتبة ضابط وعلشان مؤهلي
ألحقوني بفرقة في سلاح المهندسين، أنا آسف باعيد الكلام، وباضيقك، أنا
آسف والله. أصلي متوتر شوية، لأ مش حكاية توتر، في الحقيقة أنا خايف!
أنا آسف إني باقول لك الكلام ده.. طيب وانت ما لك؟ آجي وأزعجك في
بيتك. آسف يا سليمان! والله ما قصدت أزعجك!» خرجت كلماته مبتورة،
متناثرة، كقطع الزجاج الصغيرة عندما يسقط الكوب المصقول على الأرض
فيتحطم. قاطعه سليمان مهدئاً إياه بعبارات عامة مثل «لا داعي للاعتذار»
و«نحن إخوة» و«لا كلفة بيننا» فهدأ قليلاً، ولكن لم يحسم الموقف ويعيد
الانتران للغرفة إلا دخول «إيلين» - أمه - حاملة لصينية الشاي..

- «اتفضل. اشرب يا ماجد باشا». دعاه محاولاً أن يكسر حدة التوتر. مَدَّ يداً مترددة نحو الصينية وحمل الكوب واقترَب به من شفّتيه بسرعة، بهزة خفيفة تكاد ألا تكون ملحوظة، من قبل أن ينسكب الشاي من حافة الكوب المرتعشة ما بين أصابعه. ارتشف مرتين ثم وضع الكوب فوق الصينية من جديد. ثم أعلن فجأة:

- «بصراحة يا سليمان أنا مرعوب من الحرب».

لم يفهم مكنون هذه الجملة وماذا يقصد بها بالضبط، خائف من اندلاع الحرب؟ من خسارة الحرب؟ من الموت في الحرب؟ ماذا يعني بالضبط؟

- «حرب إيه؟» تساءل سليمان، فارتفع صوته وكأنه ينهره:

- «يعني إيه حرب إيه؟ حربنا مع إسرائيل طبعاً!!» يقصد الحرب القادمة!! فاستلقى بظهره مستكيناً إلى مسند كرسيه، وقال وهو يشير بيده نافضاً الفكرة بعيداً:

- «يا راجل إنت بتصدق الكلام ده؟ ما فيش لا حرب ولا حاجة!!».

علق سليمان مبتسماً محاولاً أن يضيفي نوعاً من السكينة إلى قلبه..

- «لأ. فيه يا سليمان!!» أجابه ماجد وأطرق، عاصراً رأسه ما بين كفيه، وقد ارتكز بمرفقيه على فخذه دافئاً نظراته فوق السجادة الكالحة بحجرة الصالون. وساد صمت للحظات. ثم استكمل الحديث قائلاً:

- «فيه استعدادات مكثفة وحاجات بتحصل حوالينا، مش هاقدر أقول لك على تفاصيلها طبعاً، بس الموضوع جد!!» وساد صمت جديد..

- «يا سيدي ما هم كل شوية بيعملوا الحركات دي علشان يفهموا الناس إنهم مش ساكتين!!» أجابه سليمان محاولاً من جديد أن يشيع بعض الاطمئنان إليه دون جدوى..

- «يوسف طاهر صاحبك معايا في الوحدة، اتكلمت وياه عن الرعب إلي أنا فيه ده، لقيته هو هادي جداً وواحد الموضوع بمنتهى البساطة، مع إنه متأكد زبي تمام إن الموضوع جد جداً». وهنا ضحك بهيستيرية وانتفض واقفاً ثم أخذ يخطو حثيثاً بأرجاء الغرفة وقد عقد ذراعيه خلف ظهره يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً، وما يزال يطلق تلك الضحكات العصبية المتتورية. وتماماً، كما كان قد وقف فجأة، جلس فجأة، واعتدل عند حافة كرسيه ثم فرك كفيه معاً وتكلم مجدداً:

- «يوسف طاهر قال لي عن الخاتم بتاعك، قال إنه خاتم مسحور، ومفعوله أكيد من أيام الشيخ سيد، الله يرحمه، ولحد دلوقت..» وهنا بدأ صوته يتهدج من شدة التأثير ولكنه تمالك نفسه وأضاف:

- «أرجوك يا سليمان. أتوسل إليك. أنا عاوز أستلف الخاتم بتاعك إلي ورثته من المرحوم أبوك. أرجوك! سلف بس لحد ما أرجع مش أكثر. والله

العظيم ما هيفضل معايا ولا ساعة زيادة! أنا حاسس إني هاموت لو سافرت للجهة من غيره. والسفر بكرة الفجر!. أنا عارف إنه طلب صعب لكن أنا خايف يا سليمان!.. أنا مرعوب!. أرجوك!..

لم يجد سليمان بُدًّا من أن يستجب لطلب «ماجد البارودي» عالمًا أن الموضوع برمته لن يتعدى بضعة أيام يعود بعدها مدرِّكًا أنه كان يبالي في استقرائه للأمر..

وعندما تحدث بعدها مع أمه في هذا الشأن تعجبت من تهاونه في صون ممتلكاته وخاصة ذلك الخاتم الذي كان قد ورثه عن المرحوم والده، فقالت:

- «ما لكش حق يا سليمان. وتعرف منين بس إنه هايرجعه من تاني؟ مش ده برضه ماجد إيلي كان عاوز يلطش أختك (ليلي) من وسطنا، لولا سافرت لبلاد برة!» وأضافت بتأثر:

- «يا ترى عاملة إيه دلوقت يا ليلي يا بنتي؟»..

هكذا كان سليمان دائمًا، يتصرف في كل أموره بتلقائية قد تصل إلى حد السذاجة، ولكن رغبته الملحة في اجترار رضى الآخرين عنه كانت تدفعه دفعًا على الدوام في ذلك الاتجاه..

ولكن بعد مرور أقل من يومين فوجئ الجميع وهو بالذات حين تبين له صحة توقعات «ماجد الباودي»، اندلعت الحرب بين مصر وإسرائيل وكان لسلح المهندسين دور بارز في عبور القوات المصرية لقناة السويس، واجتياز «سد بارليف» الترابي والتغلغل من جديد إلى أرض سيناء من ورائه، تلك الأرض التي غاب المصريون عنها لأكثر من ستة أعوام. ثم بعد ثلاثة أشهر من بداية الحرب عاد المهندس «ماجد البارودي» يطرق باب سليمان، وأخذه بين أحضانه ثم أعاد إليه الخاتم المسحور كما كان قد وعده، وأعلمه أن باستثنائهما، هو و«يوسف طاهر» الذي أصيب بشظية بسيطة جرحته بفخذه، فلقد استشهد كل فرد من أفراد وحدته من الجند وصف الضباط..

عاد من جديد للصلاة بانتظام..

بل وشرع «محمد البوري» إلى المسجد القريب ليصلي العشاء ذات مساء فلقية المصلون به، وخاصة المسنون منهم، بعد أن تعرفوا عليه بفرحة عارمة واستقبلوه أيما استقبال. بات يصلي كل الفروض بالجامع من بعدها لما وجد منهم كل ذلك الترحاب، ثم ازداد تلهف الشباب عليه والتفافهم من حوله وخاصة عندما بدأ يكلمهم عن تجربته في السجن. دبَّ النشاط في جسده من جديد، وكأنها كان الزمن قد عاد به عشرة أعوام للوراء وخاصة من بعد زيارة «ديدو» له.

كان قد تلقاه في منزله ذات ليلة وكانت «مي» قد ذهبت لعملها المسائي بمكتب الآلة الكاتبة المجاور، بينما خرج «مصطفى» مع جماعة من الأصدقاء في سيارة أحدهم وكان أبوه يعمل بالكويت وقد ابتاعه تلك الـ «فيات ١٢٤» تعويضاً له عن سنين عمره التي أمضاها دون أب يرعاه. قال له ديدو إن صديقاً له يدعى «عبد الحميد مصطفى» يعمل بالمخابرات، قد لاقاه وقال له إن النظام قرر إطلاق الجماعات الإسلامية لتعمل بكل حرية حتى تحتوي الحركة الاشتراكية الشيوعية التي انتشرت كالوباء وخاصة بين طلاب الجامعة. وإن ذلك الصديق هو الذي أخبره عن إفراجهم عنه، بل وحثه على المجيء إليه ليزف إليه بنفسه تلك الأخبار السارة. أعلمه أيضاً عن وفاة «الشيخ فودة» منذ عامين تقريباً بعد نحو عام من عودته إلى منزله بمحرم بك بعد أن كان يحيا هارباً عن عيون الأمن متنقلاً بين مختلف المحافظات. وعن الحاج «سيد الدمنهوري» تاجر المانيفاتورة والإخوانجي القديم، أعلمه ديدو أنه قد أصيب بالشلل وأنه يمضي أيامه راقداً على سريريه بلا حراك تخدمه خادمة عجوز، بعد أن تركته زوجته المسنة لتعيش مع إحدى بناتها في سيدي بشر، حيث لم تقو على خدمته بل احتاجت إلى من يخدمها، وأنه لا يبدو عليه أنه يتعرف على أي من حوله حتى إن أبناءه قد انقطعوا عن زيارته منشغلين عنه بحياتهم الجديدة، بعد تصفية تجارته وتقسيم أمواله فيما بينهم، بحسب الشرع، وكأنه مات فعلاً..

تبين له أن «ديدو» ذلك الشاب الغضّ الذي كان قد تركه قبل ثمانية عشر عامًا قد صار اليوم زعيمًا مسئولاً عن الحركة يقصده رجال المخابرات للاضطلاع بمهامهم السياسية، وبأنه جاءه قاصدًا إدراجه بتولي القيادة عنه من جديد. اقتنع يومها بأن على عاتقه وقعت الآن مسئولية العمل بعد أن غابت عن الساحة كل القيادات، ولم يتبقَّ سواه وحده من الرعيل الأول، فحمد ربه على سنوات السجن الطويلة التي حفظته حيًا، استعدادًا لهذا اليوم الذي تعين عليه فيه أن يحيي حركة الإخوان المسلمين بالإسكندرية، وبأمر مباشر من النظام، وتحت مظلة رعايته..

لم تكن المهمة بالصعوبة التي كانت عليها في الخمسينيات حين كانوا يلتقون في جнг الظلام، ويلتفتون من حولهم ذعرًا لمجرد نباح كلب قد يمرُّ في طريقهم، فلقد صارت مسألة تجنيد الأعضاء الجدد غاية في السهولة بسبب انتشار الإحباط بين الشباب، وخصوصًا نصف المتعلمين منهم. كان كالصياد بالماء العكر، كما يقولون، فلا توقن الفريسة من أين يأتيها الخطر، فلقد كانت الرؤية بين الناس شبه منعدمة فعلاً، حتى إن الرئيس السادات نفسه أطلق على سنة ١٩٧٢ «عام الضباب».. وفي المقابل كانت منابر المساجد والزوايا منتشرة في كل مكان بحيث ما كان عليه إلا أن ينشر دعوته بين حفنة من المريدين أولاً، ثم يطلقهم من بعدها بين جموع المصلين ليتمموا نيابة عنه باقي

العمل، فازدادت أعداد جماعتهم وبالتالي عزوتها بسرعة مضطردة أذهلته هو شخصياً، وانتشر الشباب الملتحي المحفوف الشوارب يخطرون في جلابيهم في شوارع الحضرة والماكس والدخيلة، في تلك المناطق العمالية أول الأمر، ثم فاضت عنها إلى باقي الأحياء القريبة بداية، ثم البعيدة منها حتى وصلوا إلى «أبو قير» و«المنتزة». ولكن تعجبه الأشد كان لتجمعهم هكذا بالمساجد الكبرى كالشبراويشى والمرسي أبو العباس، دون أدنى حذر أو خوف، تحت سمع وبصر عساكر الحراسة، الرسميين منهم وحتى المخبرين، وهو الأمر الذي لم يكن اعتاده من قبل..

وبعد نشوب الحرب انتشرت ما بين الناس مقولة أن جنّداً من السماء (لابسين أبيض في أبيض) كانوا يحاربون إلى جانب الجيش المصري، وأن صيحة «الله أكبر» المدوية كانت السبب الحقيقي في نجاح خطة العبور. وللحق فقد فرح «محمد البوري» أيما فرح لنجاحه فيها كان قد شرع فيه، وإن لم يكن يتوقع أن يصل لدرجة التأثير هذه فتنتشر مقولاته وأفكاره هكذا في كل مكان حتى يعتنقها الأغلبية فتشكل الرأي العام بكل أنحاء البلد، ولكنه مع ذلك التزم بالتواضع، فكان دائماً ما يقول لنفسه:

- «وما توفيقى إلا بالله»

وبعد رحلته الشهيرة إلى «القدس» وتبعاتها المدوية في مصر وباقي البلدان العربية، سأله «ديدو» ذات مرة عما يكنه للرئيس «السادات» - الذي كان قد أمر بالإفراج عنه - من مشاعر، فأجاب أنه ليس بناكر للجميل، ولكن صاحب اليد التي تصافح يد اليهودي، حتى ولو سعيًا للسلام كما يدعي، هو حتمًا ليس منّا، هكذا علمنا رسولنا الكريم، عليه أفضل الصلوات..



مع تقدم الأيام والسنين بها بدأت تلحظ تغييرًا طفيفًا في ملاقة جيرانها لها، ولكنها كانت في البداية تعزیه لتحفظها هي ولانعزالها، ولكنها مع الوقت شعرت بازدياد الجفاء والبرودة في معاملة التجار بالسوق، وصاحباتها بالعمارة وفي الحيّ بوجه عام، كفّ الجميع في نفس الوقت تقريبًا عن تحيتها بالخوانيت أو الطرقات، بل وبالعوض حتى إنهم كانوا يديرون وجوههم بعيدًا إذا ما قابلوها. وانتشرت ظاهرة السفر للعمل بالسعودية والكويت وباقي دول البترول، وغاب من الجيران تباعًا عدد لا بأس به من الرجال تاركين وراءهم النساء والأولاد. ولما عاد النازحون في إجازاتهم أو عند انتهاء عقودهم جاءوا متشبعين بثقافات جديدة وفكر غريب عن أهل البلد، وقامت زاوية أو جامع في كل شارع، ودون سابق إنذار ظهر وعاظ ورجال دين يدعون بمبادئ إسلامية جديدة عند كل ركن، فمثلاً تبدلت خواتم

الزفاف من الذهب إلى الفضة، ولبس الرجال ساعات اليد حول المعصم الأيمن بدلاً من الأيسر، وتسربلوا بالقفطان العربي في الشوارع، وبالتدريج ولكن خلال فترة وجيزة تغطت رءوس وأعناق معظم النساء من حولها، حتى بات سفور شعر النسوة في الشوارع يشير إلى ديانتهن، وغطت الأردنية أجسادهن برمتها حتى لم يعد يظهر منهن سوى العينين أحياناً، فازداد تقوقعها على نفسها وانعزلها منخرطة فيما كانت قد اضطلعت به من ممارسات دينية صرفة مقابلة لتلك، ملأت أيامها أو كادت.

وفي سكون العزلة وتحت كنف الظلام المحيط، جلست «إيلين» عند حافة سريرها تقرأ في صمت في الكتاب المقدس، ذات أمسية. لم تكن جائعة لذا فلم تترك سريرها منذ قبعت به نحو الثالثة بعد الظهر وحتى تلك اللحظة التي رفعت فيها رأسها للأمام ناحية صورة السيدة العذراء المعلقة فوق الحائط المقابل، فتبدت لها العذراء في الصورة تبتسم لها. انتفضت في مكانها، ثم بسرعة طرحت عنها الغطاء وهبت من فوق السرير واقفة تنتوي أن تقترب من الصورة أكثر لتبين حقيقة ما تراه، وبينما هي واقفة وقد سمرت عينيها فوق الصورة، في حين تعبت قدمها باحثتين عن الشبشب أسفل السرير، إذا بنور يشع فجأة من وجه العذراء ويعبر الغرفة حتى يصل إلى موضعها فيحيط بها كلها، بينما رائحة ورود وأزهار لم تشتم لها مثيلاً من قبل، تحيط بها.

لم تستطع أن تقدر الوقت الذي استغرقه كل ذلك وإن بدا لها أنه امتد لأكثر من عشرة دقائق اختفت من بعدها الرائحة وبهت النور..

وتوالت تلك الظهورات السماوية في غرفتها من بعدها مراراً، ولم تعد تشعر بالرهبة والخوف الذي شعرت به أولاً. ولكنها لم تفض عن حدودها لمخلوق، ولا حتى لأبنائها خوفاً من أن يشككوا في سلامة عقلها، ثم يرغموها على الانتقال للمعيشة خوفاً عليها في بيت واحد منها. ولكنها واصلت الصلاة وقراءة الكتب الدينية وأشعار داود طوال الوقت، واستمتعت بتلك الإطلالات من العالم الآخر تطوف بحياتها وتؤنس وحدتها، فصارت تترقب حدودها بشغف، فتكتفي بأن تتأملها في أول الأمر وتتلذذ بذلك الضيِّ البهيّ وتلك الرائحة السماوية، ثم بعد أن اعتادتها أكثر بدأت تتفاعل معها، فتخاطبها، وكأنها في حالة صلاة، تسألها فتسمع إجاباتها كلمات ترن في داخلها، في أعماق روحها وقلبها، وكأنها خواطر ولكنها كلمات واضحة المعالم تسمعها نفسها وتعيها تماماً، وكأنها حديث شخص حقيقي ملموس يقف قبالتها ويتكلم معها..

قالت لسليمان يوماً إنه ينبغي له أن يتزوج، فتساءل هو عن الحكمة من وراء التعجل، في حين أنه كان مستمتعاً بحياته، وكان وقتها ما يزال يحلم بالزواج من «مريم دوس». ولكنه تقابل في نفس الأسبوع مع «أماني سعد»

وتزوجها في عجلة تعجّب لها الجميع وحتى هي أيضاً، ولكنها شعرت بأنه كان أمراً محسوماً من «فوق». وحلمت في مرة أخرى أن «منى» ستأتي لها بأول حفيد، وإذا بها تتصل بها في مساء ذلك اليوم لتبلغها أنها حامل. وفي مرة ثالثة بعدها بمدة طويلة حلمت بالعدراء مريم تبكي، وفي غضون أيام قلائل أعلن الرئيس السادات عن عزله للبابا شنودة الثالث عن كرسيه وتحديد إقامته بالدير، الأمر الذي أحزنها إلى حدّ أنها لم تستطع أن تغفر له فعلته أبداً وإلى يوم مماته. وأمضت كل أيامها الباقية مكرسة تماماً للصلاة والتعبد ولتلك اللقاءات النورانية التي ملأت أيامها ولياليها..

لم تكن تخرج من شقتها ولا حتى للتسوق، إذ تكفل بذلك «عم حمدي» البواب، وكان «الأسطى وليام» قد حرص على أن يبتاع اللحوم والدواجن لها كل فترة، ويحييها إلى شقتها بمحرم بك، في مقابل مبلغ زهيد كان يدّعي أنه ثمنها، بينما يدفع هو الفارق من جيبه عرفاناً منه لجميل «داود عبد الملك» وفضله عليه. وكانت زوجته «نرجس» تأتي لزيارتها مرة بالشهر، وتنتهز الفرصة لتنظف لها الشقة تفتح الشبابيك وتغسل الملابس وتطبخ لها عدداً من الأطباق، تحفظها لها بالثلاجة التي كان سليمان قد ابتاعها كهدية لها بأحد الأعياد..

وهكذا عاشت «إيلين» بمعزل عن المجتمع الخارجي، متفوقة على نفسها في عالمها الخاص جدًا الذي رسمته لها الأيام بين جدران شقتها العتيقة الساكنة الهادئة، المطلة على أحد الشوارع الجانبية في قلب حي «محرم بك» الذي لا يهدأ نهارًا أو ليلاً، قانعة بترقب ممارساتها «فوق الطبيعية» التي تغنيها غالبًا عن مجابهة تلك التغيُّرات «الطبيعية» المحيطة بحياتها..





الفصل الثاني والعشرون

نهض سليمان من سجده وقد ترققت بالدمع عيناه من فرط حرارة صلاته. ثم مدّ ساعده أمام وجهه ومسح بقمماش قميصه فوق عينيه، مزيجاً عن خياله بقايا الأفكار التي كانت تعتربه. ثم استدار بجذعه استدارة بطيئة، متأنية، ليصر زوجته «أمانى» وقد دلفت بهدوء إلى الغرفة أثناء صلاته. وقفت خلفه ترتب الملابس النظيفة التي جمعتها من فوق الحبال الممدودة أمام سور البلكونة إلى غرفة النوم وكومتها عند أسفل السرير. كانت واقفة بقميص النوم الوردي الكالـح، تنظر نحوه وقد اعتلت شفـتيها تلك الابتسامة الغامضة، التي كانت تحملها فوق وجهها على الدوام، حتى إنها قد أضحت جزءاً لا يتجزأ من ملاحظها. لفت الغرفة سكينة وهدوء، وقد ثقيل أغلب سكان الحى من جيرانهم، فيما عدا أصوات واهية قادمة من حجرة المعيشة التي تتوسط الشقة حيث الأولاد يتابعون برامج التلفزيون. ابتسم سليمان لأمانى زوجته ابتسامة فارغة ماثلة لبسـمتها، وإن لم يبادلها النظرات بل ثبت عينيه نحو المرأة المعلقة على الحائط خلفها، متفحصاً وجهه وهندامه البسيط

فوق جسده الذي ما يزال ممشوقاً، ثم لم يلبث أن قارن رشاقته بمؤخرة أماني زوجته، المنعكسة أمامه في المرآة وتألم من ترهلها، وتحسس بسبابته وإبهامه الخاتم الفضي الذي كان يحيط بإصبعه الأوسط بجوار خاتم الزواج الذهبي في يسراه، وخطا بجانبها صامتاً متجهاً نحو باب الغرفة وخرج فتبعته قططة السمينة ذات الفروة الناعمة الصفراء..

ما أحلى الصلاة الخاشعة الصامته التي اعتاد أن يحتتمها بالسجادات المتتالية التي تعلمها في صباه من أمه، والتي أخذتها بدورها من الأم إيريني خلال نشأتها في ملجأ العذراء، حُبّاً في الله والتماساً لعفوه ورضاه. ما أعذب حنان الله ورحمته وغفرانه المتناهي. ما أجملك يا رب الأرباب!! بتلك الخواطر امتلأ رأسه الكبير الذي احتفظ بوسامته التي ورثها - مع السجادات - عن أمه، ببشرته البيضاء المكلفة بشعر أسود فاحم السواد، أطلقه على سجيته طويلاً مسترسلاً - بحسب موضوعة هذه الأيام - فازداد به نحول وجهه المنمنم القسّات، المعتلي بإمارات حُسْن لم تنل منها السنين، وهو يقطع الردهة المؤدية إلى حجرته المفضلة، حجرة الضيوف - صومعته - وتلفت يميناً ونظر أبناءه الثلاثة وقد تبعثروا راكدين حول أرضية غرفة المعيشة، ولما كان قد استغرقهم برنامج التليفزيون تماماً، لم يُعِرْه أيهم التفاتة. وبالصعوبة المعتادة دلف إلى غرفة الصالون تتبعه قطته القرطاء، حيث أعاقَتْ فتحة الباب قطع

الأثاث الضخمة المتلاصقة في شكل مربع يلتف حول كل سنتيمتر بمحيط الغرفة، اللهم إلا من المكتب الضئيل الذي احتل ركنًا صغيرًا بجوار النافذة الوحيدة المغطاة دائمًا بستائر مسدلة، كانت يومًا ما بيضاء هفهافة. وسحب سيجارة من جيب قميصه ثم أغلق الباب خلفه وجلس على الكرسي الخشبي خلف المكتب، المفروش بالوسادة الصفراء القديمة تَبَطَّن سطح مقعده، عند الجانب الأيسر من الغرفة الذي اعتاد أن يركن إليه في مثل ذلك الوقت من كل يوم. أشعل سيجارته وكان لم يزل يحمل فوق شفثيه تلك البسمة التي اتخذها منذ ملح أماني في غرفة النوم، وإن كانت أفكاره قد ساقته الآن بعيدًا عن أماني، بل وعن تأملاته عن رحمة الله وغفرانه، وما إن أغلق باب الغرفة من ورائه، حتى وجد ذهنه منغمسًا من جديد يعيد تفاصيل آخر لقاء بينه وبين مدام «بنهار»..

وعلى الرغم من خروج سليمان من الغرفة، إلا أن أماني كانت لا تزال تحتفظ بابتسامتها متفكرة في كم تحب زوجها سليمان. جميلة. كانت يومًا وإن كانت بقايا الحسن لم تزل عالقة بقدها بالرغم من زحف السنين واعتصارها لرحيق الشباب النضر من بين عروقها. ولم تزل تطوي الملابس وتكومها فوق بعضها في تلال صغيرة حول ملاءة السرير، بحسب النظام الذي ستحملها بمقتضاه إلى الأرفف الخاصة بكل أفراد الأسرة الخمسة. كانت في حركاتها

بطيئة مثابرة، وإن كانت دقيقة جدًا في طيها لكل قطعة على حدة بإتقان المحترفين، كما كانت عاداتها في التعامل مع كل شئون منزلها التي تعهدت بكل صغيرة وكبيرة فيه، منذ زواجهما وعلى مدار الخمس سنوات الماضية. ولا تزال تذكر دقائق أول لقاء بينهما وكأنه الأمس..

كانت كعادتها تزور صديقتها «منى» في منزلها بالقاهرة في حي «دار السلام» الشعبي المكتظ بأهله على الدوام، وكان يوم جمعة في أواخر شتاء عام ١٩٧٤، كان يومًا جميلًا لم يزل دفء شمس يلامس جسدها حتى الآن، وهي تسير بحرص فوق نتوءات الطريق الممتد بحذاء شريط مترو حلوان وقد تكومت مياه المطر الذي تساقط متقطعًا في اليوم السابق، صانعةً برَكًا صغيرة تتخللها جزر يابسة، طبيعية في معظمها تبعًا لطبيعة الأرض غير الممهدة من تحتها، وإن صنعتها أيادي أولاد الحلال أحيانًا بقطعة من الطوب، أو بلوح من الخشب هنا أو هناك، تُقَرَّب من تلك الجزر لو تباعدت، فتتصل خطوات المارة ولا تغوص الأقدام في وحل البرك القادمة من السماء. وكانت أمانى تخطو فوق تلك المحطات على أطراف حذائها الوحيد، بسرعة ومهارة راقصات الباليه، لطول ما اعتادت الخوض في طرقات القاهرة الشتوية، بطول أعوامها الستة والعشرين التي ثقل كاهلها فوق أكتافها منتظرة قدوم عريسها المرتقب، ولشوقها لزيارة صديقتها في بيت زوجيتها الجديد، وخاصة أنها ألمحت إليها باحتمال قدوم أخيها سليمان - الأعزب - من الإسكندرية لزيارتها في اليوم

نفسه ليقضي معها يوم العطلة. لم تنجح تلك الرائحة العطنة التي عبقت بطول الطريق في أن تنتزع تلك البسمة من فوق شفيتها. وامتلاً الطريق بضجيج مستعر لا يخفت، كطين عش دبابير، وإن ترتفع حدته بدوي كالانفجار عند مرور قطار حلوان شمالاً أو جنوباً كل بضع دقائق سابقاً قدومه بسرينة تعوي تملأ الطريق منذرة بقدوم الثعبان الحديدي وعبوره المخيف بجنبات الحي مرجراً بيوته المتحاملة الواحدة على الأخرى، والمظلة بحزن على رقة الحال وسكونه كشواهد قبور في جبانة مكتظة بالأموات. وبالرغم من ابتسامة أمانى المرسومة دوماً فوق شفيتها، إلا أنها في صميم قلبها كانت تكره تلك الحياة الفقيرة المحتاجة بكل جوانحها..

تمّ التعارف بينهما بذات اليوم، وفي غضون أسابيع قليلة كان سليمان يقف في صحن الكنيسة ويوقع عقد الزواج، وهي جالسة بجانبه مستكنة بداخل فستانها الأبيض، مبتسمة، وممنية نفسها بحياة رغدة كانت تنتظرها..

سحب نفساً من السيارة وكتمه في صدره يبخل بأن يطلقه خارجاً، أو لعله نسى أن يخلي سبيله في حين كان يتفكر في تفاصيل لقائه الأخير بمدام «بنهار». تسحره اليوم بمفاتنها كما سحرته عند أول لقاء له بها منذ أربعة أعوام تقريباً، وبالتحديد في السادس من أبريل عام ١٩٧٦ في فيلا زوجها بالعجمي، بعد أن كان قد تعرف إليه في منزل «الحاج مراد العويقي» قبلها بنحو أسبوع، فهل يمكن أن ينسى هذا التاريخ، ولو عاش لمائة عام!..

كان قد ذهب كالمعتاد ليمضي بعض الوقت بصحبة التاجر المعروف الذي هو في خضم ذلك الغنى الفاحش كان قد هبط عليه من السماء من حيث لا يدري، أظهرت له الدنيا وجهًا غير الوجه، وامتألت خزائنه من جراء «قرارات الانفتاح» فابتاع المرسيدس (التمساحة) وأتم بناء وتشطيب تلك العمارة الشاهقة بحي «سان استفانو» الراقي، حيث يقيم الآن بالطابقين العلويين الذين احتفظ بهما لنفسه ولأسرته. فقد ركب موجة الانفتاح الذي عادت خيراته على تجارته بالملايين، فتحول في غضون سنوات قليلة من تاجر مانيفاتورة صغير بـ«زنقة الستات» إلى ما هو عليه اليوم، فأصبح من أكبر تجار القماش بالإسكندرية، يمتلك محلاً أنيقاً بشارع «سعد زغلول»، وآخر بشارع «فؤاد» - أو «طريق الحرية» كما يدعونه اليوم - فيما عدا المخازن المتفرقة، وتجارة الجملة التي كانت تدر عليه أرباحاً لا بأس بها..

كان الحاج مراد قد اعتاد أن يدعو إلى بيته، تقريباً عند كل مساء، شلة الأئس من أصدقائه ومريديه ما بين تاجر بالماكس، ومحاسب قانوني، وطبيب أسنان مشهور، والأستاذ سليمان داود مدرس الفلسفة، ورئيس جماعة الفكر الحر التي ينتمي إليها معظم الموجودين، يجتمعون حول مناقشات ساخرة وقفشات وأحاديث في السياسة، وحوارات ثقافية يبتغي الحاج مراد أن تكتمل من خلالها الصورة، من جاه وعز من ناحية إلى فكر وشكل حضاري

يليق به كعضو بارز من أعضاء المجتمع الجديد من ناحية أخرى. وتكتمل السهرة بسجائر ملفوفة بأفخر أنواع الحشيش وزجاجة ويسكي معتق يجلبها أحد الأصدقاء من العاملين بمصلحة الجمارك، والذي قابله سليمان في تلك الليلة لأول مرة وتعرف بأنه «لطفى حسنين» متعهد الويسكي النظيف في سهرة الحاج مراد العويقي والذي جاء الليلة ليشاركهم السهرة لأول مرة. وبالرغم من إصراره على أن يدعوه الجميع بالحاج إلا أنه كان لا يتوانى عن مباراتهم بل والتفوق عليهم في معاقرة الويسكي. انبهر سليمان بشخصية لطفى حسنين المرحّة، وأمارات النجاح الطالة من كل كيانه. الشعر الكالح السواد، والنظارة الذهبية والشارب المنمق والضحكة الواثقة المجلجلة، والسترة الزرقاء اللامعة والكرافات الحريري القاني الاحمرار، ثم يديه اللتين لا تكفان عن الحركة، لأعلى ولأسفل، ولليمين تارة ثم اليسار، وأصابعهما الغلاظ المحليات بخواتم ذهبية - ثلاثة على أقل تقدير - تنثني وتنفرد تباعاً مع حركات يديه المحسوبة والمتناغمة مع كلماته وضحكاته، وكأنها أصابع ساحر محترف يحوم بها مختالاً فوق رءوس الجميع قبل أن يقول «جلا جلا» الشهيرة فتقلب الوردة إلى حمامة تحلق من فوقهم. سحر جميع الموجودين بنوادره وحكاياته وضحكاته المتتالية فتأكد سليمان ليلتها من أنه نصاب محترف..

فاجأه لطفي ليلتها بعد فترة وجيزة من تعارفهما بسؤاله عما لو كان قرأ آخر كتاب للدكتور «رشاد فكري» فاندھش من كونه كان قد سمع أساساً بالدكتور رشاد، ولكنه أجابه بأن الدكتور رشاد صديق مقرب إليه وهو محاضر مستديم بجامعة الفكر الحر التي ينتمي إليها. لم يشأ أن يقول له الجماعة التي يرأسها، وليس من باب التواضع، بل من واجب الحيلة من ناحيته، لشكه المزمّن في جميع الناس، وحتى بعد أن يثبت العكس، ذلك الشك الموسوس الذي كان ربما قد ورثه عن أمه، ولطريقة الرجل المريبة التي اقتحم بها موضوع «الدكتور رشاد فكري» من دون سبب واضح، والرجل معروف بمناهضته للسلطة واتجاهها الرأسمالي الغربي الجديد، ولرجال الإعلام المرموقين الذين لم يتوان عن مهاجمة تملقهم المفضوح لرجال الحكومة ورموزها، وبانتقاده اللاذع للقيادات الدينية وللجماعات الإسلامية التي ملأت الدنيا في هذه الأيام بأفكارها التكفيرية للمجتمع كله، وبالذات للدكتور رشاد فكري ومؤلفاته الناقدة لنزعتهم الأصولية، وأمثاله من الإشتراكيين القدامى، م خلفات عهد عبد الناصر عدوهم اللدود..

فالخطر إذن كان يحيط بالموضوع من كل الجهات، وإن كان لتأثير الويسكي الفاخر وسيجارة عالية المستوى كان قد أنهاها لتوه، مفعول أكيد في رخرخة أعصابه لدرجة معقولة أكمل معها مناقشته مع ذلك الرجل المريب دون

الوقوع في المحذور. استكمالاً للتعارف، وإمعاناً في مجاراته في التلاطف انتحى به جانباً وسأله:

- «إنت منين أصلاً يا لطفي بك؟»

- «من محرم بك. وانت؟»

- «من محرم بك برضه»

ثم تبودلت أسماء الأصدقاء والجيران والمعارف والمدارس، حتى أدرك سليمان أنه لم يكن سوى لطفي ابن الشيخ حسنين البصري صديق والده، وحتى أدرك لطفي أنه سليمان ابن الخواجة داود عبد الملك الذي يعرف الجميع عن قصة ضلوعه في الأحداث التي أدت إلى مقتل أبيه بالمعتقل، واستغربا معاً تلك الصدفة التي جمعت بينهما في هذه الليلة..

استكمالاً للغرابة، وقف الرجل في وسط القاعة عند نهاية السهرة وقد انتشى الحاضرون ووصلوا لذروة السُّطَل، وأعلن «لطفي حسنين» بفرحة صبيانية وبكلام مدغم بفعل السكر وتأثير الخدر، عن دعوته لكل الموجودين أن يشرفوه بحضورهم لقضاء ليلة شم النسيم في فيلته المتواضعة بشاطئ «العجمي» ليسهروا حتى الفجر مع غناء العندليب عبد الحليم حافظ، والذي ربما يفاجئهم بحضوره شخصياً بعد انتهاء حفله بالقاهرة، حيث وعده المطرب المشهور شخصياً بذلك منذ شهر تقريباً حين كان قد

جاء للاستجمام بالفيلا الجراورة له. ثم مضى بخطوات مترنحة ومال على أذن سليهان وطلب منه أن يدعو الدكتور رشاد فكري، حتى يتسنى له أن يتعرف شخصياً بذلك الرجل الفذ الذي يكن له كل احترام..

ارتفعت أسهمه عالية في سماء العمل السياسي كممثل للجماعة، وفوجئ بالدعوات تنهال عليه للحديث في الجمعيات والمؤتمرات، واجتماعات مختلف النقابات والاتحادات العمالية.. ثم بدأت صلاته برجال أعمال من كل مكان تتبدى هنا وهناك، واستجاب الكثيرون لدعوته إياهم بالمساهمة في تمويل الحركة، فتحول رأسها إلى ثروة صغيرة اضطر أن يكلف لجنة من ثلاثة رجال متخصصين في الاقتصاد والتجارة، من بينهم أستاذ جامعي، ليقوموا بإدارة شئونها. تضخم حجم مريديه وأتباعه بصورة خيالية، وخصوصاً لما بدأ العائدون من البلدان العربية ينهالون عليهم بركاتهم الموجهة لرفعة شأن دينهم الحنيف، فينصلح حال البلد أسوة بالبلاد العربية التي كانوا عد عادوا منها بعد أن نرحوا إليها في طلب الرزق..

فاتحه «ديدو» ذات يوم في موضوع غريب. قال له إنه ينبغي له يتزوج من جديد وإنه يبتغي أن يزوجه من شقيقته الصغرى «مروة»! إذ كان قد تفكر

في ما كان لابد منه أنه يعاني منه بعد أن أمضى كل تلك السنوات بالسجن، ليجد الـ «حاجة زينب» بعد خروجه وقد شاخت وزهدت في أمور العلاقات الزوجية. وبالرغم من عمله الدءوب وانشغاله غير المنقطع في رعاية شئون الجماعة، إلا أن لبدنه عليه حقًا، وأنه - أي ديدو - قد لاحظ نظراته المتطلعة، التي كان سرعان ما يخفيها تأدبًا، عند لقائه بالشابات المنضيات للحركة. ثم قال له ديدو بانفعال حقيقي إنه فكّر في من كانت تستحق أن تنال مثل ذلك الشرف، وفي نفس الوقت تكون سرًّا له وحافضة لخصوصياته، فلم يجد أفضل ولا أعلى من أخته ليهديا إليه، وأنهى كلماته تلك بابتسامة واثقة علت وجهه، فلقد كان يعلم تمامًا ومتأكدًا من وقع كلماته على الشيخ. ومن ناحيته نظر الشيخ محمد البوري إليه بعطف، وربت بحب فوق كتفه قائلاً له: «دعني أفكّر في الأمر..»

في إحدى خطب الجمعة وكان جالسًا بجوار الخطيب الثائر يستمع إليه وهو يشحذ هم المسلمين لأن يهبوا دفاعًا عن دينهم الحنيف ضد الكفرة والملاحدة والمنحلين، منادياً بردتهم جميعًا عن سبيل الجهاد الإسلامي، وفوجئ «محمد البوري» بالشيخ «عبد الرحمن الدمنهوري» الذي كان يتبع جماعة تدعو لتكفير المجتمع برمته يستبيح دماءهم هكذا على الملأ وسط

همهمة المصلين، بل ونفخ في النار أكثر ليشتد سعيها، فاشتعلت أخيراً في
انفجارية مدوية حين قام بإدراج اسم «الدكتور رشاد فكري» صاحب كتاب
«ما بين التنوير والتكفير» على رأس قائمة أعداء الإسلام المستحقة دمائهم،
فتعالت الهتافات: «الله أكبر. الله أكبر» هنا وهناك..



الفصل الثالث والعشرون

كانت «أماني» لا تزال منشغلة باللا شيء الذي اعتادت على أن تنشغل به منذ عودتهم من زيارة أمه «إيلين» بمحرم بك ليهنئوها بعيد القيامة كما كانت عاداتهم في كل عيد للقيامة. كانا قد انتقلا للسكنى بحى «كليوباتره الحمامات» بعد أن أمضيا شهرًا قليلة يشاركون إيلين شقتها بمحرم بك، ولكنها لم تسترح للحياة مع حماتها، وكانت خلافات صغيرة قد بدأت تدب بين المرأتين، حين قرر سليمان أن ينتقلا للمعيشة بعيدًا حتى يحفظ العلاقة الودية التي كانت ما تزال تجمع بينهما، وكان المرتب الذي يحصل عليه في أول كل شهر يكفي للحياة المستقلة، بعد أن دله «يوسف» على شقة بإيجار مُغرٍ، ولأقساط سيارة نصر ١٢٨ حمراء تحمله للمدرسة في صباح كل يوم، وتجمع الأسرة كل يوم جمعة لزيارة أمه أو لقضاء يوم العطلة بإحدى الحدائق أو المتنزهات. عند عودتهم من بيت أمه، دعاها للذهاب معه لقضاء ليلة شم النسيم بالعجمي، ولكنها اعتذرت بحجة الإجهاد مفضلة أن تنام مبكرة بعد ذلك اليوم الحافل، عن أن تتقابل مع أغراب من طبقة الأثرياء،

يشعرونها بضآلة موقعها في المجتمع فتذكر معهم أيام الفقر الحقيقية التي باتت تبذل كل ما في وسعها لتتناساها. هكذا انحصرت أيامها في ملاحظة سراب من السعادة لم تتضح معالمه أمامها أبداً، فكانت تظن أن انتقالها من السكنى بعمارات الإسكان الشعبي إلى الأحياء الراقية نسبياً، أو العناية ببيتها وبأولادها إلى حد المبالغة، أو امتداح سليمان زوجها بمناسبة ودون مناسبة سيضيفي على حياتها ولو بادرة ابتهاج، ولكن هيهات أن تجد ثمار السعادة من حولها لو افتقدت بدورها بداخلها أولاً. أما هو فوثب تحت مياه الدُّش المنعشة، استعاد بها طاقته، ووضع قميصاً أزرق سماوياً وسروالاً أبيض، وملاً كفه بالعطر ومسحه بكفه المقابل أولاً ثم فوق وجهه وقميصه عند الرقبة وأعلى الصدر، وصفف شعره باعتناء شديد وكأنه ذاهب لموعد غرامي ..

لم يتمكن أبداً من التغلب على ولعه بالنساء، وبطول الأيام، بالرغم من شتى المحاولات، والقرارات الباترة هنا وهناك التي باءت دوماً بالفشل، حتى إنه قد عزاه لمفعول الخاتم المسحور الذي لا إرادة له في ما يجري لحياته بسببه. وبالرغم من التدين الذي كان ظاهره قوياً راسخاً إلا أن مجرد رؤيته لامرأة جذابة، حتى ولو كانت بصحن الكنيسة، تجعله يبدأ على الفور في ممارسة لعبته المفضلة ويتحول إلى صياد محترف يسعى لنصب فخاخه للإيقاع بفريسته. وبعد أن ينتهي من لعبته، كان دائماً ما يسقط بدوره فريسة لنوبة

شديدة من عذابات الضمير، فيقع على وجهه راکعاً، مصلياً أن يشمل الخالق الأواحد بالتوبة والغفران، ولا يهبُّ من سجدة إلا بعد أن يشمل ذلك الشعور المتناهي بالسلام والاطمئنان، فيعرف أن طلبته قد باتت مستجابة. وهكذا حتى تمرَّ أمام عينيه الفريسة التالية فيؤسر مجدداً بذات السلوك عنوة، وكأنه لا حول له ولا قوة، فيسقط من جديد. ثم يقوم. وهكذا صارت حياته خليطاً متلاحقاً لا يمتزج من السقوط والقيام، من العبث والجدية، من العربة والنسك، لم يفهم المحيطون به، من الدائرة القريبة التي كان قد سمح لها بالاقتراب من تفاصيل حياته، كيف يقيمونه أو يتعاملون معه، كناسك متصوف يجول بصحراء الحياة ملتمساً الذات الإلهية فيلتحم بها، أو كذئب يطوف بنفس الصحراء باحثاً عن أول فريسة تقع عليها عيناه المدربة فينهش لحمها. أما هو فكان دائماً ما يردُّ على تساؤلاتهم بابتسامة منكسرة، أو يهزُّ كتفيه مستكيناً أحياناً ويقول بأن الكل باطل!..

في طريقه إلى «العجمي» اتخذ طريق الكورنيش، يقود السيارة بسرعة عالية متخطياً العربات من حوله بمهارة وحذق. يعشق قيادة السيارة بسرعة وخاصة في الربيع قبل أن تملأ الشوارع عربات المصطافين. كان هواء البحر يلفح وجهه عبر نافذة السيارة المفتوحة، وكان يغني بصوت مرتفع أغنية «مذنب» لجان فرانسوا ميكايل، تلك التي حولها الرحبانية فيما بعد لرائعة

فيروز حبيتك بالصيف، وكانت رائحة الربيع بأزهاره الوليدة المطلة بعناد
من أسوار القللات القليلة المتبقية بحذاء طريق الكورنيش قد ملأت الجو
بعطر الحب. صرخ مغنياً بالفرنسية:

مذنب أنا إذ علمتك الحب
وأشعلتُ في جسدك جذوة الشهوة
وأصبحتُ خيالاً يقف بينك وبينه
مذنب أنا عندما نسيتك

ومضى بالسيارة بطول الكورنيش حتى عبر الماكس إلى الطريق الساحلي
الممتد غرباً حتى مدينة السلوم عند حدود ليبيا.. مدَّ عنقه للأمام نحو زجاج
العربة رافعاً عينيه نحو السماء، متأملاً البدر الوليد، وجاءته لسعة الصقيع
الصحراوي فأغلق زجاج السيارة متفكراً فيما ستؤول إليه الليلة في صحبة
لطفني حسنين وأصدقائه، الذين لن يتعجب مطلقاً لو وجدهم أغرب منه
هو شخصياً..

لم يستطع أن ينبس بكلمة حين سمع استجابة الحاضرين المدوية عندما
أهדר الشيخ «عبد الرحمن الدمنهوري» دم «الدكتور رشاد فكري» هكذا عند

نهاية خطبته العصماء. تخرج من موقفه لو فكر في الدفاع عنه لما قابلت الفكرة كل ذلك الاستحسان من تلك الحشود الغفيرة من الشباب الذين عمل هو شخصيًا على جمعهم تحت لواء الإسلام ليتحقق حلمه الذي ضحى من أجله بأحلى سنين عمره، فتعود من جديد الدولة الإسلامية الرشيدة إلى أرض بلاده الحبيبة. وعلى كل حال ماذا كان يمكنه أن يقول لهم؟ أطلب العفو عن الدكتور رشاد لأنه شجعه أيام الاعتقال على الرسم؟! أو لكونه يؤمن بالإنسان أكثر من الله عز وجل، يؤمن بالمخلوق دون الخالق!!..

لا. أعوذ بالله!

هو - حتمًا - يستحق ما يضمرون له، ولو كان لا يستحق - والله أعلم ببواطن الأمور - فسيصير شهيد الحركة الإسلامية التي بدأت عجالاتها في الدوران، ويكون مصيره اللجنة من حيث لا يدري هو!..

تزوج بالفعل من «مروة» سرًا واكتشف طاقات كامنة لم يكن يحلم أن يقدر لشيخ مثله أن يحظى بها. جاءه «ديدو» بعد صلاة العشاء ذات ليلة ليحتسب كوب شاي ويتحدثا. بات يأنس لصحبته، وصار صديقًا لأفكاره ومشيرًا لقراراته. قال له إن «سليمان داود عبد الملك» يمتلك خاتماً مسحوراً كان أبوه قد أطلعته بنفسه على سره قبل أن يموت، وقد حاول هو شخصيًا أن يحصل عليه منه - ولو عنوة - عندما لقيه ذات يوم سائرًا إلى غير هدى فتبعه

حتى وصل إلى شاطئ البحر. ولكن حدث أن سقط العجوز مغشيًا عليه يومها فاقرب منه وتفحص أصابعه وجيوبه، ولكنه لم يجد الخاتم، فتركه قابلاً فوق الرمال ومضى مسرعاً وطلب رقم الإسعاف، ولكنه علم فيما بعد أنه مات، ولا بد أنه قد أورث الخاتم المسحور لابنه سليمان من بعده. بصعوبة تذكر البوري ملامح الخواجة داود هذا والذي كان قد لاقاه مرة أو اثنتين بصحبة الشيخ حسنين - رحمه الله - بينما قصَّ عليه ديدو تلك الحكاية الغريبة. زعم أن الخاتم به قوة كامنة تدفع بصاحبه للسلطة والمجد، وتذكر هو كيف أن الخواجة داود كان قد ذهب إلى القاهرة وفي يوم واحد كان قد استطاع أن يخرج الشيخ حسنين من المعتقل ويعود به للإسكندرية، وكيف أنه في مشوار مماثل للقاهرة أفلح في أن يطبق ذراع الموت حول عنق صديقه الشيخ فلم يتركه إلا وقد سقط صريعاً، جثة هامدة أمام عينيه. وتذكر كيف أنه قد صار بين ليلة وضحاها ثرياً يمتلك مصنعاً وقيلاً وسيارة باكار بسواق. لابد أن كلام «ديدو» صحيح إذن، وأن تكون للخاتم تلك القوة المسحورة التي تدفع بصاحبها ليحلق بها إلى ما فوق السحاب. وقال له ديدو:

- «تخيل يا شيخ محمد لو عندنا الخاتم ده، شكل (الإخوان) ساعتها هابقى إيه؟»..

وما يزالان يحتسيان الشاي بينما غاب فكر «محمد البوري» سارحاً يرفرف فوق بحر من الخيال..

فَصَلَّ أَنْ يَصُفَّ السَّيَّارَةَ بَعِيدًا وَأَنْ يَتَرَجَّلَ نَحْوَ مَدْخَلِ الْفِيلَلَا حَتَّى لَا تَنْحَشَرَ سَيَّارَتُهُ بَيْنَ بَقِيَّةِ السَّيَّارَاتِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْضِيَ بِهَا لَوْ أَصَابَتْهُ الصَّحْبَةُ بِالضُّبُرِ وَشَاءَ أَنْ يَرْحَلَ مُبَكِّرًا. أَلْقَى نَظْرَةً آخِرَةً عَلَى وَجْهِهِ وَصَفَفَ شَعْرَهُ بِأَصَابِعِهِ فِي الْمَرَّةِ الْخَلْفِيَّةِ أَمَامَهُ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ السَّيَّارَةِ. انْبَهَرَ بِنَقَاءِ الْجَوِّ وَرَائِحَتِهِ الْمَعْطَرَةِ الَّتِي تَنْبَعثُ مِنْ شَجِيرَاتِ الْيَاسْمِينِ وَالْفَلِّ الْمَتَفَتِّحَةِ بِالْحَدَائِقِ الْمُنْمَنَةِ الْمَحِيطَةِ بِالْفِيلَلَاتِ الْمَتَنَاثِرَةِ، الْمَمْزُوجَةِ بِهَوَاءِ الْبَحْرِ، الَّذِي سَمِعَ أَمْوَاجَهُ تَنْكَسِرُ فِي تَتَابُعٍ فَوْقَ الشَّاطِئِ الْقَرِيبِ. أَدْرَكَ مِنْ كَمِ الْأَنْوَارِ الْمُنْبَعِثَةِ هَدَفَهُ الْمُنْشُودَ، فَدَلَفَ مِنَ الْبَوَابَةِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي انْتَفَضَ حَارِسُهَا الشَّابُّ الْأَسْمَرُ وَاقِفًا بِرَأْسِهِ الْحَلِيقَ وَقَمِيصَهُ وَسُرْوَالَهُ الْبَسِيطَيْنِ، وَلَيْسَ بِالْجَلْبَابِ الْمَعْهُودِ، مُحْيِيًا إِيَّاهُ وَمُؤَدِّيًا التَّحِيَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ..

مَبْنَى حَجَرِي أَنْيَقَ ذُو تَصْمِيمٍ حَدِيثٍ يَتَمَيَّزُ بِالْخُطُوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَالزَّوَايَا الْحَادَّةِ، تَحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ مَزْرُوعَةٌ بِأَشْجَارِ التِّينِ وَبِضَعِ شَجِيرَاتِ الْوَرْدِ الْأَحْمَرِ. كَانَ الْبَابُ الرَّئِيسِيُّ الْمَحَاطُ بِتَعْرِيشَةٍ مِنْ زَهْرِ الْيَاسْمِينِ مَفْتُوحًا فَاسْتَقْبَلَتْهُ الضُّوْءُ الْآتِيَةُ مِنَ الدَّخْلِ، وَفِي الْمَدْخَلِ الْمُؤَدِّيِ إِلَى الْبَهْوِ قَبْعٌ تَمَثَّلُ لَقَيْنُوسٌ فِي صَدْرِ الْأَرْضِيَّةِ الرَّخَامِيَّةِ. تَخْطَاهُ إِلَى حَيْثُ تَجْمَعُ الْمَدْعُوونَ رَجَالًا وَنِسَاءً، اكْتَضَتْ بِهِمُ الصَّالَةُ الْفَسِيحَةُ، وَالتَّفُّ مَعْظَمُهُمْ حَوْلَ مَائِدَةٍ مُسْتَطِيلَةٍ حَمَلَتْ مُخْتَلَفَ الْأَطْبَاقِ الْمَمْلُوءَةِ بِأَشْهَى الْأَطْعَمَةِ. تَصَاعَدَتْ رَائِحَةُ الشَّوَاءِ

الممتزجة بعبق الويسكي ودخان السيجار وعطور النسوة هنا وهناك. عند الطرف المقابل كانت الواجهة الزجاجية مفتوحة لنسائم البحر الذي كان يبعد مسافة أمتار، وفي أقصى اليمين قبعث منضدة مرتفعة نسيًا اصطفت فوقها مختلف الزجاجات الملونة تحتوي على مختلف أصناف الخمور بألوانها المتباينة ووقف خلفها رجل نحيل لامع الشعر بقميص أبيض وبايون أحمر يُعدُّ المشروبات ويُقدِّمها للمدعوين عند الطلب. ارتفعت الأصوات وتعالَت الضحكات هنا وهناك، ومكث سليمان وحيدًا لدقائق كانت كافية ليمسح المكان بعينيه الفاحصتين، فأبصر اللوحة الزيتية المعلقة على الحائط لتلك الحورية الحسناء الراقدة باستسلام فوق رمال الشاطئ وقد برز نهذاها العاريان يستفزان الناظرين، ولوحتين من النحاس المطروق متجانبتين لامرأتين تحممان، والتمثيل العارية من البرونز والخشب والمرمر بمختلف الأحجام المتناثرة هنا وهناك، وجاءته بغتة ضحكة لطفي حسنين المجلجلة، فلم يستطع أن ينحي عنه خاطر عصف به فجأة بأن لطفي هذا ليس رجلاً بمعنى الكلمة، نعم بالرغم من كل مظاهر الفحولة التي يلف نفسه بها، لقد شعر بأنها مجرد ستار يخفي من ورائه ضعف ورخاوة عاجز، لم تستطع كل تلك الدعايات المكشوفة أن تخفي تلك الريبة في رجولته عن عينيه، مثل إعلانات الأفلام الرخيصة، وكتب الجنس الملقاة فوق الأرضفة، تعدك

أغلقتها بالكثير حتى تبتلع الطعام بسذاجة، تفاجأ بعدها بمقدار ما كانت فارغة من كل وعودها. هكذا فشلت هذه المحاولات المسطحة أن تمحو عن نظرة سليمان الفاحصة تلك الحقيقة التي شهدها الآن ببصيرته التي منحها إياه ذلك الخاتم المسحور، واندesh لمعرفته شبه اليقينية بأن لطفي حسنين مدعي الفحولة هذا، ليس في واقع الأمر سوى رجل يعاني من الضعف الجنسي ويحاول مستبسلًا أن يتخفى وراء كل تلك الأكاذيب المفضوحة. رفع ظهر يسراه ونفخ برفق فوق الحجارة الأربع الحمراء التي كانت تعطي فص الخاتم ثم مسح بكم القميص. ابتسم بانتصار من جراء تلك الفكرة الخبيثة التي طرأت له بغتة هكذا، فانفجرت أساريه واستراح ذهنه ومضى يحول بين المدعويين محاولاً أن يجد نديمه الليلة، وفجأة رآها..

حسناً لم تقع عيناه على جمال يقترب من حسننها، العينان العسليتان المحروستان برموش مناسبة كالحة السواد، والجفنان ناعسان مستلقيان فوقهما في هدوء، وإن غلب عليهما مسحة من الحزن لم يخطئها بخبراته النسائية العريقة، والبشرة الصافية المشوبة بحمرة خفيفة وكأنها لسعة شمس. لمحها هناك على الجانب المقابل من البهو وشعر بأنها هي أيضاً ترمقه عبر الغرفة بين جموع الحاضرين بنظرات متسائلة. أفاق من استغراقه في إعداد الخطة لاقتحام ذلك التحدي الجديد، حين ربتت على كتفه يد مضيفه القادم من خلفه قائلاً:

- «أهلاً أهلاً بصديق الطفولة!!

استدار نحوه مدارياً ابتسامة ساخرة كادت أن تطفو على السطح وتشي بأفكاره، وخاصة لما وجده محتضناً خصري جميلتين كانتا تصطحبانه، وأجاب:

- «أهلاً ببك يا لطفي باشا! إيه الجمال والروعة دي كلها يا راجل!»
وضغط بقوة على مخرج اللفظ الأخير وكأنه يترقب رد فعله تجاهه. قهقهه الأخير متفاخرًا بتصنع، ثم سأله:

- «أمال فين المدام؟ مش كنت تحبها وياك علشان نتعرف عليها؟» وقهقهه ثانية وهو يدير وجهه متلفتًا بإعجاب - بذاته - للمرأتين وكأنه جاء بآخر نكتة!

- «معلش ما قدرتش تيجي معايا الليلة علشان تعب العيد والسهر ليلة امبارح في الكنيسة حلّ عليها، وعلى العموم الأيام جاية كثير»..

- «آه طبعاً طبعاً الأيام جاية طبعاً!» وقهقهه مجدداً. بدا له أنه لا بد من أن يكون قد بدأ الشرب مبكراً. وفعلاً، وكأنه قرأ أفكاره أضاف لطفي:

- «إيه يا راجل؟ إنت عاوز عزومة ولا إيه؟ البيت بيتك أيللا هات لك حاجة تشربها وتعال علشان أعرفك بالمدام بتاعتي»..

وفعلًا مضى به ناحية البار وأمر الرجل ذا البايون الأحمر أن يُعِدَّ له كأسًا من الويسكي، ثم التفت نحوه وما يزال يحتضن المرأتين اللتين بدتا وكأنهما تكملة لملابسه أو داع من دواعي الأناقة، وتساءل:

- «ثلج؟»

أومأ إليه وهو يتأمل المرأتين إلى جانبيه وقد استسلمتا تمامًا لدورهما وكأنهما تدركان - كما يدرك هو - أن صاحبهما أليف، منزوع الأظافر ولا خطر منه! ناوله الكأس واتخذ لنفسه كأسًا رفعه أمامه وصاح فجأة:

- «في صحة الشم! شم النسيم!» وضحك مقهقهًا كعادته، فضحك سليمان مجاملًا له، والمرأتان أطلقتا ضحكات خليعة ملأت الصالة فالتفت المدعوون مستكشفين مصدر الضحكات. وبحركة مسرحية أطلق خصري المرأتين دافعًا إياهما بعيدًا عن ذراعيه قائلاً:

- «يللا يا حلوين روحوا شموا بعيد عني. ها ها ها» والتفت ناحية سليمان ولفَّ ذراعه فوق كتفه، ثم مضى به عبر القاعة إلى الناحية البحرية، حيث الحسناء صاحبة العينين الناعستين ما تزال ترمقه، وملأت أنفه رائحة الخمر المنبعثة من فمه حين سأله:

- «أمال الدكتور رشاد فكري جاي إمتي؟» فتذكر سليمان أنه كان من المفروض أن يدعو الدكتور رشاد، ولكنه نسي، أو بالأحرى تناسى، فلم

يجده مناسباً على الإطلاق أن يدعو المفكر المرموق لقضاء سهرة في بيت رجل غريب حتى ولو كانت معرفتهم قد بدأت من ثلاثين سنة! فهو حتى هذه اللحظة لم يزل في طور تكوين فكرة مبدئية عن الرجل. ولكنه أجاب قائلاً: - «تلاقيه نزل مصر، ولا راح عند حد من معارفه يقضي شم النسيم في عزبة ولا حاجة، أصلي ما عرفتش أعتز فيه خالص». ما يزال يتقدم معه بخطوات بطيئة بسبب ازدحام الصالة بالمدعويين الذين كانوا يرمقونه بعيون فاحصة حين شقا طريقهما مارين في وسطهم، يخترقان أجسادهم وقد وضع لطفني باشا المضيف ذراعه حول كتفه، وتفكر سليمان مدعوراً فيما لو كان قد أصاب الهدف أو أخطأه عند تحليله لميول لطفني حسنين الجنسية، فاحمراً وجهه خجلاً من نظرات الحاضرين إليهما، وتساءل عن مغزى تلك الابتسامات.. وما يزالان يقتربان حتى وجد نفسه يقف وجهاً لوجه أمام الحسنة ذات العيون الناعسة!

- «أقدم لك مراقي (بنهار)» قال بنبرة ملؤها الافتخار..

- «بن. مين؟» أسقط في يده. إذن فالحسنة زوجته!. حاول أن يغلف

ارتباكها بتصنع المرح..

- «بنهار. بنهار يا أخي. مراقي! ده اسم تركي!»

- «آه! تركي!! أهلاً وسهلاً يا مدام بنهار، معلش أصلي.. أصل حضرتك

أول بنهار أقابلها في حياتي!» فضحكت. ومن ثم تشجع هو وأضاف:

- «أنا سليمان داود عبد الملك، مدرس فلسفة!»

- «فلسفة مرة واحدة!»

- «مرة واحدة!» وتأمل جماها غير مُصدّق أنه يتحدث مع صاحبة تلك العيون الأخاذة..

- «طيب إيه رأي الفيلسوف بقى في إيلي يعدي البحر وما يتبلش؟»
وضحكت ضحكة مجلجلة ثم رمقت زوجها بنظرة خليعة واستأذنت منصرفه عنهما. تفكر سليمان فيما كانت المرأة تقصده بسؤالها، وراحت عيناه تتابع شعرها الكستنائي وهو يتمايل فوق ظهرها العاري في حين كانت قد تركتهما متجهة ناحية الشرفة المطلّة على شاطئ البحر. يا للجمال! ولكن موضوع تعديّة البحر من دون البلبل هذه، أتكون قد قصدت؟. قطع لطفي استرسال أفكاره بقوله:

- «المدام أصلاً من القاهرة أبوها من البكوات بتوع زمان وجدها خورشيد باشا من أعيان الأقصر، وأمها يا سيدي تركية! آه والله تركية، وما بتكلمش ولا كلمة عربي!»

- «ما شاء الله! حاجة جميلة جدًّا! إنما تفتكر إيه حكاية تعديّة البحر من غير ما تتبل دي؟» تساءل سليمان متخابثًا. وفعلاً تلعثم لطفي مُنكرًا أنه يفهم نصف ما تقوله «بنهار» عادة! ثم أضاف ضاحكًا:

- «مش الحال من بعضه برضك؟ يعني إنت بتفهم نص كلام مراتك؟»

- «لأ طبعًا. وعمومًا أنا مراقي ما بتتكلمش خالص! بتبتسم وبس!!»
وضحكا هذه المرة معًا لأول مرة.
جاءهما أحد المدعوين مقتحمًا:
- «إيه يا جماعة ما تضحكونا معاكم!» رجل في منتصف العمر، منتصف
الذكاء، منتصف الأناقة، وثلاثة أضعاف الوزن الطبيعي!
- «أقدم لك الأستاذ حمدي مراد صاحب مزارع الدواجن المشهور» قال
لطفي مقدمًا صديقه الممتلئ..
- «تشرفنا! وأنا سليمان داود بتاع البيضة هي الأصل ولا الفرخة؟»
تضحك سليمان..
- «سليمان باشا عنده مزارع تفريخ؟»
- «لأ. سليمان (أفندي) ما عندوش إلا الفلسفة»
- «فلسفة؟ يعني هاتفلسف علينا الليلة دي على كده!!» وانفجر الرجلان
ضاحكين، وجارهما سليمان مجاملة. قطع حديثهم صوت من وسط الصالة
يعلن صائحًا:
- «يا جماعة! يا جماعة. تعالوا! عبد الحليم هايعني!» فتحرك الجمع ناحية
التليفزيون، مشدودين إلى عزف الفرقة الماسية لمقدمة الأغنية. تلفت «سليمان»
حوله باحثًا عن «بنهار» فلمحها جالسة بمفردها على مقعد بالشرفة متجهة
برمتها إلى ناحية البحر. فهمس إلى أذن مضيفه ونبس:

- «المدام..» ولكن قاطعه الرجل السمين قائلاً:

- «تعرف سعادتك أحمد فؤاد حسن ده..» فقال سليمان متأففاً:

- «مين أحمد فؤاد حسن ده؟»

- «حضرتك يا سليمان بك، ده يبقى رئيس الفرقة الماسية اللي بتعزف دي،

ما هو أصله كان متجوز نجوى فؤاد..» قاطعه ثانية:

- «نجوى فؤاد؟. هي الحكاية إيه بالضبط؟»

- «الحكاية يا سيدي إن بنته بقى، من الفنانة نجوى فؤاد، بنت زي القمر،

وكانت زميلة لبنتي في المدرسة، فكانت دايمًا بتيجي تزورنا، وف يوم..» كفَّ

عن الاستماع إذ لم يستطع أن ينصت له أكثر من ذلك، فكان يومئ برأسه في

حين انشغل ذهنه بإعداد خطة الاختراق. وأخيراً فوجئ به يقول:

- «.. ومن ساعتها واحنا ما بنشوفهاش»

- «يا سلام! ما شاء الله! حاجة عظيمة!»

وما زالت الفرقة تعزف في حين كان ذهنه متجهًا للاحية الشرفة إلى حيث

كانت «بنهار» جالسة، في حين أصابه ذلك الرجل بالتوتر بحكاياته الغريبة.

فالتفت ثانية نحو لطفي وهو يعبث بخاتمه حول إصبعه، ملتمسًا مخرجًا من

ذلك الخازوق الذي شعر أنه قد اقتحمه، وقال:

- «أنا شايف المدام قاعدة لوحدها في التراس، مش واجب برضه تروح..»
قاطععه لطفي وكان مستغرقًا مع الموسيقى المنبعثة من التلفزيون:

- «طب وحياتك يا سليمان تروح تشوف مالها، على بال ما اوضب لك
سيجارة فاخرة!». فانطلق سليمان ناحية الشرفة بغير أن يعقب على كلامه،
خوفًا من أن يعود صاحب الدواجن فيتحنفه بتعليقاته السخيفة..

هاله منظر القمر وقد أرسل بغلالة فضية براقة احتضنت صفحة المياه
المناسبة إلى ما لا نهاية من وراء مجلس «بنهار»، فبدأ ظهرها وكأنها جالسة أمام
مرآة تتجمل. التفّ بخفة حول مقعدها فواجهها، ولكنه فوجئ بها تشيح
بوجهها بعيدًا عنه، وشك لو أنها ربما كانت تبكي. رفع عينيه نحو الصلاة
فلاحظ انشغال الكل بمتابعة الحفل، فتشجع وركع فوق إحدى ركبتيه
أمامها في حين أمسك بمسند الكرسي الذي كانت جالسة به..

- «ليه قاعدة لواحدك يا مدام بنهار وسايبة ضيوفك؟». التفتت نحوه
بتردد، وهمت بأن تجيب، ولكن الكلمات انحسرت بداخلها رغماً عنها،
فأثرت أن تظل محتفظة بصمتها، والتفتت مجددًا تتأمل تتابع الأمواج المنكسرة
فوق رمال الشاطئ المفضضة. استمر في انكساره أمامها ومازالت هي غارقة
في صمتها وعادت قطرات الدمع تنساب مجددًا فوق وجنتيها الورديتين
وهلت رائحتها العطرة فملأت أنفه. استجمع كل ما أوتي من جسارة ومدد
يده ناحيتها، وبرفق مسح بأطراف أنامله صفحة وجهها بحنان..

ابتسامة وليدة تبدت، ثم غزت كل صفحة وجهها، فأشرقت بضحكة طفولية، وانبعثت قائمة من مجلسها، فوقف بدوره في مواجهتها. اشتعل قلبه ناراً وهمَّ بأن يطبع قبلة فوق شفثيها، غير عابئ بالعواقب، ولكنها تنحّت عنه في الوقت المناسب كأنها قرأت أفكاره، منقذة إياه من السقوط في شر أعماله، واستدارت ناضرة للداخل حيث المدعوون وقد التفوا حول غناء «حليم». بقي هو واقفاً خلفها يتأمل جمال قدها الملتف في حبكة فستان فيروزي براق يبدأ من حيث تنتهي أطراف شعرها المنساب، ثم يلتف بجسدها فيحتضن مفاتها احتضاناً، ويمتد حتى يكاد يتلامس مع الأرضية المبلطة من تحتها. فاجأته بقولها دون حتى أن تنظر إليه:

- «ما ردتش على سؤالى» وأدرك على الفور ما كانت ترمي إليه، فهمس:

- «آه. إالى يعدي البحر ولا يتبلش، زي الجعان إالى يفضل جعان لو يقضي عمره كله في مطعم، الأكل رايح جاي قدامه وهو بينصف الترابيزات، أو اللى بتروح السينما علشان تبيع تذاكر، وهي عمرها ما شافت فيلم، أو مثلاً الست المتجوزة، من راجل ما بيعرفش!» انفجرت ضاحكة، ضحكة ممتدة مجلجلة، حتى انتبه إليها بعض الحاضرين الذين التفتوا ناحيتها مبتسمين بفضول، ثم انصرفوا عنهما من جديد إلى الشجن العاطفي المسافر عبر صوت العندليب..

- « ما تيجي نتمشى شويه ع البحر »

خلعا أحذيتهم عند طرف الشرفة واتخذوا بضعة درجات أفضت بهما إلى
رمال شاطئ العجمي البيضاء الناعمة. سارا متجانين حتى وصلا إلى مياه
البحر الفضية وقد انسابت فوقها ضياء القمر. تبدى بدرٌ برتقالي شبه مكتمل
وأكبر من المعتاد، بل وبدا وكأنه يذوب شوقاً إلى مياه البحر فيجذبها نحوه
تارة، ويميل نحوها ويسكب من رحيقه المفضض فوق سطحها تارة أخرى.
وخشيت «بنهار» أن يبتل ذيل فستانها فمدت يدها ورفعت طرفه إلى فوق
ركبتها وهي تخطو برشاقة فوق أمواجه الماسية المندحرة، فتبدى ساقها
المرمرية لسليمان في وسط المياه كعمودين من نور، انعكس ضيهما أمام عينيه
فانبهر، وتراجع للوراء خطوتين من فرط المفاجأة، حتى كاد أن ينقلب على
ظهره..



الفصل الرابع والعشرون

لم يزل موضوع «الدكتور رشاد فكري» يؤرقه ويشغله ليلاً ونهاراً، فمحمد البوري رجل متدين، ورجل المبادئ لا ينسى الصنيع الحسن، وما فعله الدكتور رشاد حياله في أشد أيام حياته ألماً هو جميل يحمله حول عنقه مدى الحياة، فكما يقولون إن العشرة لا تهون إلا على أبناء الحرام، وهو ليس منهم، ولكن ولاءه للإسلام ولحركة الإخوان المسلمين هو أهم وأقوى، وأغلب وأبقى، فماذا يمكنه أن يفعل كفرد واحد - حتى لو كان من قادتهم - إزاء رغبة الجميع! لم يبق له سوى حل واحد يوفق بين رغبته الأصيلية في إنقاذه من موت محقق، وبين الإذعان لمشيئة أعضاء الجماعات الإسلامية المتشددة الذين يدبرون الآن لاغتياله، فرصة أخيرة يمكنه معها أن يمنع بعدها مقتله، دون معاناة باقي الإخوة والوقوف في صفه حيال رغبتهم في تصفيته.

جلسة استتابة!

نعم فلو كان قد كفر من وجهة نظرهم، فالشريعة تحتم عليه أن يستتيب الرجل قبل أن يعلنه مرتدّاً عن الدين الحنيف ويُقتص منه، وما أهون عليه

أن يتحدث معه - بالمنطق - فيقنعه بالتراجع عن مواقفه المتشددة تلك تجاه الإسلام من ناحية فيكتب له عمر جديد، ويكون إعلان توبته على الملأ - وهو الكاتب والمفكر المشهور - بمثابة نصر مبین يرفع من شأن الحركة لآفاق أعلى من ناحية أخرى، تكسبها شعبية أوسع. راقى له الفكرة، فطرحها على «ديدو» - عملاً بمبدأ الشورى - فاستحسنها الرجل بدوره وتعهّد إليه بأن يسعى بنفسه لتدبير اللقاء معه.

وافق الدكتور رشاد بشرط أن تجري المناقشة في مكان عام يشهد فيه آخرون على وقائعها فلا يتركون في الأمر أي لبس أو شك فيما يصلون إليه من نتائج، واقترح هو أن يتمّ اللقاء في مقر «جماعة الفكر الحر» بالإبراهيمية يوم الخميس القادم الموافق الثاني عشر من يونيو ١٩٨١، موعد محاضراته الشهرية بالمركز، والتي سيخصص موضوعها عن قيام الدولة الدينية بهذه المناسبة، بل وسيقلص حجم المحاضرة إلى مجرد بيان يعبر من خلاله عن وجهة نظره في الموضوع ويفتح بعده باب المناقشة لمن يريد وعلى رأسهم طبعاً «الشيخ محمد البوري». عرض عليه «ديدو» رد الدكتور فتفكر قليلاً ثم أوماً برأسه قائلاً:

- «فإذا عزمت فتوكل على الله»..

بعدها بيومين، وبالتحديد يوم الأربعاء الحادي عشر من يونيو وبينما كان محمد البوري يرتدي جلبابه الإسلامي الواصل لما تحت الركبتين وسرواله الهفهاف والطاقيّة المشغولة، البيض اللون، الزيّ الحديد الذي كان قد اتخذهُ لنفسه وتبعه في ارتدائه قادة الحركة ونخبتهَا، استعدادًا للخروج لزيارة «مروّة» زوجته الشابّة التي أعادت إليه شبابه الضائع بين جدران سجن قنا، إذا بجرس باب الشقة يدوي بإصرار غير مألوف، فتوجس هو على غير عادته. الوقت كان بعد الظهر وقد انصرف الكل إلى أشغالهم، وحتى الحاجّة «زينب» كانت قد ذهبت لقضاء أمر ما، فلم يتبق غيره بالشقة لذا فقد مضى متباطئًا نحو الباب ليحجب طارقهُ وقد تسارعت دقات قلبه، وهو يفكر فيمن يمكن أن يكون الطارق. «ديدو» يزوره في العادة بعد صلاة العشاء ليشرب معه الشاي، والحاجّة والأولاد معهم مفتاح الشقة فلا يدقون جرس الباب، وعند ذاك الخاطر بالذات دق الجرس ثانية بإصرار أشد. «خير إن شاء الله»..

مدّ يده وفتح الباب فإذا بشاب طويل كثيف الشعر والحاجيين يرتدي قميصًا ملونًا واقف أمامه صامتًا، وبجانبه على أرضية عتبة السلم قبعَت حقيية سفر. بدا مرتبكًا وكأنه لم يتوقع أن يفتح له هو الباب، عملاق عجوز أسمر ذو لحية بيضاء، يرتدي ملابس بيضاء غريبة ويضع منديلًا أبيض فوق رأسه، ترى من يكون؟..

- «أيوه يا بني مين حضرتك؟ عاوز مين يعني؟» سأله العجوز. لما سمعه الشاب لم يصدق أذنيه! هذا الصوت، تلك النبذة اخترقت تجاعيد الزمن وندباته، وحتى هذه الملابس الغريبة، ففتح ذراعيه وانقض عليه عاصراً إياه في حضنه هامساً بتأثر:

- «بابا. بابا. بابا..»

أجلسه بجواره على الأريكة المفضلة، وأنصت بشغف إليه غير مصدق أنه يجلس أمام بكره «محمد»، وهو يقصُّ عليه كيف تخبط بين مختلف الولايات في «أمريكا» حتى استقر في ولاية «كاليفورنيا»، حيث حصل على منحة دراسية أنهى بمقتضاها درجة البكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة «بيركلي»، وحيث يستعد الآن لدراسة الماجستير في حقوق الإنسان من نفس الجامعة في الخريف القادم، لذا فلقد انتهز الفرصة ليزور العائلة بالإسكندرية قبل أن ينشغل مجدداً بالدراسة والعمل. شعر بفخر لا يماثله شيء، وإن غلبه وجله على ابنه أن يضيع منه في غمار ذلك العالم العجيب. ثم سأله ابنه بدوره عن سنوات السجن مشفقاً، وعن «مصطفى» و«مي» وعن أمه فاطمأن عليهم جميعاً، ثم تساءل بفضول عن ملبسه الغريب فقهقه ضاحكاً وأجاب أنها (سنة) أن يلبس ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة يلبسون، فهزَّ رأسه.

تكلمنا عن كل شيء، ومضت الساعات بهما وهما قابعان على الأريكة حتى نسيَ الشيخ محمد مواعده مع «مروة»..

سحب «سليمان» نفساً أخيراً من السجارة قبل أن يطحنها في المنفضة أمامه على المكتب، وهو ما يزال جالساً في حجرة الصالون يدخن ويتذكر في تفاصيل آخر لقاء كان قد جمع بينه وبين مدام «بنهار». ففي مدار علاقته بها كانت درجة الحميمية بينهما وقربها إلى قلبه قد فاق إحساسه بأمان زواجه التي عاشها خمس سنوات طوال، وأنجبت له خلالها أبناء الثلاثة. كانا يلتقيان بعد الظهر من كل يوم ثلاثاء تقريباً، بفندق «سويس هوتيل» الصغير بمحطة الرمل الذي كانت تديره مدام «سوزانا»؛ عجوز سويسرية من بقايا الجاليات الأجنبية التي كانت قد استوطنت الإسكندرية قبل قيام الثورة، وكان «سليمان» زبوناً قديماً عندها منذ أيام الجامعة، وكان صديقاً لزوجها «روبير» قبل أن يفتك به سرطان الرئة في أوائل السبعينيات، وقد أصبحت «سوزانا» بدورها صديقة لهما فيما بعد بحكم تجدد لقاءاتهما عندها..

مزيج غريب من الرقي والسوقية، من الرومانتيكية والشهوانية، من التعالي والتدني، كان يفاجأ به في شخصيتها، ولكنه مع ذلك لم يقابل امرأة مثلها! تعرف ما تريده بالضبط، ولا يهدأ لها بال حتى تحصل عليه، ومن

دواعي الفضول، بل والريبة، أنه كلما تقاربا فيما بينهما ونمت العلاقة أكثر، كان يلاحظ ازدياد اهتمام زوجها به، وإكثاره من السؤال عنه، ودعوته لسهرة هنا أو غداء هناك. صارحها بأفكاره ذات يوم، طارحاً تساؤلات فيما لو كان ربما يشك زوجها في علاقتها، فاستنكرتها بشدة قائلة بأن لطفي مجنون ولو كان شك - مجرد شك - فيما لو كان بينهما ولو مجرد استلطاف، فهي لا تستبعد أن يأتيه بلطجي يؤدبه أو حتى يقتله بدم بارد، وختمت بقولها:

- «إنت ما تعرفش لطفي. ده واصل لفوق قوي!»

ولكنه لم يرتح أبداً لعلاقته بلطفي حسنين البصري، فلقد شعر دائماً بأنه يخفي الكثير تحت ستار تلك البسمة المرسومة والشعر المصفف والخواتم الذهبية حول أصابع الساحر التي كان يلاعبها أمام عينيه عند كل لقاء به، أيكون أحد الحرامية الذين امتلأت بهم البلد هذه الأيام، جمع كل هذا المال والجاه بطرق غير مشروعة؟ أم تراه يعمل لحساب المخابرات مثلاً، وإلا فكيف وصل به الحال إلى ما هو عليه من يسر في الحال؟ وذلك التوتر الذي يشمل تواجهه في أي مكان يظهر به، وأسئلته المتواصلة عن أشياء مثيرة للشكوك؟. ولكنه لم يجعل ذلك التوتر يؤثر أبداً في تلك العلاقة التي كانت قد جمعتها بينهار والتي وثقت وتنامت مع الأيام. وفي مساء الأربعاء الحادي عشر من يونيو، تحققت شكوكه في صدق سريرة لطفي عندما كانا ساهرين معاً في

بار فندق «سيسيل» بمحطة الرمل حين لعبت الخمر برأسه وبدأ صوته يعلو
وكانا يتحدثان عن تظاهرات الطلبة في الجامعات واعتصامهم بها، وعن رد
فعل الحكومة في المقابل ووصف الرئيس لحركتهم بأنها (انتفاضة الحرامية)،
فصرخ لطفي:

- «دول ولاد كلب يا سليمان! دول إحنا إالي جايينهم وحطينهم في
وسط الطلبة، ودافعين لهم أكوام فلوس علشان يقفوا قصاد الشيوعيين في
الجامعة، يقوموا هم الي يعضوا الإيد إالي بتوكلهم؟» فتساءل سليمان ببراءة
مفضوحة:

- «إحنا مين يا لطفي؟» فرد على الفور وقد رفع نحوه عينين مسبلتين..
- «إنت هاتستعبط؟» فضحك سليمان من أعماق قلبه، وهو يفرك الخاتم
بأصبعه في حركة لا إرادية. ثم تساءل بجدية هذه المرة:
- «طب وانتم ساييينهم ليه لما يكبروا بالشكل ده؟». أجابه لطفي بدوره
بلسان أثقله السكر:

- «مين بس إالي قال إننا ساييينهم؟ بس هي الديموقراطية الله يلعن أبوها
هي كمان! كل ما نعوز نعمل حاجة جامدة، يطلعولنا بحكاية الديموقراطية،
نقوم نسكت. كان مالنا ومال الديموقراطية؟ وهم دول ينفع معاهم

ديموقراطية والنبي؟ دول ما يجوش إلا بضرب الجزم!» فضحكا معًا حتى عقب سليمان:

- «ما هو انتوا إليّ خرجتم الجن من مصباح علاء الدين! مش انتوا إليّ فضلتوا تلمّعوه لحد ما صحيتوا العفريت إليّ كان حبسه عبد الناصر جوّ القمقم؟ خلاص بقى اتصرفوا!»

- «هانتصرف. أكيد!». إحنا مش نايمين على وداننا، لأ طبعًا!» وكان مفعول الخمر قد وصل بهما إلى منتهاه، أو هكذا ظنّ سليمان الذي بدأ النعاس يراوده بدوره فأشار إلى أن الوقت قد تأخر. ولكن لطفي بادره بقوله أن لقاء الغد بين الدكتور رشاد فكري وبين الشيخ محمد البوري بصالون جماعة الفكر الحر محفوف بخطر جم على حياة الدكتور رشاد، فاندesh سليمان حين ظهر له مدى معرفته بتفاصيل الأحداث من حوله، حيث إنه لم يعلم شخصيًا عن حضور الشيخ للاجتماع إلا بالأمس فقط حين اتصل به الدكتور رشاد وأعلمه بشأنه. تجرأ وقال له:

- «إنت عرفت ازاي يا لطفي؟ أقصد أقول مين بالضبط إليّ قال لك؟ الدكتور رشاد مثلاً؟ بس إنت قلت لي إن نفسك تتعرف عليه، أمال مين إليّ قال لك؟» ضحك لطفي ثانية وأجاب:

- «شُغلنا بقي يا سليمان يا خويا، وماقدرش أقول لك مين إللي قال لي، بس تأكد يا سليمان إني عارف كل حاجة عن كل واحد في البلد، كل واحد وكل واحدة يا سليمان!». قالها بلهجة جديدة، لهجة واثقة حاسمة ومخيفة، لهجة انسابت إلى قلبه فالتوى بداخله، أيقصد أنه يعلم بتفاصيل علاقته بينهار زوجته؟ وإلا فما الداعي لأن يقول «كل واحد وكل واحدة» ماذا يقصد؟ ولو كان حقيقة يعرف كل شيء، فلماذا يتركها يستمران في اللقاءات شبه الأسبوعية بفندق مدام سوزانا؟ ثم ماذا عَنَّت بنهار يوم قالت له إن لطفي غيور ولو علم شيئاً لكان قتله؟ انتزعه لطفي بقوله:

- «إنت رحت على فين؟ فوق يا سليمان واسمع كلامي كويس، أنا عايزك تروح بكره الصبح وتحاول تمنع الدكتور رشاد يروح الاجتماع ده بأي شكل، لأن فيه خطر على حياته. فاهم أنا باقول لك إيه؟ فيه خطر مؤكد على حياته..»

إذا كانت هذه هي حرارة شهر يونيو، فكيف تكون في يوليو وأغسطس؟ تفكر بذلك سليمان وهو يَصُفُّ بصعوبة سيارته بشارع جانبي بقرب ميدان المحطة وهو يتصبَّب عرقاً، ثم ترجل إلى مقر جريدة «الوطن» حيث مكتب

الدكتور «رشاد فكري». كان قد انتهى لتوه من تدريس فصول الفلسفة بالمدرسة بالشاطبي، ثم طار إلى هنا لمقابلة صديقه المفكر المعروف من قبل أن ينصرف عن مكتبه بالجريدة ليحاول أن يثنيه عن الحضور الليلة لإلقاء محاضراته الشهيرة، وكلمات لطفي حسنين لا تزال أصدائها تطنُّ برأسه.. وسط أكوام القاذورات وباعة الجرجير والبطيخ والملابس الداخلية المفترشين الرصيف، شقَّ طريقه وهو يحاول أن يركز تفكيره فيما دار بينهما من حديث، ودون أن يتعثّر في أحد هؤلاء الأطفال حاملي تذاكر اليانصيب، والمناديل الورقية، أو لفافات النعناع واللبن، بوجوههم المطلية بطبقة سوداء من هباب عوادم السيارات والعرق وتراب الطريق، وهؤلاء الذين يتقافزون بأجسادهم أمامه بحجة البيع والشراء في حين أنهم في الحقيقة يتسوّلون، أو ينتهزون الفرصة لنشل محفظة، أو خطف حقيبة يد، أو سلسال مُدَلَّى فوق صدر امرأة..

بلطف طرق الباب بالدور الثاني بمبنى الجريدة المتواضع، فأذن له صوت الدكتور بالدخول..

ـ «أهلاً أهلاً يا سليمان. إيه المفاجأة الحلوة دي؟ وتاعب نفسك وجاي لحد هنا ليه يا رجل؟ ما انا هاشوفك الليلة في الصالون ولا إيه؟» استقبله كالعادة بوجهه البشوش ونظارته الغليظة الساقطة فوق منتصف أنفه،

وبصوته الجهوري الرخيم.. أخرج آخر منديل ورق من جيبه وطبطب به فوق جبهته ووجنتيه وهو يجيب:

- «أهلا يا دكتورنا العظيم، ما هو أنا جاي برضه علشان نفس الموضوع»
- «موضوع إيه؟ طب في الأول تشرب إيه» وضغط على الزر الكهربائي الشهير، الذي يأتي بعده الساعي المعتل بداء الكهولة وسوء التغذية، فيأمره صاحب الزر بإحضار فنجان القهوة المضبوط، أو عصير الليمون الطازج، أو في ظروف محدودة زجاجة مياه غازية، التي غالبًا ما تكون فاترة..

دار بينهما حديث أفاده خلاله سليمان عن معلوماته التي وصلته من مصدر موثوق به، لم يكن في حل لأن يخبر عن اسم صاحبه، أن حياته الليلة في خطر، إذا ما حضر وألقى بمحاضراته الشهرية عن الدولة الدينية في حضور الشيخ محمد البوري. قهقهة في النهاية الدكتور رشاد ومال بظهره للوراء حتى كاد أن ينقلب به ظهر مقعده، وفي الحقيقة احتار سليمان فيما يفعل بنفسه، إذ لم يكن يفهم السر من وراء تلك السعادة المبالغية أو السخرية التي كانت قد حلت بصاحبه. انتظر حتى انتهى وسأله:

- «إيه الحكاية بالضبط يا دكتور؟»

- «الحكاية إنك ساذج يا سليمان! مش فاهم لسه قواعد اللعبة، يمكن علشان أنت مسالم حبتين. الراجل بتاعك ده عاوز يشتريني يا سليمان،

عاوز يعمل معاك صفقة يدفع فيها بحمايته ليّ الليلة دي الثمن، في مقابل
إني أشتغل لحسابهم، وبالتالي أبطل أتكلم من هنا ورايح، أبطل أفصح
انتهاكاتهم المستمرة لحقوق المرأة والأقباط وأشتغل لهم مطالباتي. يرضيك
إني أبقى كده؟ يرضيك أبطل أدافع عن حقوقكم يا سليمان علشان الظلم
والتفرقة دي تزيد كمان وكمان؟ وبعدين لو الإسلاميين عاوزين يموتوني -
وأنا متأكد إنهم في يوم هايعملوها - لازم يعني يجوني في مركز «جماعة الفكر
الحر» علشان يموتوني وأنا بالقي المحاضرة؟ طب ما ييجو يموتوني هنا في
المكتب، ولا في الشارع وسط المولد إالي إحنا عايشين جواه ده، ولا مين
شاف ولا مين دري!» ومايزال مبتسمًا في حين سبّح سليمان بفكره بين أمواج
أفكاره المتلاحقة.. وأخيرًا عقب:

- «يظهر إني فعلاً ساذج يا دكتور، بس ممكن أطلب منك طلب، يمكن
يكون بالنسبة لك أكثر سذاجة من طلبي الأول بإنك ما تجيش للمركز الليلة؟
ممكن تقبل إنك تاخذ الخاتم ده وتلبسه لغاية ما تخلص المحاضرة، وبعدين
ترجّع هولي بكره ولا بعده؟» قال ذلك في حين خلع الخاتم عن إصبعه ومدّ
يده به نحو صديقه. مدّ الدكتور رشاد يده بدوره وأخذ منه الخاتم متعجبًا،
ثم شرع يقلبه فوق راحة يده وكأنه يحاول أن يقدر وزنه ليخمن قيمته، ثم
قهقه من جديد وقال بكلمات تتخللها ضحكاته:

- «إيه ده يا سليمان؟. هاها. ده خاتم ده؟؟. هاها. ولا حجاب؟؟؟..

هاهاهاااa

- « حجاب إيه بس يا دكتور، هو أنا برضه بتاع حجاب وحاجات من

دي؟»

- «أمال إيه الحكاية يا بتاع الفلسفة، يا رئيس جماعة (الفكر) الحر!؟»

لم يجد بداً، فقصَّ سليمان عليه قصة الخاتم العجيب الذي بدا وكأنه القاسم المشترك في النجاح المبهر الذي حققه «سيد درويش» في مجال الفن، ووالده «داود عبد الملك» في الصَّيت والشهرة والثروة، و«جمال عبد الناصر» فنجت ثورته من الفشل بطريقة شبه إعجازية وبشهادة الجميع، و«ماجد البارودي» الذي خاض الحرب وعاد منها دون خدش واحد، في حين استشهد وأصيب كل أفراد وحدته. ثم بحياته هو شخصيًا، بنجاحاته وصولاته وجولاته التي حسده عليها أقرانه..

ولكن العجيب أن الدكتور «رشاد فكري» رجل الفكر وصاحب المؤلفات العديدة، والداعي لترجيح سطوة العقل قبل كل شيء، تردد في الرفض القاطع للبد التي مَدَّها إليه «سليمان». ومن دواعي الغرابة، أنه وإن لم يبد قناعة بأيِّ مما قاله، قبل في نهاية الأمر أن يضع الخاتم حول إصبعه، من أجل خاطر صديقه وإذعاناً لوسوسته غير المنطقية، بالرغم من اقتناعه

بأن الخاتم المزعوم مجرد من أي فضل على أيٍّ من هؤلاء الذين سرد سليمان
قصص بطولاتهم ونجاحاتهم، المزعومة أفضالها لقطعة من الفضة وفصوص
من الأحجار الحمراء، التي لا تساوي عنده أكثر من قيمتها كقطعة من الحليّ،
قُدِّر له أن يتحلى بها الليلة وهو يتبارز بعقله مع صديقه اللدود «محمد البوري»
في منتدى جماعة الفكر الحر..



الفصل الخامس والعشرون

اقتصرت حياة «إيلين» على بضع خطوات تتخذها يوميًا ما بين السرير والحمام والمطبخ كانت قد أحصتهم ذات يوم فوجدتهم اثنتين وسبعين خطوة، ومن يومها صارت تتشاغل بعدد الخطوات التي خطتها عند أي ساعة ما من اليوم، والعدد المتبقي لها لتخطوه حتى تنام. لا يكسر رتابة الزمن الذي بات ملتصقًا بأيامها لا يريد أن يمرَّ، سوى زيارات أحفادها لها يوم الجمعة أو في المناسبات والأعياد، وكانت تتساءل أحيانًا أي من أولاد سليمان كان ينتوي أن يورثه خاتمه من بعده. تدرك يقينًا أن «منى» ابنتها سعيدة في زواجها، وقد شقت طريقها مع زوجها «نادر» - الذي لم تزل لا تميل إليه - وانتقلا للعيش بحي «المعادي» الراقي ورزقا بـ «ميناء» و«ماري». ولكن تعاسة «سليمان»، والتي حاول إخفاءها دومًا تحت السطح، رأتها هي دائمًا جلية أمامها بعيون الأم، التي تلمح خفقات القلوب فلا تنطلي عليها مساومات التصرفات المهادنة. لم تكن «أماني» بالزوجة المناسبة له، ولكنه القدر، و«ما جمعه الله لا يفرقه إنسان». هكذا كانت تقول لنفسها كلما لاح لها ذلك الخاطر..

استيقظت ذات يوم عند الفجر، وشعرت بأن هناك غشاوة ما تزال تغطي عيونها بشبه ظلام، ولكنها أرجعتها لأن تكون من آثار النوم. قامت وخطت بصعوبة نحو الحمام، وهي ترتكن على قطع الأثاث لكي لا ترتطم بها، «واحد. اثنين. ثلاثة.. أربعة. خمسة..» تتوالى الأرقام في ذهنها تحصيلها في صمت، ثم فتحت صنبور المياه وراحت تغسل وجهها وعينيها عدة مرات، دون أن تدرك النتيجة المرجوة. لم تزل تلك الغشاوة تتراقص أمام عينيها لا تستطيع أن تصنع شيئاً حيالها، وهي مسكينة، وحيدة، ولا تدري ماذا ينبغي لها أن تفعل. جففت وجهها ورجعت بمشقة إلى غرفتها، «خمستاشر.. ستاشر..» ثم جلست عند حافة السرير وشخصت نحو صورة العذراء المعلقة بمواجهتها، ولكنها لم تقدر أن تبصرها. أدركت أن الأمر خطير فانسكبت دموع ساخنة من مقلتيها ورقدت على ظهرها مستسلمة وبدأت تصلي بمخدعها.. ساعات وساعات من الوحدة القاتلة والصلاة العميقة، تقوم بعدها لتجلس بالسرير وتحاول أن تتبين الأشياء من حولها دون جدوى. وبالصدفة جاءت «نرجس» لتطمئن عليها.

فحصها الطبيب الإخصائي الذي اصطحبها إليه سليمان، ولكنه قال آسفًا أن هناك نزيلاً بقاع العين نتيجة لانفصال الشبكية، وبأنها تحتاج إلى معجزة حتى يعود إليها بصرها، لو لم تسافر للخارج لتجري عملية بأشعة الليزر. أما

هي فأبت أن تسافر، بل اختارت - وملؤها الإيمان - أن تنتظر وسط ظلامها حتى تحدث تلك المعجزة التي تكلم عنها الطبيب..

بعد مغيب الشمس تنكسر حدة الحرارة قليلاً وتطير النسائم المحملة برائحة البحر وتحطُّ فوق كل شباك وكل شرفة بمدينة الإسكندرية، فيكون وصولها لأهلها بمثابة الإشارة التي قبعوا ببيوتهم يقللون انتظاراً لمجيئها، فينطلق الرجال نحو المقاهي والكاзиноهات المنتشرة عند كل ناصية شارع، والنساء إلى النوافذ والشرفات للتزاور مع قريناتهن من الجارات عبر الشوارع والطرقات، وليبدأ زحف قلة من الرجال أيضاً، في مدى الأعوام القليلة الماضية، تتزايد أعدادهم باضطراد عند كل مساء، يسعون إلى المساجد المنتشرة في كل أنحاء المدينة بلحاهم الكثة، وطواقيم البيضاء، وجلابيبهم القصار، وسراويلهم الفضفاضة، تحفُّ شبابهم بأسفلت الطريق في حفيف يصل بهم إلى صلاة العشاء..

ولكن في ذلك المساء بالذات لم يَحْطُ «محمد البوري» مع باقي الإخوة نحو مسجد العطارين كما اعتاد، ولم يَقْضِ أمسيته يستكمل أحاديثه مع ابنه «محمد» العائد من بلاد الكفر والعردة، الذي كان قد خرج بصحبة أخيه مصطفى. وتَعَجَّب من ابنه هذا بنظرته الغربية وأفكاره المريبة حول المساواة بين المسلم

وغير المسلم، وبين الرجل والمرأة، التي عاد بها من هناك وكأن «أمريكا» هي التي ابتدعت العدل والمساواة بين الناس، وليس كتاب الله وأقوال الرسول الكريم. وعلى العموم فهو لم يفعل هذا ولا ذاك، وإنما وضع هندامه وخضب لحيته واستعد لقدم «ديدو» ليصاحبه في سيارة التاكسي التي يمتلكها للقاء الدكتور رشاد بالإبراهيمية عند «جماعة الفكر الحر»! جماعة الملاحدة وأعداء الإسلام التي يتزعمها نصراني من أب يهودي نجس!

«آه يا بلد يستحق الحرق!»..

في الطريق ذكّرهُ «ديدو» بخاتم سليمان، مؤكدًا له مجددًا حلمه في أن يحصل الإخوة عليه فيكون لهم ما شاءوا من تحقيق الآمال وينالون المراد بإذن الله. فابتسم الشيخ وسأله عما يرتئي تحقيقه لو امتلك ذلك الخاتم، فأجابه الرجل ونظره منطلق نحو الأفق، بأن لا نهاية لما يمكن أن يصلوا إليه لو تراوجت الإرادة الحديدية مع إيمانهم بصدق مطلبهم وقوة إيمانهم بهدفهم في إرساء حكم الله - جلّ جلاله - على الأرض، مع تلك القوة الكامنة التي يشهد لها أصحاب الخاتم المسحور، فلن يكون لمرادهم حدود، ولن يقف في طريق تحقيقه واقف، وكل شيء بإذن الله تعالى. انفرجت أساريره لما شهد بنفسه مدى إيمان «ديدو» بنبل مقصدهم وحماسه المتفانية في سبيل تحقيقه. أما عن الدكتور رشاد فلقد طلب الشيخ منه المهادنة في حوار معه، إذ كان

الرجل مشهودًا له بالبراعة والحدق في تسديد ضرباته، بل وحذره أيما تحذير من استخدام العنف بأنواعه، مذكرًا إياه بأن الغرض من اللقاء لا يعدو أن يكون بمثابة دعوة للرجل للعودة إلى الإيمان الصحيح، ولا يتأتى ذلك بغير المحاوراة التي هي أحسن، وعلى أي حال فعيون الإعلام ورجاله المتابعين لحساب السلطة مسلطة عليهم في هذه الأيام، وبات عليهم إذن أن يتلمسوا كل الحذر فيما يقترفون لئلا يخسروا الخطوات التي كانوا قد نجحوا بالفعل في الوصول إليها.. ابتسم «ديدو» له وهزَّ رأسه ولكنه لم يجب..

لما وصلا إلى هناك استقبلهما أولاً صاحب القهوة التي تحتل الدور الأرضي محيياً، ثم في قاعة الندوة المرتقبة لاقاهما سليمان مرحباً، وعرفهما بنفسه وبقية الحاضرين فأدركا - لقلة عددهم - أنهما قد وصلا مبكرًا. وطافت أعينهما بأنحاء المكان وبالموجودين، شقة عادية عالية السقف تتدلي من وسطه لمبة كهربائية وحيدة تهتز برفق بحركة بندولية رقيقة بفعل نسائم الهواء القادمة من الشرفة المفتوحة على الناحية الأخرى من المنبر المرتفع المعدُّ للمحاضرة، في مقابلة عدد كبير من الكراسي الخشبية تشبه تلك التي امتلأ بها المقهى من تحتها بالدور الأرضي. قاعة بسيطة لا تزينها صور أو شعارات مكتوبة، مطلية حوائطها بلون باهت يميل للبياض، وتفوح من المكان رائحة هي مزيج من الرطوبة ومبيد للحشرات تتميز به الشقق المغلقة أغلب الوقت.

استأذن الشيخ ليذهب لدورة المياه قبل أن تبدأ المحاضرة، بينما استمر الحضور في التسرب إلى القاعة، ولما عاد، وجد «محمد» و«مصطفى» ابنه جالسين بصحبة شاب ثالث، فاندesh لمجيئها كما فوجئاً أيضاً به لما لمحاه خارجاً من باب الحمام، فهبا لتحيته معاً، هبة مباغته وقفت بهما متسمرين وكأنهما جنديان فوجئاً بقدوم قائدهما للمكان، فلم تنقصهما سوى التحية العسكرية..

- «إيه إيلي جابكم هنا؟» تساءل مكفهرًا..

- «أبدأ. جايين مع (مراد) صاحبي نسمع محاضرة (الدكتور رشاد) الشهرية، علشان (محمد) أخويا يشوف بنفسه إن بلدنا فيها ناس بتعرف تفكر برضه. وحضرتك؟ أنا أول مرة أشوف حضرتك هنا!» أجابه «مصطفى» متلعثمًا وقد رسم فوق شفثيه ابتسامة متزنة محايدة. انتهر الشيخ المناسبة فنأدى سليمان مقدمًا إياهما:

- «محمد ومصطفى ولادي، وصاحبهم مراد» قال الشيخ متبسماً بلهجة واثقة معبراً عن صدق نواياه في الحضور الليلة، ومرسلاً برسالة لديدو أن يلتزم بما كان قد كلمه به في الطريق..

- «آه أهلاً وسهلاً، أهلاً بيك يا أستاذ مراد، أهلاً بكم يا جماعة شرفتونا، الدكتور رشاد في الطريق، وزمانه على وصول في أى لحظة» أجاب سليمان الذي بدا وكأنه يعرف «مراد» و«مصطفى» من قبل..

كانت المقاعد قد امتلأت كلها تقريباً حين دخل إلى القاعة الدكتور «رشاد فكري» الذي حيا الحاضرين جميعاً وتقدم إلى المنبر، ثم أخرج عددًا من الأوراق من حقيبة جلدية كان يحملها ورتبها مستعيناً بنظارة للقراءة سحبها من جيب قميصه. تنحنح وبدأ أنه يستعد لبدء المحاضرة حين دلف إلى القاعة أربعة أو خمس رجال يتقدمهم الرجل المتأنق دائماً بشاربه المرسوم ونظارته الذهبية «لطفى حسنين» الذي ملأ المكان فجأة بضحكته الواسعة وتقدم مباشرة نحو المنبر وسلم على الدكتور رشاد، ثم اتجه ناحية الشيخ محمد وديدو ومرّ على سليمان مصافحاً إياهم بكلتا يديه في حميمية مصطنعة. ارتبك «سليمان» قليلاً لما رآه، ولكنه عالج ارتبাকে فوراً بأن أرسل طالباً مدداً من المقاعد من المقهى، وفي خلال دقائق قليلة كانت العيون بالقاعة الممتلئة عن آخرها شاخصة بترقب إلى الدكتور رشاد فكري..

مال «ديدو» على أذن الشيخ هامساً:

- «الدكتور رشاد هو إليّ لابس الخاتم الليلة!». فهزّ الشيخ رأسه مؤمناً

على كلامه..

في كلمات موجزة قدم الدكتور محاضراته عن (الدولة الدينية) مقدماً إياها بالقول المأثور عن عمر بن الخطاب «عدلت فَأَمِنْتُ فَنِمْتُ يا عمر» معلقاً بعدها مباشرة بأن «عمر» نفسه مات مقتولاً بالمسجد بينما كان يصلي، ناقضاً

بمصرعه مبدأ أن العدل في الحكم كان كافياً لأن يسود الأمان. ثم ذهب يقول إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة - المضروب المثل بعهدهم كأروع عهود الدولة الإسلامية - قد اغتيلوا لسبب أو لآخر من قبل أن تمرّ ثلاثون عاماً على موت الرسول، وفي أزهى عصور الإسلام. وهنا تملل الشيخ محمد في مقعده، الأمر الذي لاحظته المحاضر المتمرس، فأضاف بأن ما يعرضه اليوم إنما هو حديث عن الإسلام السياسي وليس عن الدين الإسلامي، والصحابة بشر غير معصومين من الخطأ. ولأن البشر جميعاً خطّاءون بطبعهم، فلقد قصد أن يبين أنه كما أخطأ القادة من قبلهم وأخطأ من بعدهم أيضاً بتمحيص صفحات التاريخ، فلم يتحقق المجتمع المثالي الذي تنادي به جميع الأديان السماوية، على مدى التاريخ الإنساني عامة، لا في عصر سيطرة الكنيسة في أوروبا، ولا على عهد الخلافة الإسلامية وحتى في أوج عهدها، على الرغم مما يُروّج له قادة الحركة الإسلامية بمصر، وشتى البلدان الإسلامية، بين أتباعهم من الشباب اليوم. ثم أقرّ ثانية بأنه لم يقصد سوءاً تجاه الإسلام كدين يدعو إلى العدل والتسامح وينظم أمور التعايش ما بين الناس، ولكنه يدحض الدعوة لأن يتداخل هذا الدين في شئون السياسة والحكم اللذين من المفترض أن تتحكم فيهما قواعد سياسية مدنية، قابلة للتغيير بحسب الظروف المحلية والدولية، وأن مثل هذه الدعوة لحكم الدين وأهله لا تعدو

أن تكون خدعة يضحكون بها على عقول الدهماء والسذج، بل وأكثر من ذلك إساءة لحرمة الدين الإسلامي وتعاليمه السامية حينما يجرونه إلى مزبلة السياسة والأعيب السياسيين..

ثم ملم أوراقه في صمت بينما صفق له بعض المتحمسين لكلماته ومن بينهم الشاب «محمد محمد البوري» فيما انبرى أبوه ينظر إليه شزراً. ولكن الأب لم يكتف برد الفعل ذاك فحسب، بل وقف وقال مستنكراً:

- «يا دكتور رشاد كلامك ده خطير! أولاً لأنه مليء بالمغالطات، فيبقى إنت إيلي بتضحك على عقول السذج والدهماء» ونظر نحو ابنه، ثم أكمل:

- «وثانياً لأنك تنكر ضمناً الأحاديث الصحيحة إيلي بتقول لنا عن سيدنا عُمَر وإزاي كان فيه حادثتين مشهورتين لما اتكلم بداخل المسجد مع امرأة عن المهور، ومع رجل عن طول ثوبه بالنسبة لأثواب باقي المؤمنين. يعني سيدنا عُمَر كان يجمع بين المسجد كدار للعبادة، ومكان لإدارة شئون الحكم! إيه رأيي حضرتك بقى يا دكتور؟». وهنا قام محمد ابنه وقال مدافعاً:

- «بس الدكتور قال فعلاً إن الكلام ده ممكن يكون حصل، ولكن ده ما يمنعش إن سيدنا عُمَر برضه مات مقتول. يعنى النظام ده ما نفعش حتى أيام زمان وقت عصر الخلفاء الراشدين، فبالطبع مش ممكن ينفع دلوقت!»

- «ما نفعش ازاى يا أستاذ محمد يا مثقف؟ إنت برضه مصدق الكلام ده؟ طيب لما هو ما نفعش أمال الدولة الإسلامية والحضارة المهولة إلی امتدت من الصين لإسبانيا دي كانت إیه؟ صُدفة يعني ولا غلطة مطبعية؟» وهنا انتهز الفرصة الدكتور رشاد ليعقب:

- «يا شيخ محمد، الإمبراطورية الإسلامية واقع تاريخي ما ينكرهوش حد، ولكن دعامة الإمبراطورية دي كانت جيش قوي ومنظم وقادة عسكريين مش أئمة ولا مَوَالِي. ومع ذلك إیه رأيك في إلی عمله الخليفة (المنصور) مع (الإمام أبي حنيفة) من سجنه وضربه بالكراييج وقتله بالسم وهو شيخ عنده سبعين سنة علشان رفض إنه يكون قاضي من رجالة الخليفة، وبعدين مع (الإمام مالك) لما أمر رجالته بضربه بالكراييج وجره لما انخلع كتفه. و(الإمام الشافعي) إلی مات من الضرب بالنبايت هنا في مصر في المسجد يا شيخ محمد.. وأخيرًا (الإمام ابن حنبل) إلی اختلف مع الخليفة (المأمون) ومن بعده (المعتصم) عن كون القرآن مخلوق ولا مُنزل، فاتجر جر على ظهر حمار لحد بغداد وبعدين اتسجن وانضرب واتهان، وبعدين خطوه في حبس منفرد سنتين ونص، وده في عز مجد الدولة العباسية إلی كنت بتحكي عن أعجافها لابنك يا شيخ محمد. وده إلی حصل للأئمة الأربعة الكبار، ولغيرهم من المفكرين وللشعراء، وفي العصر الممجد العظيم، فما بالك باللي ممكن يحصل للعامة، وفي عصرنا المثلّ على عينه ده!»

- «أديك قلتها يا دكتور!.. عصرنا المتيل ده بقى عايزين نغيره بحكم الله بدال حكم الناس إالي مش نافع ده» وهنا تدخل لأول مرة «لطفى حسين» لما شعر أن الموضوع أصبح يخصه الآن فوقف وقال:

- «حكم الله أكثر من كده إيه يا شيخ محمد؟ مش الرئيس برضه طرح الاستفتاء على الشعب الشهر إالي فات، وغير الدستور علشان تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع؟ ولا الشريعة دي مش هي برضه بتاعة قال الله وقال الرسول ولا إيه؟». فوقف «ديدو» فاردًا صدره وقال:

- «إحنا ما تعرفناش بالباشا! مش نتعرف في الأول وبعدين نتناقش؟» وهنا قام «سليمان» متدخلًا بصفته مدير الندوة قبل أن تنفجر المناقشة إلى ما لا يحمد عقباه، فوقف بمواجهة الحضور جميعًا ودارت عيناه على كل منهم قائلاً:

- «إحنا بنشكر الدكتور رشاد فكري على المحاضرة القيّمة، وبنشكر الحضور جميعًا على حسن الاستماع، وحسن النقاش بعد انتهاء المحاضرة، وبندعوكم جميعًا تشرّفونا هنا كل إسبوع، أو على الأقل مرة في الشهر (ثاني خميس) في يوم محاضرة الدكتور رشاد، ودلوقت أحب أقول لكم تصبّحوا على خير»..

قام كل الحضور وسط همهماتهم ودحرجات أرجل المقاعد فوق البلاط،
وشرعوا يغادرون القاعة تباغاً وهم يتساءلون عمّن فاز بالمعركة في هذه
الليلة..

أما «سليمان» والدكتور «رشاد فكري» فبقيا وحدهما، واتخذا كرسيين
بالشرفة وأخذا يدخنان في صمت، بينما تصاعدت إلى أذنيهما الضوضاء
القادمة من المقهى لا تكلّ أو تهدأ مهما مضت بها ساعات الليل وتوالت..



الفصل السادس والعشرون

حلّ الصيف ثم مضى دون أن يشعر أحد بطعم له، فقد ساد الهم كالهواء ما بين الناس، وعمّ القلق وعدم الاستقرار، وملأ الخلق الشوارع يهيمون كالمساطيل ينقبون عن أقرب غرزة ليستزيدوا منها سطلاً. انتشر رجال الشرطة والمخبرون المتخفون في ثياب مدنية، ورجال الأمن، ورجال المخابرات، بين صفوف الناس حتى بدوا وكأنهم فاقوا أعداد الذين كانوا مضطلعين أصلاً بمراقبتهم. وبالرغم من استمالة الحكومة الواضح للتيار الإسلامي إلا أنه انتشرت أفكار تكفيرية ملأت الأذان أطلت من كل صوب وناحية، من المساجد، والزوايا، والصحف القومية، والتلفزيون، والراديو، وعلى المقاهي تنطلق من حناجر العاملين العائدين لإمضاء إجازاتهم من دول النفط، وردّت السلطة ردّاً عنيفاً في شهر سبتمبر، عندما أصدر الرئيس السادات أمراً باعتقال المئات من قيادات المصريين من مختلف الأطياف وفي شتى المواقع. وصدق حلم «إيلين» بالعدراء الباكية بعد عزل البابا أيضاً، وساد الخوف جنبات القلوب من جديد مسترجعاً شعور المصريين خلال

السنوات التي تلت هزيمة ١٩٦٧. واستمر تصاعد ذلك التوتر بين الحكومة، وبين التيار الإسلامي المستعر، وبين عامة الناس، حتى بدا البلد وكأنه على شفا حرب أهلية، فسار الخلق في الشوارع يلتفتون خلفهم، وغرقت البسمة والنكتة والضحكة المجلجلة في بحر من الوجوم..

أعاد الدكتور رشاد الخاتم لسليمان رغم إلحاحه عليه لأن يقيه معه ولو لفترة وجيزة ريشما يهدأ الحال، قائلاً له: «بلاش كلام فارغ»!..

أما «سليمان» فلقد ازداد نفوره - من بعد تلك المحاضرة - من السياسة والسياسيين، فلقد تطورت المناقشة أمام عينيه وتصاعدت حدتها بسرعة مذهلة، حتى إنه خشي أن تصل إلى حد الاعتداء الجسدي، لولا أنه نجح في التدخل في الوقت المناسب لينهيها. ما أجمل الفلسفة! وما أجمل النساء! بل ما أجمل «بنهار» بين كل النساء!! استغرق كلية في علاقته بها حتى إنه بات ينتظر يوم الثلاثاء بفارغ الصبر، وكانت هي كذلك تبادله هياماً بهيام. اكتشف أنها كانت مثله تستمتع بالأغاني الفرنسية، فصار يلتصق يوم الأحد - يوم إجازته من التدريس - بجوار الراديو، يسجل من البرنامج الأوروبي شريط كاسيت يهديه إليها يوم الثلاثاء، فيستمعان إليه وهما يمارسان الحب بفندق «سويس هوتيل» تحت كنف صديقتهما مدام سوزانا! ولكنه دائماً ما كان يشعر بأنه مُراقب عند ذهابه كل يوم الثلاثاء، فكان يتعمد أن يصف سيارته بمكان

مختلف في كل مرة، وأن يتسكع - ولو قليلاً - أمام واجهات المتاجر المجاورة، حتى يطمئن إلى أن أحداً لا يتبعه، ثم يدلف مسرعاً بعد أن يطمئن، فتتلقاه مدام سوزانا بابتسامتها الواسعة، وصدرها الضخم يهتز فرحاً حين تقوم من فوق كرسيها لتضع قبلة على وجنته قبل أن تعطيه مفتاح الغرفة رقم ثمانية. وفي الثلاثاء الأخير من سبتمبر - وحين كانا يستعدان للرحيل عن عش حبهما - نبهها سليمان أن الثلاثاء القادم سوف يوافق السادس من أكتوبر، فستعطل خلاله المدارس ولذا فيمكنهما أن يتلاقيا منذ الصباح ليمضيا اليوم بطوله معاً، فوافقت هي على الفور..

وفعلاً التقيا بعدها بأسبوع في العاشرة وتناولوا إفطاراً سويسرياً شهياً بحجرة الطعام بالفندق، أتبعاه بفنجانين من القهوة، انصرفا بعدها إلى غرفتهما. كان لتلك السويكات الإضافية مفعول السحر بينهما، فلم يتعجلا شيئاً وإنما تحابا بتأنٍ وتروٍّ لم يختبراه من قبل. ضَمَّها إلى صدره وهو يقبل شفيتها الشهيتين، بينما تأوّهت هي، منتشية من ملمس جسده يضغط برجولته نحوها. وفجأة طُرق باب الغرفة بقوة طرقات متتابعة، فارتعب العاشقان وتجمّدا بمكانهما عاريين فوق السرير، حتى جاءهما صوت مدام سوزانا يصرخ ملتاناً:

- «إلحق يا حبيبي! موتوا السادات بالرصاص! أنا شفته بعيني وهم ييموتوه! أنا شفته ع التلفزيون! موتوا السادات! موتوا السادات!!».

هَبَّ سليمان منتفضاً من السرير، وخلال ثوانٍ قليلة كان قد ارتدى قميصه وسرواله وجلس بالمقعد المجاور للسرير يضع جوربه في حين نهضت «بنهار» متكاسلة، مثقلة بالنشوى والغرام. ارتكزت علي مرفقيها رافعة جذعها فوق سطح الفراش الناعم، وبرز صدرها النافذ المتشي بالحب أمامها، وسألت بلهجة ساخرة:

- «هم مين دول يا خويا إيلي موتوه؟ الست العجوزة دي باينها بتخرف».

- «أنا عارف بقى! لما نروح نشوف! ده النهارده كمان فيه العرض العسكري، يبقوا موتوه إزاي بس؟». في لحظة كان سليمان بالبهو يتابع التلفزيون مع المدام والطاهي الذي حضر من المطبخ ليتابع الأحداث، وعلم من مدام سوزانا أنهما كانا النزليين الوحيدين بالفندق. لقد أطلقوا الرصاص على الرئيس فعلاً كما قالت المدام! ولكن من ذا الذي يجرؤ؟. دقائق وخرجت بنهار من الغرفة ولاقتهم بابتسامة متسائلة، فأبلغها سليمان بما حدث، ولكنها مع ذلك لم تُبَدِ انفعالاً بالأحداث، فقد كانت أفكارها تدور في مجرة كوكب آخر. مرت الدقائق ثقيلة، وبينما جلس الجميع بأطراف الكراسي الوثيرة

المتناثرة حول جهاز التلفزيون بالبهو، يتابعون الأحداث بشغف، استلقت هي بظهرها على الأريكة مسترخية وهي تتأمل طلاء أظافرهما في استسلام.. وفجأة انفتح الباب الرئيسي ودلف «لطفى حسنين» إلى الداخل وقد اكفهر وجهه، ثم ألقى بنظرة خاطفة إلى كل الموجودين يتفحص وجوههم، وبدأ لسليمان أنه قد يكون أوماً برأسه يحويه، ولكنه توجه مباشرة نحو بنهار ومال بجذعه فوق ظهر كرسيها هامساً لها، إنها بصوت مسموع تبينه الجميع، وكأنه لا يعرف الهمس:

- «يللا بينا يا بنهار. إحنا لازم ننزل مصر فوراً، علشان نشوف هانعمل إيه في المصيبة دي!» ومدّ يمينه فوق ذراعها وأمسكه ليحثها على القيام استعداداً للانصراف، فاستجابت بدورها إليه نافرة وقامت، ثم بهدوء كانت تتقدمه ناحية الباب الزجاجي المطل على الشارع الرئيسي. بينما كان يسير وراءها التفت لطفى لسليمان وحدجه بنظرة لم يفهم الأخير مكنونها، قائلاً:

- «هاكلملك في التلفون أول ما ارجع»..

انتظرت حتى غادرا الفندق ثم تساءلت مدام سوزانا:

- «مين الراحل الغريب ده؟»

- «ده جوزها!»

ابتسم قليلاً، وأما هي فأطلقت ضحكة ملعلة لا تتناسب أبداً مع سنّها،
والطاهي رفع كفه فوق فمه بينما رقصت عيناه ضاحكتين.

شعرت «إيلين» أنّه نال الجزاء الذي كان يستحقّه بعد ما فعل بالبلد
وبرئيس الكنيسة، ولكنها مع ذلك لم تبد فرحاً بما حدث. لم تنزل متشاغلة عن
تقلبات الواقع من حولها بالصلاة والصوم من أجل أن يحقق لها الله الشفاء،
بشفاعات القديسين التي كانت تتضرع إليهم ليلاً ونهاراً، بل وبدأت تناغي
داود الذي لم تعد تستطيع أن تقرأ أشعاره بعد أن فقدت بصرها، وإن كانت
قد حفظت بعضها من تكرار قراءتها لها، ليتشفع لها أيضاً!.



سأله وهو يحشر حقيقته بالملابس والكتب ليرحل من جديد إذا كانت
فكرة ذبح أبنائه لم تنزل تراوده، فضحكا معاً إذ لم يجد الأب ما يردّ به على
ابنه، ولكن «محمد» اعترف له بأن ذلك الخطر المفزع لم يفارق كوايسه طوال
السنين. استعطفه للمرة الألف أن يبقى، فابتسم الابن - للمرة الألف أيضاً -
ثم أشار من خلال النافذة المفتوحة نحو السماء وقال: «سأظل أتعلم هناك
حتى أفهم ماذا يريد مني»، وأشار بإصبعه لأعلى، وإذا عرفت أنه يريدني
أن أعود سأعود، ولكن ليس قبل أن أعرف. سأله بدوره لو كان يعتقد أن
الدكتور رشاد بمثل هذا السوء، فتفكر قليلاً ثم أجاب: «بل وأكثر!»، حاول

أن يستزيده ولكنه لم يستطع، فترك الموضوع وشأنه. شدَّ بقبضته القوية حول مقبض الحقيبة المترعة، وانتزعها انتزاعًا من فوق السرير ثم وضعها بجانبه. ألقى بنفسه في حضن أبيه وقبض بيده القوية فوق رأس العجوز ثم مسح بكفه فوق فروة رأسه الصلعاء بحنان وحب، وقال والدموع تنساب:

- «خذ بالك من نفسك».

- «مع السلامة يا بني، لا إله إلا الله». فتردد محمد الابن إذ لم يكن قد اعتاد بعد تلك التحية الإسلامية الجديدة، ولكنه قال:

- «محمد رسول الله». في حين أنه لم يكن يقصد بقوله شيئًا، حيث كان في الواقع مشغولاً بفكرة واحدة وهي أنه ربما لن يرى أباه مجددًا من بعد اليوم. واصطحبه مصطفى وصديقه زيكو في سيارة الأخير الفيات ١٢٤ إلى القاهرة ليسافر من جديد ليلحق بأولى محاضرات دراسة الماجستير بجامعة «بيركلي» بكاليفورنيا.

حين عاد من القاهرة اتصل «لطفي» به فعلاً وطلب مقابلته، فدعاه سليمان للعشاء عند «أبو يوسف» السماك الشعبي الشهير، متجنبًا لقاءه في مكان راق تحسبًا للثورة التي يتوقع أن تعتريه فيفضحه صراخه المتوقع بين همس باقي الموجودين. صار موقفًا بأنه يعرف عن العلاقة بينه وبين «بنهار»

وإلا فلماذا يأتي إلى هذا الفندق بالذات في ذلك اليوم لبحث عنها ويصطحبها معه للقاهرة لو لم يكن يعلم بأمر لقاءاتها كل ثلاثاء؟ وإذن فشكوكه من أنه كان هناك من يتبعه إلى الفندق صحيحة، ومع ذلك تحيّر في أمره، إذ كيف يسكت عنهما طوال هذه المدة التي زادت عن عام الآن، لو كان يعلم عنهما كل تلك التفاصيل. ما يزال منشغلاً بكل هذه الأفكار وهو يقود سيارته في الطريق إلى المطعم بالمنشية، وسط وابل من السيارات تعج بها الشوارع وكأن رئيس الجمهورية لم يُغتَلْ منذ بضعة أيام، حين خطرت له فجأة فكرة أن تكون تلك العلاقة بينه وبين «بنهار» مُخطّطاً لها من قبلهما معاً، لسبب ما لا يدرك مغزاه الآن بدليل موقف الزوج المائع منهما، والسهولة الشديدة التي أوقع بها الزوجة في تلك العلاقة التي بدا «لطفي» وكأنه يدفعه تجاهها يوم سهرة ليلة شم النسيم بالعجمي. معقول؟ أيمن أن يدفع رجل بزوجه هكذا إلى أحضان رجل غريب؟ ومن أجل أي مقابل؟ لا بد له أن يعرف الليلة. وبحركة لا إرادية كانت أصابعه تعبت بخاتمه الفضي في حين كان يصفُ السيارة أمام المطعم.

لم يكن «لطفي» قد حضر بعد، حين وصل «سليمان»، فاختار هو منصدة بجوار نافذة زجاجية كبيرة تطل على الشارع المزدهم، وجلس يدخن سيجارة وعيناه تنتقلان ما بين المارة بالطريق وبين مدخل المطعم منتظراً دخول غريمه

في أي لحظة، بينما تصاعدت رائحة الشواء تملأ المكان. أخذ يفكر في شكله حين يجيء، هل سيكون متأنقاً كعادته؟ هل سيستقبله بوجوم أم سيلبس ضحكته المعهودة فوق قناعه حين تقع عليه عيناه؟ وكيف سيكون رد فعله هو تجاهه، وهل سيبادلله الجدة لو تحلى بها أو الشدة والعنف لو اختارها أسلوباً لمجابهته؟ مضت الدقائق بطيئة. نصف ساعة تأخير عن مواعده، بات مؤكداً أنه تعمد التأخير ليتلف أعصابه، ولكنه قرر أن يذهب إذا لم يظهر في خلال الخمس دقائق القادمة. قرّر ذلك وهو ينظر إلى ساعته، فلما رفع عينيه عنها إذا بـ «لظفي» واقف أمامه، فالتاع وكأنه عفريت تبدى له فجأة.

سحب الكرسي المقابل وجلس بمواجهته، وهو يقول بابتسامة:

- «آسف على التأخير، زحمة المرور اليومين دول بقت حاجة لا تطاق!»

چا كيت جلدي أسود وفانلة رمادية برقبة عالية، أنيق كعادته ولكن دون تكلف، وبسمة مريحة تملأ شذقيه، غير كل ما توقع، فأجاب:

- «فعلاً البلد زحمة وكأن الرئيس ما ماتش لسه ما بقالوش كام يوم! حاجة

غريبة جداً. فاكرو يوم ما مات عبد الناصر كانت الناس عاملة ازاى؟». قال

مجارياً له في الحديث وكأنه يؤجل سقوط القنبلة ولو حين:

- «الناس خلاص ما بقاش عندها دم! الراجل اللي كان راعبهم وكانم على

نفسهم وما خلاش حد يستجري يتنفس كده ولا كده، وجاب ذل الهزيمة

والاحتلال للبلد، كان حلو وجميل، والثاني إلي حارب وضحي بنفسه وراح
لحد إسرائيل علشان يرجع الأرض، ورجع الأحزاب، وسمح لكل كلب
يقف يقول رأييه، وحش وكُخَّة! لما نشوف بقى الرجل الجديد ده هايعمل
إيه.»

لم يشأ أن يستثيره أكثر بمناقشة سياسية يدرك عاقبتها فاكتفى بأن هز
رأسه أسفاً على ما آل إليه حال الشعب! ثم رفع يده منادياً الجارسون ليطلب
العشاء وهو يتساءل بينه وبين نفسه متى سيبدأ الكلام الذي من أجله التقيا
الليلة.

لم يكن يدري بأن الكلمات الذي تفوه بها «لطفى» كانت في صميم
الموضوع الذى من أجله جاء الليلة، بل والذي من أجله التقيا منذ أكثر من
عام في سهرة الحاج مراد العويقي، والتي كان قد أعد لها لفترة فاقت الستة
أشهر قبلها ليتسنى له أن يتقابل مع «سليمان داود عبد الملك» جاره القديم
بمحرم بك وصاحب الخاتم المسحور، فيستولي هو عليه قبل أن تصل إليه
أيادي الإسلاميين. وإمعاناً في المداراة قال له وهو يمضغ قطعة الكابوريا
التي اقتطعها لتوه:

- «أظن انت مش محتاج تاكل كابوريا زينا علشان (المسائل) تمشي!»
وضحك ضحكته الفاجرة. فرفع «سليمان» عينيه من فوق الطعام مبتسماً في
سداجة واضحة، وأجاب بإخلاص:

- «مش فاهم!»

- «يعني (المسائل) عندك شغالة لوحدها! إيلي عنده الخاتم بتاعك ده مش محتاج لكابوريا ولا غيره!» واستمر يضحك مقهقهًا وهو يغمس قطعة الخبز في صحن الطحينة بينهما. أدرك «سليمان» ما كان يرمي إليه فأوماً موافقًا باستسلام، ولكنه تساءل كالمراهق الذي ضبطه أبوه يخفي مجلة مشبوهة:

- «لكن انت عرفت مينين؟»

- «تاني يا سليمان بتسأل؟ أنا مش قلتلك إحنا عارفين كل حاجة عن كل واحد في البلد دي؟» فضحك سليمان من سذاجته وأضاف:

- «البلد دي بس؟» فانفجر الرجلان مقهقهين وهما يلتهمان قطع السمك المشوي والجمبري والسلطات، تتخللها تعليقات جنسية منتقاة هنا وهناك حتى انتهاء. وبعد فروغهما من العشاء، دفع سليمان الحساب حاسبًا الخسارة أقل بكثير مما كان يتوقع. اقترح لطفي عليه أن يذهبا إلى بار بمحطة الرمل ليدعوه بدوره إلى كأسين ليهضما بهما تلك الأكلة الشهية.

وفي البار ألقى «لطفي» بقنبلته بعد الكأس الثانية. قال أنه لم يستطع أن يمنع «بنهار» من التماذي في علاقتها به؛ لأنها كانت تهدده بأن تفضح عجزه لو حاول! وقد كان على قناعة بقدرتها أن تدمره، لو لم يتركها تفعل ما هدّته به؛ لأن عرقها التركي الذي اختبره من طول معاشرته لها، كان سيدفعها بكل

تأكيد لفعل أي شيء لو أرادت، حتى لو أدى ذلك إلى تحطيمه هو شخصيًا،
فأثر السكوت على التضحية بوضعه ومركزه الحساس، قبال الفضيحة التي
كانت قادرة لأن تودي به لو تكلمت «بنهار». منطق جبار وقصة محكمة
استطاع «لطفی» بدهائه أن يلقيها إليه فيجيب خلالها - بمذلة - عن تساؤلاته
التي لا بد وأن تكون قد تطرقت إليه، بل وتفتح الطريق أمامه ليلبغ منتهى
مبتغاه فسأله مستضعفًا:

- «سليمان يا خويا، أنا في عرضك! عاوز الخاتم بتاعك - ولو سلف -
وأنا مستعد أديك قصاده أي حاجة! قول لي إنت بس نفسك في إيه! شقه؟
عربية؟ وظيفة؟ شاليه ع البحر؟ أنا كل إلي عايزه منك مهلة شهر ولا اثنين
أرجع فيهم كرامتي، مش أكثر..» وكادت الدموع أن تنهمر من عينيه بينما
ضحك في نفسه من سداجة غريمه!..

ترقرق قلب «سليمان» حيال استعطافه له، وتبين له صدق حدسه عن
فحولة الرجل، يوم أن زاره لأول مرة بالعجمي في ليلة شم النسيم، ورأى
أنه لن يخسر كثيرًا لو استغنى عن الخاتم لشهر أو اثنين، في سبيل إنقاذ تلك
الأسرة المهددة بالانهايار. وشعر بالذنب لو كان انهارها سيحدث بسبب
أنانيته واستثثاره بمفعول الخاتم المسحور لنفسه، ثم ما قيمة شهرين أمام
صداقة قد تمتد العمر كله. لاحظ «لطفی» استغراقه في التفكير فتوسل إليه

أكثر أن يختار الهدية المناسبة لمثل ذاك الصنيع الذي لن ينساه له إلى الأبد.
تفكر «سليمان» في أنه يمتلك سيارة وشقة، فلاح الشاليه على البحر كأطيب
الخيارات!. ولكن ألم تحذره أمه من قبل من استهتاره بحق الخاتم الذي ورثه
عن أبيه داود، حينما كان قد أعاره لماجد البارودي؟ ولكن على أي حال لقد
أثبت لها الزمن خطأها، وها هو الخاتم معه الآن، وبإمكانه أن يساهم به في
إنقاذ أسرة من الانهيار، وهو لن يفقده إلى الأبد بل لشهرين أو ثلاثة على أكثر
تقدير. ثم إنه قد بدأ يشعر بالذنب لخيائته المستمرة لزوجته، آه. زوجته! نحى
بصورتها جانباً، وابتسم أخيراً لما طالعت صورته الشاليه على شاطئ البحر
الذي كان يعشقه.





الفصل السابع والعشرون

تلقته شمس الصباح حين بلغ الدرج المؤدي من مدخل العمارة وإلى رصيف الشارع، فرفع كفه أمام نظارته السمكة دَرْءًا لضيّها الساطع. وكعادته حيّا البواب القابع فوق الدكة إلى يمين الباب الرئيسي مستدفعًا بأشعة النهار الخريفية، فهبَّ «عم أحمد» مسرعًا لالتقاط الحقيبة الجلدية من الدكتور «رشاد فكري» ساعيًا لالتقاط الورقة من فئة الخمسة والعشرين قرشًا نظير تلميع سيارته المتهالكة وحمل حقيبته لدقيقتين، من لحظة خروجه من بوابة العمارة وحتى يفحص قامته الفارعة وكرشه الممتلئ إلى داخل السيارة فيناوله الإتاوة في مقابل الحقيبة. هكذا كان الاتفاق الضمني المعتاد بطول السنين، إلا أن اليوم بالذات حدث أمر جليل أثر على استمراريته بشكل ملحوظ.

انطلقت سيارة تاكسي بسرعة عالية لا تتناسب مع حجم الشارع الجانبي الذي تقوم على أحد جانبيه العمارة، ثم أبطأت فجأة أمام المدخل، وخلال ثوانٍ برز رجلان ملثمان من نافذتي السيارة على الجانب الأيمن منها، وقد نتأت تحت إبط كل منهما ماسورة معدنية قصيرة. انتزعت الضوضاء التي

أحدثتها العربة انتباه الدكتور رشاد وعم أحمد، فانقطعت بسببه تواترات أحداث صباحهما المعهودة، متأملين بفضول ذلك المشهد المتصاعدة أحداثه العجيبة بسرعة مضطردة أمام أعينهما.

وما زاد الموقف غرابة أن الرجلين بدأ فجأة يصرخان في نفس الوقت، متزامنين في نداء «لا إله إلا الله. لا إله إلا الله..»، ومع ذلك فلقد أدى صراخهما المبالغ فيه، إلى جانب الضوضاء المفزعة التي سببها محرك السيارة التي استقلوها وصغير عجلاتها فوق الأسفلت، إلى أن يجد رشاد وأحمد صعوبة بالغة في فهم ما كانا يصرخان به أو استيعاب المراد من وراء كل ذلك. بل وزاد الطين بلة أن الرجلين لم يمهلأهما المهلة الكافية للتأمل فيما يجري من حولهما في ذلك الصباح، فإلى جانب صراخهما المفزع، أرسلوا وأبلاً من المقدوفات النارية الحرارة باتجاه الرجلين، اخترقت جسديهما اختراقاً، ولم يستغرق المشهد كله سوى بضع ثوانٍ سقطا من بعدها متبعثرين فوق الدرج، مختلطة دماؤهما بالأوراق المتناثرة من باطن الحقيرة الجلدية، من قبل أن يدرك أحدهما أيّ مغزى أو يستنبط معنى وراء كل تلك الأحداث التي عصفت بيومهما في ذلك الصباح.

قال «ديدو» للشيخ «محمد البوري»: لم يبق سوى أن نحصل على خاتم سليمان، سنراقبه حتى نتحينَّ الفرصة المناسبة للحصول عليه، دون أن نثير عيون رجال الأمن. لقد انتهى زمن الإعداد والتخطيط. الشارع المصري بات مستعدًّا اليوم أكثر من أي وقت مضى لتنفيذ أقوال الكتاب الحكيم بحذافيرها. وهي على أي حال أحكام الله عزَّ وجلَّ وما في وسعنا إلا الإذعان لأمره سبحانه العزيز الحكيم. وليس الموالى الفرس بأفضل منَّا على أي حال وها هم قد بدَّلوا أحكام الطاغوت وأعوانه بحكم الله القوي الجبار، ودبوا بأصابعهم في عيون الغُرب الكافر، فلم يستطع أو حتى يجروا أحد في أن يردهم عن طريق الحق، وساروا في سبيلهم المستقيم، ومن ورائهم شعبهم، مُغلين كلمة خالقهم فوق كل الكلام.

سار «سليمان» بطول طريق الكورنيش من شاطئ «كليوباتره» إلى شاطئ «ميامي». استغرق المشوار ثلاث ساعات كاملة، أمضاها متأملًا زُرقة البحر الممتدة وأواجه المنحسرة عند حدود مدينته العريقة الإسكندرية، تداعب خصلات شعره نسائم الهواء البحري المنعشة في ذلك الصباح الخريفي. لم يكفَّ ذهنه عن العودة لتفصيلات تلك الليلة التي أمضاها بصحبة «لطفى حسنين»، وتساءل مرارًا إن كان ما يفعله هو الصواب حين وافق على

الشروع في تلك المقايضة. تفكر في رد فعل أمه لو سمعت بها، ولكنه قرر ألا يزيد متاعبها بمفاتحتها بتفصيلاتها، فهي ما تزال تعاني من انطفاء نور عينيها وتمضي ساعات طوالاً متمتمة بالأدعية والصلوات دون انقطاع، أما «أمني» فكانت كعادتها منشغلة عنه منغمسة في تفاصيل حياتها المملّة. وتخيل مجلسه وسط أولاده في شرفة الشاليه وهم يلعبون من حوله فيما يتأمل هو في تلك القطعة من البحر الممتدة أمام الشاليه إذا ما صار يمتلكها لنفسه، فارتاح لذلك الخاطر وانفجرت أساريره، فسحب نفساً عميقاً من الهواء الساحلي النقي وتشجع على الاستمرار في طريقه حتى نهايته.

عند مدخل «شاطئ ميامي» توقّف قليلاً متأملاً روعة الرمال الذهبية الممتدة حتى مياه البحر الهادئة بفعل تلك الصخرة الهائلة القابعة بشموخ وسط المياه تحرس الشاطئ منذ بداية الأزمان. وتذكّر سليمان بفرح ذلك اليوم الذي كان أبوه «داود» قد اصطحبهم فيه إلى ذات الشاطئ، فأضيا يوماً لن ينسى تفصيلات أحداثه ما دام حياً. ودلف بين صفّ الكبائن المصطفة إلى يساره كما وصف له «لظفي». وجد نفسه أمام منظر خلّاب يأخذ العقل، وكأنه مرقّ خلال بوابة مسحورة أفضت به من الواقع إلى عالم من خيال. صفّ من الكبائن المرصوص في شكل دائري يلتف لليمين تارة ولليسار تارة، يحفّ بمقدمتها، أمام أسوار شرفاتها، ممشى مبلط ينتهي بسور حجري

قصير ممتدّ إلى نهاية المشى. وما بعد السور كانت تقبع كتلة صخرية هائلة تمتد هابطة في تدريج متعرج حتى تتلاقى عند قاعها بأمواج البحر الثائرة، أي أن الكبان والمشى إزاءها كانت قد قامت عند قمة ربوة صخرية تحتضن مياه البحر قاعدتها، بينما تتوّج الشاليهات قمته. لم يكن هناك أثر لمخلوق في هذا الوقت من العام مما أضفى على المكان سحرًا مضاعفًا، واستمر سليمان في مسيره وحتى نهاية المشى. وعند الشاليه قبل الأخير لمح «لطفى» جالسًا في انتظاره، وبُوغت عند وصوله بوجود «بنهار» جالسة بمواجهته، وإن حال سُور الشاليه التي كانت قد استندت بظهرها إليه من أن يبصرها عن بُعد. حيّاهما معًا ثم جلس بمقعدٍ ما بينهما وقد شعر بآلام طول المسير وقد التفّ بعضلات رجله. سأله لو كان يود أن يشرب بعض الشاي الذي كانت قد جاءت به معها في قنينة حافظة للحرارة، فشكرها مؤمنًا، وأخذ يحتسي الشاي بتلذذ من الكوب البلاستيك الذي ناولته إياه. ساد صمت بين ثلاثتهم لا يدري أيهم كيف يبدأ الحديث، وإن استرق كل منهم نظرات خاطفة نحو الآخرين، حتى بدّد «لطفى» سحب الترقب المتراكمة:

- «إيه رأيك بقى يا سيدي؟».

- «جمال فوق الوصف» ردّ «سليمان» بنبرة واقعية. وتساءل لو كان هناك فعلاً أملٌ في أن يمتلك مثله تلك القطعة من الجنة أم أن الموضوع لا يعدو أن يكون مزاحًا!.

- «إنت جيت هنا قبل كده؟» سألت «بنهار» مشاركة في الحديث لتزيل حاجز الرهبة عنه.

- «في الحقيقة دي أول مرة» أجابها هو ولا يزال يرشف من كوب الشاي الساخن.

- «تبقى ماشفتش (بير مسعود) على كده!».

- «لأ. ما شفتهوش في الحقيقة!». إيه هو (بير مسعود) ده يا بنهار؟. نطق باسمها دون ألقاب هكذا بعد أن انكشفت أوراق اللعبة أمام الجميع، أو على الأقل هكذا ظنّ سليمان.

فقامت المرأة وتبعها الرجلان بتلقائية، وخطت إلى خارج الشاليه ورافقاها ومازالا يحملان كوبي الشاي في أيديهما، وعبروا الممشى المبلط، ثم برشاقة وثبت هي بخطوة علوية مرتقية السور الحجري فإذا بها تقف فوقه فتبعاً أثرها، ثم قفزت ثانية فهبطت على سطح الكتلة الصخرية فقفزا مثلها. تقدّمت بخطوات حذرة فوق السطح الصخري غير المستوي بتتوأت المدببة وهما يتبعانها حتى وصلت إلى فتحة في وسط الصخر محاطة بسور حجري وقالت بنبرة منتصرة:

- «بير مسعود!» وهي تشير نحو عمق الفتحة.

تبعه «ديدو» واثنان من رجاله في سيارته التاكسي لمراقبته بطول مسيره بطريق الكورنيش وحتى دخل إلى الشاطئ، فصَفُّوا السيارة ولاحقوه من عند رصيف الكورنيش حتى اختفى داخل إحدى الكبائن، فوثبوا حالاً متخطين سور الطريق، ثم قفزوا إلى سقف كابينة مجاورة، ومنه تسلقوا الحائط الهابط بين المبنى وسور الكورنيش المرتفع عن مستوى صَفِّ الكبائن حتى وصلوا للأرض خلف الكابينة التي كان قد اختفى داخلها. أبصر سليمان يتجه مع رفقائه ناحية «بير مسعود»، ولكن منْ يكون هذا؟ «لطفني حسنين البصري»، لا بد أنه وراء الخاتم المسحور أيضاً. هيهات أن يحصل عليه كلب من كلاب السلطة، لا بد له أن يعبر أولاً فوق جثتي، تَلَفَّت لرجاله بمعنى انتظروا أن أعطيكم أنا إشارة البدء. وبقوا في مخبئهم خلف الكابينة متربصين.



بئر بعمق ثلاثة أو أربعة أمتار في وسط الكتلة الصخرية لا يتبدى قاعه إذ غطته مياه البحر، وكانت المياه تندفع إليه في فوران متتابع كل بضع ثوانٍ فترتفع نسبتها بقاعه، ثم تعود وتنحدر من جديد لتكشف عن نتوءات صخرية مغطاة بالأعشاب البحرية، لا تلبث أن تختفي من جديد في فورة مزبدة قادمة ثانية لتغطيها، وهكذا في تتابع مثير من عُلوٍّ وهبوط. قالت «بنهار» إن قاع البئر متصل بالبحر الكبير عبر قناة ممتدة أسفل الكتلة الصخرية الهائلة،

لذا فالأمواج المنكسرة عند حافة الصخرة هناك تملأ القناة حتى تمتلئ البئر بالمياه، ولما تنحسر الأمواج ينخفض مستوى مياه البئر بدوره. وأضافت: إن الأطفال والشباب يلتفون عادة حول البئر في موسم الصيف، يتبارى الأشداء منهم في القفز إلى عمق البئر حالما تعلو بمياهه الأمواج، ثم يتشبثون بجداره الصخري لما تنحسر فيتسلقونه لأعلى حتى يخرجوا منه. وأضافت: إن القلة منهم يتبارون في القفز في البئر ثم يسبحون داخل القناة المائية من تحت الصخر، فيخرجون من ناحية البحر هناك، وأشارت بيدها و«سليمان» يتابع كلماتها كالمأخوذ.

لاحظ أنها لا يتبادلان الكلام مطلقاً وإن كانا يتناوبان الحديث إليه. فتمنّى لو أن إعارته الخاتم للطفّي تصير سبيلاً للوفاق فيما بينهما، وتمنّى من كل قلبه لو تكون مساهمته تلك سبباً في إسعادهما، فقد أحبّ بنهار فعلاً وشعر بعد اقترابه منها بمدى تعاستها وكآبة حياتها بالرغم من كل مظاهر النجاح ورغد العيش التي كانت تلفُّ بها. ولطفّي أيضاً كان طيب القلب ومنكسراً لأسباب خارجة عن إرادته، فالرجل الذي لا يستطيع أن يسعد امرأته لا يقدر أن يكون سعيداً مهما جمع من ثروة أو سلطة وأصدقاء من حوله.

أما لطفي فكان في صمته يُمنّي نفسه بالنصر الوشيك، فقد صار عند حافة الحصول على الخاتم المسحور الذي كان قد أنقذ حياة الدكتور رشاد فكري - رحمه الله - ليلة استعاره من صديقه وفي الأيام القليلة من بعدها وحتى أعاده إليه بتعاميه، فتخلت عنه قوته الحافظة، وانتهت حياته ولقى حتفه على أيدي المتربصين به بعد أن فشلوا في إسكاته عن إطلاق كلماته المهاجمة، فأطلقوا عليه رصاصاتهم النافذة بدورهم وأخرسوه للأبد. لا يمكن أن يكون خبر موته قد وصل لسليمان بعد، ويجب ألا يصله الآن وحتى تتم الصفقة على خير. عند انتهاء «بنهار» من كلامها عن بئر مسعود ارتفع صوت لطفي متسائلاً:

- «قلت إياه يا سليمان؟ موافق؟»

- «طبعاً موافق!» أجاب سليمان على الفور ومدَّ بإصبعه نحو خاتمه خالغاً إياه عنه بتأثر من حول بُنصره. ومدَّ «لطفي» بدوره يده إلى جيبه وأخرج ورقة مطوية بعناية، وفردها أمامه قائلاً:

- «وده يا سيدي عقد بيع الشاليه، ع الإمضاء!» ومدَّ نحوه فأخذه «سليمان» وقَدَّمَ إليه خاتمه ما بين إصبعيه. وفي لحظة مباغتة كان «ديدو» وصحبه قد قفزوا أمامهم وأعينهم مثبتة على الخاتم الفضي المسحور، وفي غمضة عين كان «ديدو» قد دفع بكفه في خفة ومهارة يحسد عليها ليلتقط الخاتم من بين أصابع سليمان. ولكن «لطفي» كان له بالمرصاد فأمسك به

قبله، وتشابكت أيادٍ كثيرة وتزاحمت تعتصر قبضته لتتزع الخاتم من داخلها، وفعلاً نجح رجل من أتباع ديدو في الحصول عليه، وفي هجمة يائسة نشبت «بنهار» أظافرها في لحمه، فتأوّه الرجل ألماً ورغماً عنه أرخى من قبضته عندما حاول «لظفي» بغتة أن يستعيده من جديد، ولكنه أطاح به في عنفوان محاولته، فطار الخاتم أمامهم وتابعته عيونهم وهو يرتفع في الهواء، بينما تعكس فضته وعقيقه الأحمر ضياء الشمس الغاربة.

ارتطم الخاتم بحائط البئر الجانبي فتصاعد رنينه المعدني إلى آذانهم وهم متجمدون في ذهول يراقبونه وهو يتهاوى أمام أعينهم إلى عمق البئر المائل أمامهم..

أطبق لظفي فوق عنق ديدو يريد أن يخنقه بيديه لولا أن تدخل الرجلان اللذان انتزعه من قبضته، وصرخت بنهار فزعة لماً بدأ تنازع الرجال واشتبكت أيادهم، أفرعهم صراخها فتوقفوا. وشعر سليمان بموجة من الحزن تعتريه وغالب دمع عينيه لئلا يبكي أمام الباقيين، فأثر أن يستدير مبتعداً عن المكان. وفي لحظة كان ديدو قد أمر رجلاً من رجاله أن يقفز إلى البئر ليأتي بالخاتم فاستجاب الرجل حالاً، وخلع عنه ثيابه، ومع ارتفاع الماء بالبئر قفز بملابسه الداخلية، ورجع سليمان من جديد ليرقب نتيجة تلك المحاولة اليائسة لاستعادة خاتمه. سرعان ما انحسرت المياه التي شابتها الآن حُمْرةٌ ما، كاشفة من جديد عن مؤخرة رأس الرجل فحسبوه ما يزال يبحث

عن الخاتم، ثم ارتفعت المياه من جديد فغطت الرأس المنهمكة في بحثها. ازدادت حُمرة المياه ووقف الجميع يشخصون في ترقب منتظرين أن ترتفع يد الرجل في أية لحظة لتعلن عن عثوره على ضالته المنشودة.

طال انتظارهم وطال، ولم ترتفع اليد، بل ولم يستدر الرأس، موجة بعد موجة ليلتقط الرجل أنفاسه وعادت المياه إلى زرقتها المعهودة، وسرعان ما تلاشى الأمل الذي كانوا قد عقدوه في أن ينجح الرجل في العثور على الخاتم، ثم فجأة انقطع الأمل في أن يعود الرجل نفسه إليهم؛ إذ بقي هكذا لعدة دقائق منظرًا أمامهم منكفئًا وجهه بالمياه، وتحجرت عيونهم شاخصة نحوه، لعله يبدي حركة أو ينقلب ناحيتهم فجأة، في حين عجزوا أن يفعلوا أي شيء حياله. ثم أخيرًا بدءوا ينصرفون الواحد تلو الآخر ولم يَبْقَ سوى سليمان، الذي ضاعفت المحاولة الفاشلة، التي أدت إلى موت الرجل، من مقدار حزنه. وتعالَت الصيحات بين الرجال وراءه، وتبدلت الاتهامات مثل «يا قاتل» و «يا قواد» و «يا مومس»، ثم خَفَّتْ وتيرتها تدريجيًا حتى استحالت إلى عبارات تنمُّ عن النضج والحكمة ينطقون بها وهم يهزون رءوسهم مثل «عُمَره» و «قدره» و «إرادة الله» بينما يقرعون كفاً بكف، ولكن لم يعد يذكر أي منهم خاتم سليمان الذي كانوا قد تجمعوا اليوم من أجله، ثم تركوه في النهاية هو وخاتمه وحيدًا عند البئر.

وما يزال البعض يأتي خُلُسةً ويفتش عن الخاتم ليلاً، بعد غروب الشمس،
مستعينين بكشافات مخصوصة، إذ صدر الأمر لاحقاً - بعد رفع جثة الرجل
من عمق البئر - بوضع حارس من رجال الأمن يمنع الناس أثناء النهار من
القفز في «بئر مسعود» بعد أن أشيع بين الخلق أنه كانت هناك قوة شريرة
قد حَلَّتْ به، قتلت يوماً رجلاً مسكيناً حاول أن يقفز في البئر باحثاً عن خاتم
سليمان.



صدر للمؤلف

رواية زهور بلاستيك

- رواية — الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٦ (الخضارة للنشر)
رواية — الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠٠٧ (الخضارة للنشر)

خاتم سليمان

- رواية — الطبعة الأولى يناير ٢٠٠٨ (الخضارة للنشر)

رقصة قوس قزح

- رواية — الطبعة الأولى مايو ٢٠١٠ (الخضارة للنشر)

والملائكة أيضا تصعد للطابق الثالث

- رواية — الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠١١ (الخضارة للنشر)

مريم والرجال

- رواية — الطبعة الأولى مايو ٢٠١٤ (دار العين للنشر)

مجموعة قصصية

مهاجرين

مجموعة قصصية فبراير ٢٠٠٥ (الخطارة للنشر)

اليوم الثامن

مجموعة قصصية اكتوبر ٢٠٠٩ (الخطارة للنشر)

سحر الحياة

مجموعة قصصية فبراير ٢٠١٧ (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

أشعار وأزجال بالعامية المصرية

دواير

ديوان أشعار بالعامية المصرية مايو ٢٠٠٤ (الخطارة للنشر)

حواديت من كتاب الحب

أزجال وأشعار بالعامية المصرية يوليو
٢٠٠٥ (الخطارة للنشر)

الاسم: مصرية

ديوان أشعار بالعامية المصرية يوليو ٢٠٠٥ (الخطارة للنشر)

فنجان قهوة مع جاهين

ديوان أشعار بالعامية المصرية اكتوبر ٢٠١٠ (الخطارة للنشر)